

طريق العمدة



يوسف السباعي

يوسف السباعي

طريق العودة

يطلب من : مكتبة مصر بالقجالة
٣ شارع كامل صدق

الإهداء

إلى صديقي صاحب هذه القصة ..
مع الاعتذار عن طريقة ختامها ...
إنه ختام واقعي ... استعرت من حياة غيره ...
لأختتم به قصته ... وأحل به مشكلته .
أطال الله عمره .. وأبقى حياته .

يوسف السباعي

الفصل الأول

طريق العودة

في خريف عام ١٩٤٨ ، وقبيل المعارك الحاسمة التي انتهت بها عمليات القتال الأولى في فلسطين .

والقطار ينزل بيضاء من محطة القاهرة .. وهو قد جلس وحيدا في الديوان .. مدد ساقيه على المقعد المواجه وقذف بالبيرة الكاكي فاستقر فوق الرف الشبكي .. وبدأ يفك توكة الحزام وأزرار السترة .. وأطلق من صدره زفرة راحة واسترخاء ..

لم يطل من النافذة كبقية الركاب ولا لوح يده لأحد .. لأنه لم يكن هناك من يطل عليه أو يلوح له .. لقد أوصله سائق العربة البيك أب .. ووضع له الأمتعة فوق الرف .. ثم رفع يده بالتحية وانصرف ..

لم تكن هناك مظاهر وداع .. لقد انتهى منها في البيت .. وحتى هناك لم يكن الوداع وداعا بكل مظاهره .. كان وداعا إلى حين .. فما كانت الفرقة لتطول .. ولو أحس أنها ستطول لما منح وداعه حرارة أشد أو لهفة أكبر .
لقد كان في حالة تبدل لا تسمح له بالإفراط في مظاهر الشعور أيا كان نوعه .. لا فرح ولا ضيق ولا حزن ولا غضب ..

كان أشبه بالمتنهي من شوط سباق .. استلقى في نهايته .. لا يريد أكثر من أن يلتقط أنفاسه .. ويخرجها في هدوء وطمأنينة .. غير مكروب ولا لاهث .. هاتئا باسترخائه واستقراره .. وإلقاء أعبائه وانتهاء متاعبه .

وانساب القطار تحت سقيفة المحطة وانحسر ظلها عن نوافذه .. وألقت الشمس أشعتها على ساقيه .. وتواترت أمام عينيه الأشجار والأسوار والدور العالية والعربات المتسابقة في الشارع الممتد جواره .. وخلف القطار وراءه عمارة غمرة العالية .. وأخذت ضجة المدينة تتباعد .. ومناظرها تتلاشى ولم يعد يمر به سوى أكشاك سكة الحديد السوداء .. وعرباتها المتناثرة هنا وهناك .. وبدأت الحقول الخضراء تلوح لعينه .. في مساحات شاسعة لا تقف في سبيلها سوى أشباح أكواخ سود تقطع خط الأفق الذي يرسمه التقاء فسحة السماء الزرقاء ببسطة الأرض الخضراء .. وأحس براحة أكثر ..

لقد ألقى المدينة وراء ظهره .. بكل ما فيها من متاعب ومشاكل .. أجل .. مشاكل .. ليس يلدرى كيف تراكمت وتعمدت حتى .. أحس في النهاية أنها قد أمسكت بخناقة وأحاطت بعنقه .. فكتمت أنفاسه .. وحطمت أعصابه ..

لقد استطاع أن يخلق له اسما ويوجد له كيانا كمهندس معماري .. قلما أتبع لشاب في مثل أحداثه وفي مثل وضعه .. إن طبيعته الفنانة الخالصة .. لم تستطع أن تقبع في نطاق الوظيفة الضيق ولم تحتمل مواهبه أن تقيد إلى مركز محدود الإنتاج .. ولم تلبث قدراته أن تسربت إلى نطاق أوسع وميدان أكثر تحررا ..

كان فنانا بطبيعته .. كانت هندسة الإنشاء والتعمير في دمه وفي كيانه .. وعندما تخرج في كلية الهندسة والتحق بالجيش وتسلم عمله كضابط لأشغال إحدى المناطق العسكرية .. أخذ ينظر إلى الشكنات العسكرية في ضيق . شيء ما لا بد أن يحدثه في هذه الشكنات الكئيبة المقبضة .. شيء يكسبها بعض الجمال والرونق .. ويمنحها بعض النور . ليس مفروضا على الجنود أن

يسكنوا فى قبور ضخمة مظلمة سمكة الجدران .. ليس مفروضا عليهم أن يحرموا نعمة الجمال والضوء ..

شيء جديد لا بد أن يدخل على هندسة البناء العسكرى .. كما دخل على كل أنواع الأبنية فى عالمنا المتحضر .. فلم يقل أحد إن هذا النوع المقبض من الأبنية ذات الأقبية والأعمدة السمكة .. المأخوذ عن أبنية ثكنات الإنجليز والمعروفة من القرون الوسطى .. قد أضحت فرضا لازما للعسكرية .

وبدأ فى حدود سلطاته .. يفعل أشياء جميلة .. لم يجعل عمله مقصورا على فرشاة الجير وتسليك البكابورتات وإصلاح النور فى الثكنات .. بل بدأ يقيم إضافات جديدة .. هنا وهناك .. يصلح واجهة .. أو يعدل مدخلا ..

ول ترعج أعماله تلك أحد الرؤوس المهيمنة على رياسة الأشغال العسكرية فقد كانت بطبيعة سلطاته المحدودة ... ضيقة النطاق .. لا تتعدى مظاهر الإصلاح والترميم .. التى يمكن التجاوز فيها عن عبث المهندسين الجدد وحماهم ..

حتى أوكل إليه .. أن يضع تصميمًا لأحد الأبنية الجديدة المنشأة فى منطقته .

وعنها .. وبدأ الرسم ..

لقد كانت فرصته الأولى ليحطم التماذج العتيقة الكئيبة التى فرضت على المنشآت العسكرية .

وظهر البناء الجديد .. فبدأت مشاكله ..

المشكلة الأولى هى إصرار المدير على أن يفتح شبكا بحريا فى مكتبه . وإصراره هو على ألا ينشأ الشباك لأنه سيشوه واجهة المبنى .. وانتصر هو فى النهاية .. وكان على المدير أن يبحث له عن حجرة بحرية أخرى أو يحتمل حجراته بلا شباك بحرى .

والمشكلة الثانية .. هى ثورة رؤسائه على هذا الشباك الذى أقامه .. وعلى خروجه عن تقاليد الأبنية العسكرية ..
وانتهت المشكلة بأن ظل البناء كما هو ..

وظل هو يصمم ويشيد بطريقته التى يوحى بها إليه شيطان فنه ..
وأخيرا طفح الكيل .. أو بلغ السيل — كما يقول الفصحاء — الزى ،
وأحس المسئولون عن الأشغال العسكرية أن زمام الأبنية إن استمر فى يده هذا
الأحمق الصغير .. سيطيح بتقاليدهم .. وكان عليهم أن يصدروا أمرا عسكريا
يحتم عدم الخروج عن التصميمات الموروثة عن الأجداد .. والاكتفاء بالأقبية
والأعمدة الضخمة .. وكفى الله المهندسين شر المعمار ..
وكان على المهندس الصغير أن يبحث له عن عمل آخر غير التنظيم والبناء
.. فنقل إلى سلاح المهندسين ليثبت مظهر نبوغه فى الغازات السامة والألغام
والأسلاك الشائكة ..

ولكنه كان يجب أن يرسم .. وأن يصمم .. وأن يجلس ليرقب .. هذا
الشيء الذى وضعه على الورق .. وقد تجسد .. واستقام .. وعلا وأضحى
فيلا جميلة .. أو عمارة شاهقة .
وأنشأ له مكتبا خاصا للرسم .. وبدأ يجاهد فى السوق .. لم يترك مناقصة
أو مسابقة إلا اشترك فيها .. وكان لا بد أن يفوز .. لأنه فنان .. ولأنه يهوى
مهنته .

ولمع اسمه .. على حدائته .. وزاد ربحه على قصر اشتغاله بالمهنة الحرة وزاد
الإقبال على مكتبه .. زيادة وضعت فى مصاف القدامى من المهندسين
المعماريين .

وهنا ارتكب غلظته الكبرى .

فقد بدأ يدخل فى عمليات المفاوضة وتجاوز عمله من التصميم إلى التنفيذ ..

ولم ينجح ..

لا يدري له ..

قد تكون حاجته إلى عبقرية المقاتل . وعبقرية المقاتل .. شيء آخر غير
عبقرية الفنان .. بل هي قد تحتاج من الصفات إلى نقيضها .. فالفنان عماده
الخيال ..

والمقاتل .. عماده الواقع .. الفنان يخلق في الهواء .. والمقاتل يبنى على
الأرض .. الفنان يحتاج في خلقه إلى السكينة والهدوء .. والمقاتل يحتاج .. إلى
الصياح والضجيج .. الفنان لا بد أن يسرح .. والمقاتل إذا سرح ضاع ماله
.. ودك صرحه ..

وقد تكون حاجته .. إلى التجربة الطويلة .. وإلى معرفة الناس وممارسة
التعامل معهم .. وفهم عاداتهم وأخلاقهم .. لقد خرج من المدرسة إلى
الشكنات إلى المكتب ، مليئا بحسن الظن وطيب الفهم .. لم يمارس الخداع ..
ولا المماطلة .. وخير المقاتلين ما نشأ .. في الصفوف .. وتدرج من عامل ..
إلى ريس .. إلى أسطى .. إلى ملاحظ .. إلى صبي مقاتل .. إلى مقاتل ..
فقى تدرجه هذا سيمارس كل أنواع السفالات المتوقعة .. بين جميع
الطبقات .. وعندما يمارسها الناس معه .. لن يؤخذ بها .. فهو يتوقعها قبل أن
تحدث .. بل أكثر من هذا سيدخلها في حسابه .. فهو يعرف جيدا .. أن
العمال قد يتخلون عنه بسهولة وأن الأسطوات قد يتعاقدون معه ومع غيره ..
ثم يذهبون إلى ثالث .. كل هذا يجب أن يدخل في حساب العملية ..

هكذا يجب أن يكون المقاتل .. ولم يكن هو كذلك ..

وقد تكون حاجته إلى رأس المال .. فلا بد أن يستند المقاتل إلى رصيد
محترم .. يجري به عملياته العديدة ، ويظهر بمظهر الرجل القوي القادر على
كسب الثقة .. ولا يلجئه إلى الجرى وراء العميل .. واستحلاب نقوده ..

قد يكون هذا أو يكون غيره ..

المهم أنه فشل في عمله كمقاول .. فشلا ذريعا وجد نفسه فجأة .. متورطا في بضع عمليات متوقعة .. دون أن تكون لديه القدرة على دفعها والاستمرار فيها ..

وأحس أن كل من حوله يريدون نقودا .. يوميات عمال .. وأثمان خامات .. والعملاء لا يريدون دفعا .. لأنهم دفعوا الأقساط المستحقة .. بل ودفع بعضهم زيادة عليها .. وهم يتعجلون أبنيتهم ويهددون بتنفيذ الغرامات الموجودة في العقود .. وبعضهم يهدد بالشكوى إلى القضاء .. بل إن أحدهم قد أرسل إليه إعلانا على يد محضر ..

لم يعد إذا .. فنانا .. يمارس عمليات الخيال والجمال .. بل أضحي يمارس عمليات الحياة .. في بؤرة الواقع .. غريقا في المونة والأخشاب والأدوات الصحية .. والبلاط .. والمسلح .. مشدودا من عنقه إلى التجاريس .. والمبيضين والسباكين ..

وباتت حياته سلسلة من المشاكل والمنغصات .. وباتت معاملاته قائمة على سلسلة من المماطلات .. العمال يماطلونه .. وهو يماطل العملاء .. واستدان ولم يفلح الدين في فض مشاكله وفك أزمته .. وتعذرت عليه الحياة .. العادية .. لم يعد مرتبه يكفى لسد حاجاته . والوفاء بديونه .. لم يعد يملك أجر البيت أو مصاريف مدرسة ابنته .. أو سد قسط العربة .. وكان لا بد من عملية تصفية .. ليس فقط لأعماله الحرة .. ولمكتبه .. بل لحياته .. ولنزله ..

ولم يكن هناك منفذ له .. إلا .. أن ينقل إلى إحدى وحدات الميدان .. أجل .. ذلك هو الباب المفتوح أمامه لكي ينقذ نفسه من تلك الشبكة المعقدة التي أحاطت بحياته .. ولكي يخرج من حالة اليأس القاتل التي دفعها

فى نفسه سلسلة أعمال الفشل التى منى بها .. وسلسلة الخيبة والخذلان التى أصيب بها من كل من تعامل معه ..

كانت عملية تصفية وهروب واستجمام ..

بدأها ببيع عربته .. وتصفية أعماله على أساس تحويلها إلى دين واحد يمكنه سداده على أقساط يوفرها من مرتبه المضاعف الذى سيستولى عليه فى الميدان .. ومن عمليات التوفير التى سيجريها فى حياته بعد أن يترك بيته .. ومن المبلغ الذى سيحصل عليه من إيجار البيت ..

وهكذا استطاع أن يدبر أمره .. ويرتب حياته خارجا من كل ما كان يحيط به .. صفر اليدين .. إلا من زوجه .. وابنته .. ومركز قائد لإحدى سرايا المهندسين فى العريش ..

وأحس بالقطار يتهاذى .. فتهاذى فى تفكيره .. وتمهل فى شروده .. وتنقل بصره من النافذة على أعمدة التلغراف ثم قوائم السور المتتالية . فأشجار التوت الجرداء .. فلافته « بنها » حتى انتهى إلى مبنى المحطة القديم القذر .. وبدأ كعادته يضع له التصميم الواجب .. إنه يستطيع ببعض التعديلات أن يخلقه خلقا جديدا ..

هذه الواجهة يجب أن تزال .. ويجب أن يوضع هناك عمود يحمل السقف .. وفى الجانب الأيمن لا ضرورة لهذا الكشك القذر .. و .. و .. وصفر القطار وغاب المبنى عن عينيه .. وتلاشت معه أصوات الباعة .. سيمط وجبنة .. وكازوزة . وانيسطت مرة أخرى أمام عينيه الصفحة الخضراء ..

لقد ترك مديحة زوجته مع ابنته نادية .. فى بيت أبيها .. وهو لا يحس الآن بألم الفرقة .. أو ضيق الوحشة .. لقد أبغض حياته .. بكل ما فيها .. لا يعنى بالطبع أنه أبغض مديحة .. فهى مخلوقة طيبة يمكن احتمالها كزوجة .. رغم بعد الشقة فى أفكارهما وذوقيهما .

لم يكن هناك أى تطابق بين شخصيتيهما .. وهو لا يدري إذا كان هذا ضرورة للزواج .. أم لا .. هناك أشياء كثيرة لا تفهمها منه .. وهو لا يجد هناك ضرورة لإفهامها .. فهي تؤدي واجبها له ولايته .. بلا حاجة إلى أن تدخل في أعماقه ..

وهو لم يحاول أيضا أن يفهم ما في أعماقها .. قد يكون لأنه لم يكن لديه وقت لهذا .. أو لأنه لا يعتقد أن هناك شيئا في أعماقها .. وابنته لطيفة .. لقد أحبها أكثر مما اعتقد أنه يمكن أن يحب أى إنسان .. وعندما ولدت .. لم يحس لها شيئا .. كانت مخلوقا غريبا عنه .. كأنه قطعة أثاث أو إحدى القطط التي تعودت زوجته ملاعبتها والعناية بها .. وقد أخذ على نفسه هذا .. وساءه تبلد شعوره الأبوى .. ولكن الزمن أراحه .. فلم تكذب نادية .. تعي ما حولها .. ولم تكذب تبتسم له .. حتى أحس بشيء يجذبه نحوها .. وبرغبة في حملها والتحديث فيها .. ومر بها العام تلو العام .. وقد بلغت الآن السادسة والمفروض أن تدخل المدرسة في أكتوبر هذا العام أى بعد بضعة أسابيع ..

لقد مرضت وهى فى الثالثة بالتيفوئيد .. وروعت أمها بمرضها وروع الجميع .. ولكنه كان أقلهم ارتياحا .. ربما لأنه لم يحس خطورة المرض عليها .. هو يحبها ما فى ذلك شك .. ومع ذلك .. فهو يحس الآن بحال « زهقان » من الدنيا .. بكل ما فيها .. ومن فيها .. ولو خير أن يبدأ حياته من جديد .. لما تزوج .. ولما أنجب .. إنه وحده يستطيع أن يكون أكثر شجاعة فى مجابهة مشاكل الحياة .. فلم يكن يفزع من أزمته إلا تفكيره فى زوجته وابنته .. لقد كان يحس أنهما عبثان على كتفه ..

وما زال هذا الأحساس يملكه حتى الآن .. إنه لا يستطيع أن يحس بشعور المغامر المتحرر .. لقد فر من حياته فى القاهرة .. ولكن عليه أن يرتبها

فى العرىش .. ثم ىدبر أمر مستقبلى على أساس إعادتها مرة أخرى فى القاهرة ..
وتشاءب وتمطى .. وأطلق من صدره زفرة .. ثم استرخى .. لماذا ىتعب
نفسه فى كل هذا الآن ؟.

لقد تخلص من شبكة المشاكل وقذفها وراء ظهره .. وهو ىجلس الآن
مسترخيا مرتاحا .. وعندما ىصل إلى العرىش سىكون استرخاؤه أتم وراحته
أكمل .. لقد قالوا له .. إن له ىتأ لطيفا .. وهو لا شك بعيد عن خطوط القتال
.. وما فىها من مضایقات ومنغصات ..

وسىرسل لإحضار مديحة ونادية لقضاء فترة قبل دخول المدرسة .. إذا
وجد البىت لائقا والجو ملائما .. وإذا زالت من نفسه حالة الزهقان التى ىحس
بها نحو الدنيا كلها .. وإذا عاودته الوحشة إلى كليهما ..
وتشاءب ثانية وتمطى ..

وأحس بفتور النوم سىرى فى أوصاله .. وأسند رأسه على مسند المقعد
وأغمض عىنيه .. وراح فى إغفاءة ..

الفصل الثانى

خطايا

لم توقظ إبراهيم .. وقفة القطار فى الزقازيق .. وكان من المحتمل إلا توقظه
وقفته فى الإسماعيلية .. لولا ضجة أحدثها رفيق جديد .. فى الديوان .. تعتمد
بها أن يوقظه ..

هتف الرفيق الجديد فى حماس :

— من ؟ .. إبراهيم شكرى .. ماذا أتى بك هنا ؟!

وفتح إبراهيم عينيه .. ولم يبد عليه حماس .. مساو لحماس الجانب الآخر
.. لأن الحماس لم يكن فى طبيعه .. ولأن حالة النوم والزهقان السابق للنوم
كانت تمنعه من كل محاولة لاقتعال الحماس ..

خفض ساقيه .. وأقام جسده الطويل الرفيع .. ومد يده مبتسما .. مرحبا
وهو يقول فى لهجة منحها النوم كثيرا من استرخائه :

— أهلا مراد .. كيف حالك ؟.

— كيف حالك أنت .. ما الذى أتى بك هنا ؟.

— نقلت إلى العريش ..

— مدهش .. سنخدم سويا مرة أخرى .. أتذكر عندما كنت ضابطا
مستجدا فى الأشغال ..

— عندما سرقت منى الخشب ؟ ..

واندفع الاثنان فى قهقهة عالية ..

كان إبراهيم يذكر الحادثة جيدا .. بل ذكرها .. قبل أن يذكرها بها مراد ..
ذكرها بمجرد أن رآه .. فقد كان شخصه مقرونا بها في ذهنه دائما .. كانت
نموذجا لاستهتاره وجرأته ..

إنه يذكر أول لقاء لهما في مكتبه .. في كوبرى القبة عندما زاره ببدلة
الشغل البنية الشبيهة ببدلة العمال وقد تلوثت يداه بالشحم والهباب .. ووقف
أمامه بجسده القصير وكتفيه العريضتين كأنه مصارع أو حمال أثقال .
وحياه ببساطة كأن بينهما قديم معرفة وسابق ود .. ورد عليه إبراهيم تحيته
بيرود وقد خيل إليه أنه من عمال الصيانة ..

واستطرد مراد في حديثه بلا مقدمات قائلا :

— لقد استلمت ثلاث دبابات جديدة .. ونريد لها جراجا .. بسرعة ..
ونظر إليه إبراهيم في غيظ :

— من أنت أولا ؟

وضحك مراد ضحكة بدت منها طيبته وأجاب :

— لقد ظننتك تعرفنى .. لأننى أعرفك .. أنا الملازم أول محمود مراد ..
ضابط إمداد آلاى الدبابات ..

— أهلا وسهلا ..

— لقد استلمنا ثلاث دبابات من الجيش الإنجليزى ونريد أن نقيم لها جراجا
في الأرض الكائنة بجوار الميس ..

— اكتبوا خطايا للمصلحة ..

— ليس هناك وقت للخطاب ..

واستمر إبراهيم .. يشرح له بيرود ما يجب عمله ..

— والمصلحة ستحول لنا الخطاب إذا وافقت .. ثم ستجرى مقايضة ..

— لماذا كل هذه الإجراءات المعقدة ؟ ..

— ثم ترفع المقايضة إلى المصلحة .. وعندما توافق عليها .. يكتب إلينا ..
ثم ..

— إننا نريد الجراج حالا .. لا يمكن أن نترك الدبابات تبست في الطل ..
حتى تجرى أنت مقايستك ..

— هذه هي الأصول ..

— الأصول ألا تترك الدبابات في الخارج .

— إذا أقم أنت لها جراجا بمعرفتك ..

— سأفعل ..

— لماذا إذا أتيت إلّى ما دمت قادرا ؟ ..

— كنت حسن الظن بك .. الضابط الذى قبلك كان يفعل لنا كل ما نريد
بمجرد أن نطلبه ..

— كانت فوضى ..

— متشكر ..

— العفو ..

وخرج مراد غاضبا .. وكان إبراهيم يعرف أنه يستطيع أن يقيم له الجراج
لو أراد .. فلديه من الخامات الوفرة .. ما يستطيع أن يفعل به أكثر من هذا ..
ولكن طريقة دخول مراد عليه .. ولهجة كلامه لم تعجبه ..

ففضل أن يتبع معه الأصول .. ولا يفعل له شيئا .. حتى يعود إلى رجائه
مرة أخرى ..

ولم يعد إليه مراد .. وفي صباح اليوم التالى .. وهو في طريقه إلى مكتبه ..
وجد الجراج مقاما بالعروق الخشبية والسقف الصاج .. وقد أوت الدبابات
الثلاث إليه ..

وذهل إبراهيم ..

وزاد ذهوله عندما دخل إلى ثكناته فإذا بكوم العروق الخشبية المرصوص
بجوار المخازن والملاصق لجدار الفرسان قد تناقص إلى النصف وإذا بالخزنجي
يقبل عليه مرتجفا لينبهه إلى أن جنود الفرسان قد سطوا على الخشب خلال
الليل ..

وثارت ثائثرته .. فقد أدرك أن ضابط الفرسان قد نفذ تصميمه .. وأخذ
الخشب والصاج وبنى الجراج خلال الليل عنوة واقتدارا ..
واندفع في ثورته إلى رئاسة الفرسان .. ليشكو حادث السرقة
والاعتداء ..

وفي طريقة صادف مراد فحياه ضاحكا ..

— صباح الخير ..

— صباح الخير ..

— الجراج عجبك ..

— هذه بلطجة ..

— لتكن .. المهم أن الجراج قد عمل والدبابات لم تبت في العراء ..

— سأهدمه .

— إياك .. لقد أمرت الجنود أن يضربوا كل من يقترب منه من عمال

الأشغال ..

— لا بد أن تستعيد الأخشاب ..

— ولماذا لا تضع بها المقايسة المطلوبة .. سأسلمك الخطاب الذي تريده

.. وتتخذ أنت إجراءاتك على أقل من مهلك ..

ووضع يده في ذراعه ثم سحبه إلى مكتبه ضاحكا وأردف يقول ..

— تعال .. نشرب فنجانا من القهوة .. ونتفاهم ..

ولم يملك إبراهيم إلا أن يضحك ويسير معه قائلا :

(طريق العودة)

— نحن لا نعيش في ثكنات .. إننا نعيش وسط عصابات .. هذه أول مرة
أسمع فيها .. عن مثل هذا النصب ..
— لأنك مستجد .. عندما تقدم ستسمع كثيرا ..
— هذه آخر مرة أسمع فيها بمثل هذه السرقة ..
— عيب .. لقد وفرت عليك نقل الأخشاب .. وإقامة الجراج .. ووفرت
عليك الأخذ والعطا بيننا وبين المصلحة .. احمد ربنا ..
وكان مراد على حق .. لقد كان ما فعل .. هو خير طريقة لإقامة الجراج ..
وكانت تلك هى طريقته الدائمة فى الحياة .. كان جسورا مندفعاً ..
مستترا .. لا يقيم وزناً للشكليات الخلقية أو القيم الموضوعية .. المهم أن يصل
إلى ما يريد .. بأسرع السبل وأيسر الوسائل ..
وقد صادفه بعد ذلك .. فى عدة مناسبات .. كانت إحداها معركة فى
أتوبيس .. ضرب فيها السائق والكمسارى لأنه لم يقف فى المحطة .. رغم خلو
الأتوبيس ووجود ركاب على المحطة ..
ومرة أخرى .. على باب إحدى صالات عماد الدين محاطا بزحام .. بعد
أن أغلق الصالة ..

وثالثة .. ورابعة .. كلها مناسبات تهور وعراك وجرة واستهتار .
وسمع عنه أنه ضرب أربعة جنود من الجنود الاستراليين أيام الحرب .. حتى
أفقدهم وعيهم .. لأنهم سكرورا وحاولوا اغتصاب إحدى الفتيات فى
الطريق ..

و لم يكن هناك سبيل إلى أن تقوم بين الاثنين علاقة وطيدة .. فقد كان
التناقض فى خلقهما على أتمه .. ولم تستطع الأقدار أن تجمع بينهما إلا فى
ظروف عمل متقطعة كانت تتباعد وتتقارب حسب حاجات العمل ..
حتى انقطعت العلاقة تماما بعد أن نقل هو إلى سلاح المهندسين وسافرت

معظم وحدات الفرسان إلى الحدود الشرقية عندما نشب القتال في فلسطين ..

وعندما لقيه اليوم في القطار .. لم يجد شيئاً به قد تغير .. نفس الجسد العريض القوى .. والقوام الربعة .. والقميص المفتوح الذى يبرز منه شعر صدره المشعث .. والأكمام المشمرة التى تكشف عن عضلات ساعديه .. وشاربه الأصفر المنكوش تحت أنفه كأنه شواشي الذرة .. أو كأنه فيونكة صفراء في وجه قطرة .. وصوته المرتفع وضحكته العالية الصافية .. وإقباله المندفع الحار المتحمس بسبب وبلا سبب ..

كان تماماً .. كما أقبل عليه في مكتبه .. يطلب إنشاء الجراج بسرعة .. لم يتغير به شيء سوى .. اتساع في جبهته نتج عن تساقط بضع شعرات من مقدمة رأسه كانت — مع النحول البادى في مؤخرتها — إيذاناً ببدء الصلع .. ونظر مراد إلى إبراهيم مدققاً ثم قال :

— لم تتغير في شيء .. ما زالت بك نفس النحافة والهدوء ..

— ولا تغيرت أنت .. ما زال بك نفس التحدى والبلطجة ..

— لا .. لقد خشعت كثيراً .. كبرنا يا إبراهيم .. السن عليها معول ..

مضى على بضعة أشهر لم أضرب فيها أحداً .. إلا بواب البيت الذى أنزل فيه في الإسماعيلية .. فقد رقعته علقه طيبة .. على الريق ..

— لماذا ؟

— ابن هرمه .. مضى على ثلاث ليال .. أغمض عيني في الساعة الثالثة

صباحاً لأفتحهما في الثالثة والنصف .. على صوت صراخ مزعج .. يطرد النوم من عيني .. وعندما سألت في الصباح علمت أنه بواب العمارة يؤذن الفجر .. وقد حاولت نصحه .. بالكف عن الأذان بهذه الطريقة المفزعة فقال لي إنه رجل مؤمن .. وإنه حر في أن يؤذن كما يشاء .. حاولت أخذه بالحسنى

.. وقلت له إنه حر في أن يؤذن كما يشاء ولكنه ليس حرا في أن يزعج الناس كما يشاء .. وأفهمته أن مهنته بواب وليس مؤذنا .. وقلت له إنه يستطيع إذا حزقه الأذان أن يؤذن في سره .. ولم يرتدع بالطبع .. وفي الليلة الثالثة ازداد أذانه علوا .. وتحديا .. كأنما قد توهم نفسه بلالا بين الكفار .. وهبطت من فراشي بالجلباب .. ورقعته علقه طيبة .. وأفهمته أنه يستطيع أن يتدين .. ويؤذن .. ويجاهد في سبيل الله طول أيام الشهر .. عدا الثلاثة أيام التي أقضيها في الإسماعيلية ..

— ثلاثة أيام؟ .. ألا تحصل إلا على ثلاثة أيام إجازة فقط في الشهر؟

— سبعة .. ثلاثة في القاهرة .. وثلاثة في الإسماعيلية ويوم حرية ..

— ولماذا تقطع الإجازة هكذا؟

— ثلاثة أيام في القاهرة .. للعائلة .. وثلاثة أيام في الإسماعيلية للرفق .. بنت جميلة عبارة عن لوز مقشر .. ويوم الحرية .. نخبص منفرد .. تفارح وسكر وعربة على ما قسم ..

وبدا مراد في حديثه بسيطا طبيعيا .. كأن المفروض أن تكون للإنسان عائلة ورفيقة ..

ولم تعجب طريقته في الحديث إبراهيم .. وبدت له انحلالا شائنا .. فقد كان إبراهيم يحترم نظم المجتمع وشرائعه .. ومبادئه .. وقيوده الخلقية .. كان يعرف أن الزواج ارتباط أو عقد لا يجب الإخلال به .. ويعرف أن لزوجته حقوقا عليه يجب صيانتها .. أولها ألا يشرك في حياته غيرها .. وأن يؤدي لها كل واجب نحوها .. على الوجه الأكمل بقدر ما تمنحه له ظروفه في الحياة .. وهو يعرف أن هناك زللا .. وأن هناك خطايا .. فهو لم يبلغ به البله إلى حد تصور الحياة بلا خطايا ..

يعرف أن الرجل يتعرض لشتى الإغراءات في مختلف أدوار حياته .. ولكنه يعرف أيضا أن مقاومة الإغراء واجبة .. وأن إرادة الإنسان يجب أن تقوم بدورها في صد الإغراء .. وصيانة الإنسان من الزلل .. وصدّه عن الخطايا .. وهو يعرف أيضا أن بعض الناس .. لا تقوى إرادتهم على المقاومة .. فيفترقون في الزلل .. والحياة مليئة بالمذنبين من كل نوع ..

ولكن الشيء الذى لا يعرفه .. وإن عرفه فهو لا يقره .. هو اتخاذ الزلل قاعدة .. ومباشرة الخطيئة .. على أنها حق طبيعى .. لا داعى لمقاومته ولا ضرورة لصدّه ..

لقد كره في مراد اعترافه برفيقته الجميلة وتحديثه عنها بتلك السهولة .. وبنفس الطريقة التى يتحدث بها عن زوجته .. دون أن تكون بينهما صداقة وطيدة تسمح بإفشاء أسرارهم بمثل هذه السرعة والسهولة .. ثلاثة أيام للعائلة .. وثلاثة أيام للرفق .. ويوم للسكر والعريضة .. هذه وقاحة ..

ومع ذلك .. فقد كان على إبراهيم أن يسلم بها .. ويصمت عنها .. فما كان لديه من الرغبة والجهد .. ما يدفعه إلى القيام بدور الواعظ .. وما كان يعتقد أنه حتى لو كانت لديه الرغبة والجهد يستطيع أن يبدل هذا المخلوق .. ويغير طباعه المستهتر ..

ولم يعلق إبراهيم على قول صاحبه بكلمة .. ولكن مراد لم يخف عليه .. عدم تحمسه .. لحديثه عن الرفق والسكر والعريضة .. ولم يملك إلا أن يضحك قائلاً في شبه اعتذار :

— إذا لم أفعل هذا .. قضى على ..

— وإذا فعلته قضى على مستقبلك ..

— ٢٢ —

- أنا أعرف كيف أفرق بين أوقات العبث وأوقات العمل .. لا أظننى جعلت إحداها تغطي على الأخرى أبدا . إني أعرف حق عملى ..
- وحق زوجتك ؟!
- أنا لم أقصر فى حقها ..
- والرفق ؟ ..
- لا دخل لها به .. إنه حقى أنا ..
- أتعرف هى هذا ؟
- تعرف أحيانا .. وتجهل أحيانا ..
- وعندما تعرف ؟
- تغضب ..
- وعندما تغضب ؟
- أرضيها .. أو أتركها حتى ترضى .. هذه هى الحياة .. وهذا هو الزواج ..
- ولم يعجب هذا الكلام إبراهيم .. ولم يعلق عليه ..
- وهز كتفيه كأنما يقول : (لكم دينكم ولى دين) .. وأراد أن يحول دقة الحديث إلى اتجاه آخر فتساءل :
- كيف الحياة فى الميدان ؟ ..
- إما ضرب .. أو نوم ..
- وأيهما أمتع ؟ ..
- فى رأى أنا .. الضرب .. إن به حركة وحياة ..
- .. وموت ؟!
- بالنسبة لى لم أجربه .. لقد منحتة للآخرين ..

— وكيف وجدت منحه ؟
— ممتع عندما تحس أنك تتأثر لمظلوم .. أو تأخذ حق مهضوم الحق ..
ومد إبراهيم ساقيه .. وأغمض عينيه ..
وأحس بما يشبه الغثيان .. ومرة أخرى كره الحديث .. ولم يجد وسيلة
لتجنبه إلا النوم .. أو التظاهر به .. إنه ييغض العنف ويكره الخطأ .. فما باله
بالقتل ..
واستمر القطار يشق طريقه بين رمال الصحراء .. كأنه أفعى تنساب ..

الفصل الثالث

إحساس بالاستقرار

أخذ القطار يقترب من وقفته الأخيرة في محطة العريش .. وبدأ البحر ممتدا على اليسار .. في زرقة رائعة .. تتخلل أشجار النخيل الممتدة على طول الشاطئ ..

وأحس إبراهيم بشيء من الانتعاش من زرقة البحر ونسماته الرطبة . ومن خضرة النخيل التي تقطع الرمال الصفراء المتراصة على طول الطريق .. وداخل نفسه إحساس المنتهى إلى رحلة استجمام بعد طول مشقة وجهد .. وشعر كأنه مقبل على مصيف هادئ ناء .. حتى توقف القطار في المحطة ولاح لعينه مظهرها العسكري .. وحجب اللون الكاكي .. الذي بدا في الأبنية المحيطة .. وفي الرمال .. وفي العربات البيك أب ولوريات النقل الرابضة على الرصيف .. وفي ثياب الجنود الذين يملأون ساحتها ويتشرون حولها .. حجب الكاكي في كل مظاهر العسكرية الغالبة .. ما سبق أن لاح لعينه من زرقة البحر وخضرة النخيل .. ودفع في نفسه إحساسا جديدا — لأول مرة — بأنه لم يهزب تماما من المتاعب .. وأن نقله من القاهرة إلى العريش لا يمكن أن يكون — كما أدخل في روعه — عملية استجمام خالصة .. ألغى بها متاعبه .. ليستلقى في حمول واسترخاء .. بعيدا عن مشاكل المقاولات والعملاء والديون التي أخذت بخنقة ..

إنه سيكون مسئولاً عن عمل .. في ميدان قتال .. حقيقة أنه لن يكون في

الخطوط الأمامية .. ولن يرهق أعصابه بقلقلها .. وشغبها الدائم .. ومناوشاتها المستمرة ..

وحقيقة أنه لا يتوقع أن يلقوا به في أتون قتال .. أو يدفعوه في دوريات داخل خطوط الأعداء ..

ولكنه مع ذلك .. لا يعتقد أيضا .. أنه سيتمدد في فراشه ليتسلى بالقراءة .. أو يستلقى على الشاطئ * ليستمتع بأشعة الشمس ..

وهو لا يكره عمله العسكري .. ولا يستثقله .. فقد كان يباشره بسهولة .. كجزء من روتين حياته .. الذى يؤديه بلا إرهاق ولا تفكير ..

طواير وتدريبات ومحاضرات .. وتفتيشات .. ومشاكل جنود .. ومتاعب رؤساء .. ولا شيء أكثر من هذا .. وكلها كان يتناولها في يسر .. ويخلص منها بلا عناء ..

ولكن الشيء الذى يكرهه — وإن كان لا يخشاه — هو جو القتال .. بما فيه من توتر .. واضطراب .. وتدمير ..

— كان بطبيعته بناء .. يكره الهدم والتدمير ..

ولم يكن في هروبه من متاعبه بالقاهرة .. قد فكر قط في المسألة .. من هذه الناحية ..

كان كل ما يريده .. هو تصفية مشاكله .. والتخلص من مصروفاته .. والحصول على مرتب الميدان الذى يستطيع به أن يسوى ديونه ..

وكان يعتبر انتقاله إلى العريش .. انتقالا اقتصاديا بحثا .. حتى يفض مشاكله المالية .. ثم يعود بعد إلى القاهرة .. لبدء أعماله من جديد .. على أساس تجربة جديدة ..

لم يطف بذهنه إذن .. الجانب الآخر من المسألة .. الجانب الشاق المرهق ..

لم يذكر قط .. الملل .. والتوتر .. والاشتباك في قتال .. على أية حال ..
ذكر .. أو لم يذكر .. إنها تجربة لا بد أن يمر بها .. فلن يحل مشاكله سواها ..
وهو — سيحاول جهده — أن يجعلها تمر به في سلام ..
وتوقف القطار تماما في المحطة .. ونظر إبراهيم من النافذة علّ هناك من
ينتظر ..

ولم يتركه مراد يبحث طويلا فقد جذبته من ساعده قائلا :
— إن عربتي في انتظاري .. سأوصلك إلى حيث تريد .. هيا .. وسأرسل
السائق لإحضار حقائبك ..
ولم يجد إبراهيم ما يفعله سوى اتباعه .. فقد كان لا يدرى شيئا عما يفعله
.. ولا كان يعرف أين يذهب .. ولا كيف ..
وجلس مراد في مقعد السائق .. وجلس إبراهيم بجواره واستقر السائق
بجوار الحقائق في الخلف ..
وانطلق مراد بالعربة قائلا :

— ستتغدى معي .. وإن كنت لا أعرف بالضبط أين سأتغدى أنا ..
— لا ضرورة الآن للغداء .. اذهب إلى أولادى إلى رئاسة المهندسين .. حتى
أقدم نفسي ..
— ولماذا العجلة .. أعتقد أن أعمال المهندسين ستعطل إذا لم تلحقها ..
علما بأن المهندسين هنا .. لا يفعلون شيئا ..
— وماذا تفعل الفرسان ؟
— أنا شخصا .. آخذ حمامات فمس .. عندما لا يكون هناك اشتباك ..
— وفي الاشتباك ..
— أجلس في الدبابة .. لأقرأ روايات الجيب ..
— ومتى إذن ترتكب عمليات القتل التي تدعيها ..

— عندما تكون الرواية .. بايخة ..

— أنت مهرج ..

— وأنت على نياتك ..

وتوقفت العربية .. أمام مبنى رئاسة المهندسين .. وصاح مراد بالجندي
الحارس الواقف على الباب ..

— يا عسكري !

وجرى العسكري نحوهم ثم وقف محيا :

— أقدم ..

— من عندك من الضباط ؟

— لا أحد يا فندم ..

— والضابط النوبتجي ؟

— ذهب للغداء ..

ونظر مراد إلى إبراهيم :

— ألم أقل لك .. لا ضرورة للعجلة .. هيا بنا أغديك ..

— لا داعي .. أنزلني هنا .. وسأنتظر حتى يحضر أو اذهب لي إليه ..

— يا أخى لا تكن عنيدا .. سأغديك معي .. ستعزم نفسينا في رئاسة

الآلاى .. إنها لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلو ..

واندفع مراد مرة أخرى قبل أن يجيب إبراهيم ..

ووقفت العربية أمام ميس رئاسة الآلاى .. وكان أحد الأكشاك التي

خلفها الجيش الإنجليزي وقد أقيمت به بعض تعديلات بسيطة .. ورصت به

بعض الكراسى الأسبوطى وتوسطته منضدة خشبية مستطيلة .

ولم يجد إبراهيم سببا لرفض دعوة مراد للغداء لأنه كان يعلم أنه لا بد أن

يتغدى .. وكانت طريقة مراد في الدعوة — كعادته — طريقة مكرهة عنيفة

صاخبة .. يتعذر رفضها .. ولا سيما على شخص هادئ مسالم رقيق ..
كإبراهيم ..

وانتهى الاثنان من الطعام .. وعاد إبراهيم مرة أخرى إلى رئاسة
المهندسين ، وخرج الضابط النوبتجي .. ليستقبله في ترحيب وحرارة .
وقضى إبراهيم ليلته مع الضابط النوبتجي .. في أحاديث متقطعة .. عن
الجو والسياسة والحرب .. وفي الصباح .. كان عليه أن يلتقى بقائد المهندسين
ويتسلم سريره ..

انتهى من المقابلات والتسليم قبل الظهر .. ولم يجد هناك شيئا أكثر مما يتوقع
.. كان العمل تقريبا .. هو العمل الذى تعود أن يقوم به .. وعند الظهر .. دعاه
ضابط السرية القديم لتناول الغداء معه في بيته ..
وذهب إبراهيم ليرى البيت الذى كان سيقم فيه بعد أن يرحل عنه قائد
السرية القديم .. وعندما رآه .. أحس بالكثير من الراحة . وعاوده مرة أخرى
إحساس .. المقبل على فترة استجمام ممتعة ..

كان إبراهيم بغريزته المعمارية .. شديد الإحساس بالمكان .. أى مكان ..
بينائه .. بجدرانه .. بواجهته .. بمدخله .. بدهانه .. وكان لكل ذلك تأثير
عجيب في نفسه .. أكثر كثيرا مما قد يحس به الإنسان العادى .. كان يدفع في
نفسه راحة أو ضيقا .. طمأنينة أو قلقا .. كان أشبه بصاحب الأذن الموسيقية
الذى تثيره النغمة النشاز .. ويهدئه اللحن الجيد ..

وقد أحس بمجرد أن أشرف على البيت بأنه لحن جيد وسط عالم من نشاز
الأبنية العسكرية والأكواخ الصاج .. والخيام المتناثرة ..

كان البيت يقع على ربوة رملية تطل على الشاطئ .. بعيدا عن المنطقة
العسكرية .. وقد شيده الجيش الإنجليزى .. ليستعمل مع بعض بيوت أخرى
لضباط المنطقة عند احتلاله لها خلال الحرب الماضية ..

وقد بنى من طابق واحد بالطوب الأحمر والدبش المقسم والسقف الجمالون المصنوع من الأراميد الأحمر .. وقد كسى مدخله بنبات البجمونيا المتسلق ذى الأزهار البرتقالية .. التى هى كانت تبلغ أقصى ازدهارها فى ذلك الوقت من السنة .. وقد رصف مدخله بالبلاط الأبيض الذى يتخلله النخيل الأخضر وأحيط بحديقة تناثرت فيها بعض أشجار الموالح ..

وفوجئ إبراهيم بمظهر البيت وحسن موقعه .. لم يكن يتخيل قط .. أن هذا هو مأواه فى هذه المنطقة الكاكية الجرداء .. وعندما اجتاز باب البيت .. واجهته صالة رحبة .. بدت فى نهايتها نافذة زجاجية عريضة تطل على البحر .. تبدو بها رنى الرمال وقد تناثر بها النخيل ووراءه البحر والسماء .. حتى ليكاد يظن الناظر إليها لأول وهلة أنها صورة كبيرة متقنة للبحر زين بها الجدار .. وعلى اليمين بدت له مدفأة بسيطة التكوين .. أنيقة المنظر .. بنيت بالطوب الصورتاجة الكبير وفى مواجهتها من الجانب الآخر للصالة .. بدا بار فى نصف دائرة رخامية وقد بثت حولها بعض مقاعد حديدية عالية ..

ووقف إبراهيم يقلب البصر فى الصالة فى إعجاب .. وعلق زميله على نظرته قائلاً :

— بيت لطيف ..

— لطيف .. فقط .. إنه مدهش ..

— ومرح جدا .. يوجد على يمينك حجرتان للنوم .. بينهما حمام .. وعلى اليسار توجد حجرة للطعام متصلة بأوفيس صغير .. ثم بالمطبخ .. لقد عشت وزوجتى وأولادى طوال الصيف .. وكأنا فى أجمل مصايف أوروبا .. ولم يرحلوا سوى الآن .. اثنان من الأولاد لديهما ملحق ولا بد أن يؤديا الامتحان .. تعال أريك بقيته .. إن به حديقة خضار خلفية ..

وتبعه إبراهيم وهو فى دهشة من البيت ولم يتألك أن سأل قاتلا :
— وكيف استطعت أن تحصل عليه .. يخيّل إلى أنه أجمل بيت فى المنطقة
كلها ..

وضحك الزميل وأجاب :

— طبّاخ السم — كما يقولون — يذوقه .. لقد استلّنت مع ضابط الأشتال
كل منشآت الجيش الإنجليزى .. وكان علينا أن نحجز لأنفسنا بيتين ..
فلطشت هذا ولطش هو آخر .. شبيها به .. ولكنه لا يطل على البحر ..
— لقد ضحكت عليه .. فإن الميزة الكبرى فى البيت هو هذه النافذة
العريضة المطلّة على البحر ..

— ماذا تقول إذن .. لو أنك شاهدتها فى الشروق .. إنها تطل على مشرق
الشمس من هذا الجانب .. أترى هذه الرّوبة العالية .. الكائنة بين مجموعتى
النخيل .. إن الشمس تتسلل من ورائها فى الصباح .. بطريقة رائعة ..
— الظاهر أنها رائعة فعلا .. لأنها جعلت من ضابط المهندسين شاعرا يتغنى
بشروق الشمس .

— لقد كانت ابنتى أول من رآها .. كانت تستيقظ مبكرة من أجل
المذاكرة .. فتصيدت منظرها ..

— وأضاعت الملحق بالطبع ..

— لست أدري ماذا فعلت .. إني أريد أن أتعجل النزول للقاهرة لأطمئن
على حالهم .. لقد تعودوا ألا يذكروا إلا بوجودى .. وأنت ؟
— ابنتى لم تحتج بعد إلى رقيب .. سأدخلها المدرسة لأول مرة هذا
العام ..

— كيف حالها بعد مرض التيفويد ؟

— الحمد لله .. لقد نجت من التيفويد لتسلمها بقية الأمراض التقليدية التى

تصيب كل الأبناء .. سعال ديكى .. وحصبة وبقية اللسنة .

— لماذا لم تحضرها معك ؟

— لم أتخيل المقام مريحا بهذا الشكل .. كنت أخشى أن أبيت في خيم ..

— لقد قلت لك إن هناك بيتا مريحا ..

— ظننتك مبالغا .. وكنت في حالة من الزهقان لا تسمح لى بأن أحمل

نفسى عبء اصطحاب أحد .. وإن كنت أفكر الآن في استدعائها مع أمها لقضاء أسبوعين قبل دخول المدرسة ..

— إذا أردت .. أحدثها عندما أنزل ..

— سأحدثها أنا في التليفون .. عندما أستقر .. وأدبر أمرى .. أليس

الاتصال سهلا في التليفون ؟

— جدا .. تستطيع أن تطلبها في أى وقت تشاء .. ولا سيما في الصباح

المبكر ..

ومرت بضعة أيام ، استقر إبراهيم خلالها في البيت وجرت الأمور هادئة

حوله .. كان كل شىء على ما يرام والعمل لا يتعدى بضعة أعمال روتينية كان

يستطيع أن يؤديها وهو جالس في البيت ..

وأحس بالطمأنينة والاستقرار وأضاع الاسترخاء والراحة حالة الضيق

والزهقان .. وبدأ يحس بوحشة إلى ابنته .. وخيل إليه أنها تستطيع مع أمها

الاستمتاع بفترة استجمام قبل أن يحل موعد المدرسة .. ولا سيما أن أزمته هذا

الصيف حرمتها من الاصطيف ..

ودعا زوجته في التليفون للحضور .. وبدأ يجرى بعض التجميلات

والإعدادات لاستقبال الضيفتين .. الأم والابنة .. وملأ نفسه الإحساس بأنه

يدعوها لمصيف .. وليس في ميدان قتال ..

الفصل الرابع

امراة واجب

وصلت الصغيرة وأمها إلى بيت العريش .. ولم تكن الأم ترحب كثيرا بالسفر .. فقد كانت تجد مدة الإقامة من القصر بحيث لا تستحق عناء السفر ، ولم تكن تحس في قرارة نفسها بأن إبراهيم نفسه ستطول إقامته هناك . فقد كانت أدري بطبيعته التي تنفر من حياة العسكرية البحتة ، وبمدى تعلقه برسومه ومبانيه وعماراته ومكتبه الفني .. وكانت تعرف تماما أن رحيله إلى الميدان لم يكن أكثر من عملية هروب ، دفعته إليها كثرة المشاكل وفرط اليأس .. واضطراب الأعصاب .. وكانت واثقة أنه لن يستطيع الاستقرار لحظة .. إذا ما هدأت أعصابه .. وضاع قلقه .. وأحس بأن مشاكله حلت .. أو على الأقل تباعدت ..

كانت تعرف أنه لن يطيق حياة الوحدة .. وقد حاولت أن تقنعه بعدم السفر .. وعرضت عليه الحياة مع أهلها حتى تفك أزمته .. وتسوى ديونه .. ولكنه أنى قائلا : إنه يريد أن يقطع كل علاقة له بأعماله القديمة .. وإنه يريد أن يمضى فترة استجمام طويلة تهدأ فيها أعصابه .. ويستعيد فيها ثقته بنفسه .. ويحسن حالته المالية .. حتى يستطيع أن يبدأ مرة ثانية من جديد ..

ولم تجد بدا من التسليم بما يريد .. فهي تعرف أن مناقشته لا تجدى نفعا .. فهو دائما يفعل ما يريد .. وهي تلتزم حد النصح ولا تتعداه إلى المناقشة أو الإصرار .. وهي أميل إلى الهدوء والصمت وعدم التدخل فيما لا يعنها ، ولو كان الأمر بيدها لما تركته يخرج عن دائرة عمله العسكري قيد أنملة ..

كانت تعتبر أن في عمله كضابط مهندس في الجيش كل الكفاية .. كانت تكره الطموح والمغامرة .. وتحب الاستقرار والأمن والسلامة .. وعندما أنشأ مكتبه الفني .. هزت كنفها في استخفاف كأنما تتركه يلهو ويتسلى .. فلما أصاب نجاحا اعتبرته من باب المصادفة وحسن الحظ .. وعندما بدأ أعمال المقاولات نصحته بعدم الإقدام على المغامرة .. وبأن هذا ليس عمله .. فلم يأبه لها كعادته .. فلما انهارت أعماله ومنى بالفشل .. لم تنزعج .. ولم تشمت فيه .. ولم تلمه .. بل حاولت أن تعينه بكل ما تملك .. وبكل ما استطاعت أن تحصل عليه من أبيها وأُمها .. كانت امرأة واجب أكثر منها امرأة شعور .. كانت بطيئة الانفعال ولكنها قوية الإدراك ..

لم تهمل قط واجبها نحوه .. ونحو ابنته .. ولكن حسب ما تفهمه هي .. الفهم التقليدي الأصولي : وجبات جيدة في موعدها .. بيت نظيف مرتب يجد به على كل شيء في موضعه ..

ولكنه لم يكن يفهم الحياة على أنها أصول .. وقواعد .. بل كان يعرف أن الأصول هي ما يحلو للإنسان .. وأن القواعد هي ما يريجه .. حتى في فنه المعماري كان يكره التقيد بالأصول والقواعد .. وكان يفعل ما يحس أنه الواجب .. لا ما اصطلاح الغير على أنه واجب .. كان جريئا في تصميماته إلى الحد الذي يديه شاذا ..

وكان ذلك هو نقطة الخلاف بينهما ، ومحور التنافر .. ولم يكن خلافاهما وتنافرهما يتخذان أبدا مظهرا جادا .. أو شكلا واضحا .. لأن كلا منهما كان رقيقا بطبعه .. أميل إلى الهدوء والمسألة .. كما كان كل منهما يحس بحاجة إلى الآخر .. وواجبه نحوه ..

لم يبلغ بينهما الخلاف أبدا حد الصدام .. فقد كان كل منهما ينتحي

ليفسح للآخر طريقه .. دون أن يصطدم به .. ودون أن يغير هو اتجاهه .. كان الخلاف داخليا مستورا بحجب الحاجة ، وحجب الواجب ، وحجب الائتلاف التقليدي اللاشعوري بين أسرة طيبة .

كانت هي مثلا ترى أن فتجان الشاي لا يشرب أبدا بأكثر من قطعتين من السكر ، وكانت عندما تعد له الشاي تضع له قطعتين .. فإذا ما جلسا إلى المائدة سألتها :

— وضعت السكر في الشاي ؟

وتجيب باقتضاب :

— أجل .

ويذوقه .. ثم يضيف قطعتين آخرين .. كان لا يتذوق الشاي إلا بأربع قطع .

وكانت هي تجد أن الأصول أن تضع له السكر في الشاي ، وألا تضع أكثر من قطعتين ، وكانت تعرف أنه لا يشرب إلا بأربع قطع ، ولكنها لم تجارحه أبدا .

ولم يحاول هو منعها أو نهرها . كان يتركها تضع قطعتين ، ثم يسألتها هل وضعت السكر .. ثم يضيف قطعتين آخرين .

وكان ذلك المثل هو نموذج لحياتهما .. خلاف بلا صدام ، تنافر بلا عراك . كانت تجد أن الأصول أن يخرج في الشتاء مرتديا البالطو .. وفي كل صباح تخرج له البالطو من الدولاب لتضعه على المقعد .. بجوار بقية ملابسه ..

وكان هو يرتدي كل ملابسه .. ثم يخرج بدون البالطو ..

ولم يقل لها أبدا لا تخرجي البالطو .. ولم تكف هي أبدا عن إخراجه .. ولا ضاق أحدهما ذرعا بالآخر ..

لم يحدث الصدام بينهما .. لأن كلا منهما كان يعرف حدوده .. وكان

هناك شبه اتفاق لتقسيم السلطات بينهما .. كان تنظيم البيت من حقها .. وكان عمله من حقه .. لا يملك أحدهما من وسيلة للتدخل إلا مجرد النصح .. وفي النواحي المشتركة .. لم يصل الخلاف لحد الصدام ، لأن كلا منهما كان متزنا .. معقولا .. مسالما ..

وعندما دعاها للسفر إلى العريش . لم تتوان عن السفر لحظة واحدة .. كانت تعرف أن المدرسة لم يبق عليها سوى أسبوعين .. وأن هناك إجراءات قد تستدعى وجودها هي والطفلة بالقاهرة في ذلك الوقت .. ولكنها كانت تعرف أنه قد طلب منها أن تسافر .. وأن واجبها أن تلبى طلبه .. وأن تكون بجواره ما دام يريد ذلك .. وعندما يحين وقت المدرسة تستطيع أن تعود ثانية ..

ووقف بها القطار في محطة العريش.. بعد سفر طويل .. لم تجد القراءة أو التريكو أو مناكفات نادية ومناقشات في إضاعة ملله .. وهبطت من القطار بقوامها الطويل الذى منحها بعض الانحناء .. وقد لفت إشارب حول رأسها .. وبدأ وجهها بسمرة ، وحاجباها الثقيلان ، وأنفها الدقيق ، وشفتاها الرقيقتان ، وبملاحة خليط من رقة الأنوثة وحزم الرجولة .. واندفعت نادبة تعدو إلى أبيها .. فتلقفها بين يديه وضمها إلى صدره .. وقال لها وهو يطررها بالقبلات :

— أهلا .. أهلا .. حبيبتي نادبة .. انت واحشه بابا جدا ..

وأجابت نادبة على ترحيبه بسؤالها :

— حضرت لى جردل وكوريك .. ماما رفضت أن تحضرهما لى ؟

— سأحضر لك كل شئ ..

وأقبلت مديحة .. وشدت على يد إبراهيم قائلة :

— كيف حالك ؟ .. وحشتنا بضعة الأيام التى غبتها عنا ..

— وأنتما أيضا .. لقد أتعبكما المشوار .. ولكنك ستجدين الجو والبيت
يستحقان عناء السفر ..

وتساءلت نادية :

— بابا .. أين البحر .. لقد أحضرت المايوه الأزرق ..

— سنذهب الآن إلى البيت .. ثم نعود سويا ..

وهنا تدخلت الأم لأداء واجبها :

— لن تستطيع النزول إلى الماء .. لأن عندها مبادئ زكام .. وكحة ..

— ستضيع الشمس والشاطئ وهواء البحر كل هذا .. لا تخاف ، هيا بنا

يا نادية ..

وانطلقت بهم العربية .. حتى وقفت أمام البيت .. واندفعت نادية تعدو في

الحديقة .. وصاحت الأم بها :

— إياك أن تذهبي إلى البحر ..

وأجاب إبراهيم مطمئنا :

— لا تخشى شيئا .. إن السور يحيط بالحديقة .. والباب الخلفى المؤدى

للبحر مغلق ..

وألقت مديحة نظرة عامة على البيت .. ووقف إبراهيم يرقب تأثير البيت

عليها .. ثم تعجل رأيها متسائلة :

— ها .. ما رأيك ؟

وبطبيعتها غير المنفعلة .. وبأسلوبها المتحفظ أجابت :

— لطيف ..

ولم تكن الكلمة كافية في نظر إبراهيم ، فجرها من ذراعها إلى الداخل

قائلا :

— إنه من الداخل ألطف .. ستجدين به كل شيء .. ما رأيك في المدفأة ..

والبار ؟

ثم توقف بها أمام النافذة العريضة المطلّة على البحر .. متسائلا في إعجاب :
— وما رأيك في هذا المنظر ؟

وبنفس اللهجة غير المتحمسة أجابت :
— لطيف ..

— لطيف فقط ؟

ولم تجب عليه .. فقد صاحبت بنادية التي كانت تعدو في الحديقة :
— نادية .. كفى جريا .. ستعرقين .. ثم يلفحك الهواء .. هذا هو الذى
يسبب لك البرد ..

— يا ستى اتركها تلعب .. هنا على الشاطئ لا يصاب الإنسان بالبرد ..
واستمرت الأم تصيح :
— نادية ..

وهز إبراهيم كتفيه في استخفاف .. لقد كانت صحة نادية خارج حدود
سلطاته .. ولم يكن يملك فيها سوى النصح .. ثم الصمت ..
ولم يحاول مرة أخرى أن يلفت نظر زوجته إلى مزايا البيت .. وتركها
تكتشف ما يحلو لها اكتشافه ..

وبدأت مديحة تباشر سلطاتها في البيت ، غيرت نظام المقاعد .. وبدلت
حجرة بحجرة .. ولم يعترض إبراهيم ما دامت لم تمس حجرته .. وتركها ترتع
في تعديل البيت كما تشاء .. واختل بنادية في حجرته يرسمان سويا خطط اللعب
والعوم ..

ودق التليفون . فانطلقت نادية للرد .. فقد كان الرد على التليفون ضمن
هواياتها المحببة ..

وانترعت أمها السماعة قائلة :

— مائة مرة قلت لك لا تمسكى سماعة التليفون ..

— أفندم ..

وأجابها صوت يطلب إبراهيم ..

وأقبل إبراهيم على التليفون وهو يتمتم في ضيق :

— سخافة من سخافاتهم .. عسكري ضرب آخر .. أو اللحمه لم تحضر

بعد .. ماذا سأصنع لهم .. لقد قلت لهم لا تتصلوا بى بعد الظهر أبدا ..

وأمسك بالسماعة وتساءل في غضب :

— فيه إيه ؟

وأجابه صوت يضحك قائلا :

— ومالك محموق هكذا ؟

وضحك إبراهيم وأجاب :

— أهلا وسهلا يا فندم .. لقد ظننتها سخافة من سخافات القشلاق .

— اطمئن .. وهذه المرة سخافة من سخافات المحافظة ..

— أنا في الخدمة يا فندم ..

— أولا قبل أن أبدأ الحديث .. من صاحب الصوت الحرىمى الذى رد

على ؟

— اطمئن .. إنه صوت العائلة ..

— متى حضروا ؟

— اليوم ..

— حمدا لله على سلامتهم .. متى ستزوروننا ؟

— عندما نهذا ونستقر .. وننتهى من عملية إعادة تنظيم البيت ..

— ومتى تنتهى تلك العملية ؟

— الله أعلم .. قد تنتهى بعد انتهاء الحرب ..

- اسمع لا تمزح .. لماذا لا تزوروننا الليلة ؟
- غير معقول .. لن نقبل زيارة أحد قبل أسبوع .. عندما تشفى نادية من الزكام ..
- قل لها فريدة تريدك .. وهى ستقبل فى الحال .. إنها معرفة قديمة .. منذ أن كانوا يقطنون سويا فى المنيرة ..
- حاضر سأبلغها ..
- ورفع إبراهيم السماعة عن أذنه ..
- ثم صاح بزوجته :
- فريدة تريدك ..
- ونظرت إليه مديحة فى دهشة وتساءلت :
- فريدة من ؟
- زوجة البكباشى عبد الرحمن ..
- وصاحت زوجته بأقصى ما تملكه طبيعتها الباردة من حماس وانفعال :
- فريدة صادق .. ماذا أحضرها إلى هنا ؟
- زوجها وكيل المحافظ ..
- عجيبة .. لم يكن لدى أقل فكرة عن وجودها .. إننا أصدقاء منذ الصغر عندما كنا نقطن فى المنيرة ..
- مفهوم .. مفهوم .. هل تريدان الذهاب ؟
- لا مانع ..
- ورفع إبراهيم السماعة إلى أذنه .. وقال باختصار :
- أو .. كيه .. الزيارة مقبولة يا فندم ..
- وسمع صوتا نسائيا يتحدث بجوار صاحبه .. ثم سمع صاحبه يقول :

— ٤٠ —

— إنها تريد أن تحادثها ..

وصاح بزوجته :

— تفضللى كلمى .. صديقة الصبا ..

وانهمكت الصاحبتان فى الحديث .. وعاد إبراهيم إلى اللعب مع ابنته ..

الفصل الخامس

كان لى

ذهب إبراهيم ومديحة لزيارة البكباشى عبد الرحمن وكيل المحافظة وزوجته ، وقد اصطحبا معهما نادية .. ولم يكن البيت يعد كثيرا عن بيت إبراهيم .. وكان من الطراز العتيق السميك الجدران ، العالى السقف ، الفسيح الحجرات ، يحيط به النخيل وأشجار الزيتون ..

واستقبلت المضيفة ضيفتها بترحاب شديد .. وانهمكت وإياها فى حديث طويل عن عائلتهما وذكرياتهما .. وجلس إبراهيم مع عبد الرحمن بتبادلان الآراء عن القيادة الجديدة وإسرائيل واللاجئين وموضوعات شتى ..

وجلست نادية تلهو مع بنات عبد الرحمن ببعض الدمى .. وعلى مقربة منهن جلست فتاة فى نحو الرابعة عشرة ترقبهم فى صمت حزين .. وقد بدا عليها سيماء الشرود .. وكان وجهها رقيق الملامح دقيق التقاطيع قد بدت به صفرة وهزال .. وفرق شعرها الأسود الناعم فى منتصف رأسها الصغير ثم جدل فى ضفيرة طويلة تهدلت على ظهرها .. واستقرت يداها متشابكتين فى حجرها .. وانحنى كتفها ومال رأسها حتى استقر ذقنها على صدرها ..

ولم يطل المقام بهم طويلا حتى أخذت الظلمة تنتشر .. وأحست مديحة بإقبال الليل عندما أضيئت أنوار البيت .. وبدا عليها القلق وتلفتت حولها تنادى نادية ..

وأجابتها صديقتها مطمئنة :

— أنها تلعب مع ميرفت وهناء ..

— لقد حان الوقت للرحيل ..

— كيف ؟ .. إننا ستتعشى سويا ..

— غير ممكن ..

— غير ممكن أن تذهبوا الآن .. إننا لم نجلس معا بعد .. ماذا ستفعلين في البيت ؟

— إن نادية متعبة من السفر .. ولا بد أن تنام ..

— دعها تنام وقتا تشاء .. ونستطيع أن نحملها إلى البيت عندما يحين وقت العودة ..

— أخشى أن يلفحها الهواء .. ولديها مبادئ زكام .. لقد كان يجب على ألا أحضرها .. ولكن لم أستطع تركها في البيت وحدها .. لأنني لم أحضر الخادمة .. لقد وجدت مدة البقاء لا تستحق .. ولكن يبدو أنني سأجد بعض العناية بدونها .. على الأقل من أجل مراعاة نادية ..

— أستطيع أن أعيرك خادمتي في هذه الفترة ..

— وأنت ؟

— اطمئني .. يمكنني أن أتحمل بدونها ..

— غير معقول .. ليس مفروضا أن أحضر لأضيافك ..

— قلت لك إنني أستطيع الاستغناء عنها مؤقتا .. فعذري ..

— لا .. لا .. إن المسألة لا تستحق ..

— إذن فعذري نهي .. عليها مساعدتك وتسليك بعض الشيء ..

— نهي .. من ؟

— فتاة فلسطينية من نابلس فقدت ذوبها بعد اعتداء اليهود على العرب وطردهم من أراضيهم .. وقد لقيتها وحيدة في أحد معسكرات اللاجئين وتبينت فيها الطيبة والهدوء ، فأنست إليها وسألتها أن تعيش معنا .. عليها تونس

وحدق وترعى معى شئون البيت والأولاد ..
ولم يد كثير خمس على مديحة لقبول صحبة الفتاة .. كانت تجد أن مدة
البقاء لن تتجاوز أسبوعين .. يمكن قضاؤها — على حد قولها — بالطول
أو بالعرض .. ولم تجد هناك مبررا لأن تسبب من أجلها إزعاجا لأحد .. ولم
تأبه صاحبة البيت لتردها ونادت الفتاة قائلة :

— نهى .. نهى ..

ثم التفتت إلى مديحة وأردفت :

— سأريك إياها .. ستعجبك ..

— لا داعى لإفلاق نفسك .. وإفلاق الفتاة .. إن المسألة لا تستحق ..

— ليس هناك إفلاق لأحد .. ستجدينها ودودة طيبة .. وستأنسين عشرين
بسرعة ..

وأقبلت الفتاة .. بهيكلها الهزيل الرقيق .. وعينها السوداوين الواسعتين ..
وثيابها البسيطة النظيفة التى لم تزد على جلباب من الكستور وصدىرى من
الصوف البنى طويل الأكم .. وبدا جسدها طويلا نحىلا بلا امتلاء أو استدارة
أنثوية .. اللهم إلا ارتفاع منبسط لا يكاد يلحظ عند الصدر ..
ووقفت نهى فى حياء أمام الزائرة .. وقد خفضت بصرها بعد أن ألقت على
السيدة نظرة فاحصة سريعة ..

وقالت صاحبة البيت تقدمها إلى مديحة :

— سلمى يا نهى على مديحة هانم ..

وتقدمت الفتاة ومدت يدها إلى مديحة مصافحة .. واستمرت صاحبة
البيت فى حديثها :

— ستمكث مديحة هانم أسبوعين هى وابنتها نادية .. حتى يحل موعد
المدارس .. وقد أتت من القاهرة وحدها .. أتخمين أن تؤنسها خلال بقائها

فى العرىش ..

و لم ىد على ملاءح نى أى تعبر .. لا ترحىب .. ولا اعترض .. وأومأت برأسها إىماعة خففة وأجابت فى استسلام الذى لا ىملك من أمره شىئا ..
— أمرك ..

— إذن فابقى مع الأولاد حتى ىحىن وقت العودة لتذهبى معهم ..
وعقبت مديحة على قولها وهى تنهض قائلة :
— لقد حان وقت العودة ..

ثم نظرت إلى إىراهم الذى جلس فى آخر الحجرة .. ىرقب عبد الرحمن وهو ىرمى حجارة الطاولة لىستعینا بها على قضاء الوقت بعد أن أفرغا كل ما فى جعبتهما من حدىث معاد ..
ونادته مديحة ..

— هیا .. بنا ..

وصاح عبد الرحمن :

— إلى أين ؟

— إلى الیىت ..

— إلى الیىت ؟! ما زال الوقت مبكرا جدا .. لقد كنت أنوى أن آخذكم إلى السینا .. ثم نتعشى معا ..

— سینا .. وعشاء .. مرة واحدة ..

— أقل ما فىها .. لا بد أن نكرمكم ..

— لنؤجلها إلى لىلة أخرى .. نحن متعبون من السفر .. ولا بد أن أذهب .. لأعشى نادىة وأنومها ..

— إذن دعى لى إىراهم .. إن بیننا ثارا لا بد أن آخذه ..
ونفض إىراهم وهو ىغلق الطاولة قائلا :

— إذا كان على الثأر .. فيمكنك أن تأخذه في ليلة أخرى .. وإن كنت واثقا أنك لن تأخذه أبدا ..

وسار الأربعة تجاه الخارج ومديحة تنادى ابنتها ..

ونادت صاحبة البيت نهى ثم وجهت الحديث لزوجها قائلة :

— ستذهب نهى معهم لتؤنس مديحة وتعاونها طيلة مدة إقامتها ..

وأجاب إبراهيم معترضا في دهشة :

— لا داعى لإقلاق أنفسكم أبدا ..

وأيدته مديحة قائلة :

— لقد قلت لها هذا ..

واعترض عبد الرحمن :

— أى إقلاق يا أخى .. إننا لا نحتاج إليها .. وهى ستفعلكم .. هيا يا نهى ..

وتقدمت نهى .. وقد أمسكت بيد نادية .. ونظرت إلى صاحبة البيت في

شئ من التردد وأدركت السيدة ما يدور في خلدها فأجابتها :

— سأرسل لك ما تحتاجين إليه من ملابس في الصباح .. وتستطيعين أن

تستأذنى من مديحة هائم إذا أردت الحضور لأى شئ .. وعلى أية حال ..

سنكون كلنا معا دائما ..

وقبل أن يتحرك الركب .. رفعت نادية ذراعها إلى أبيها بحركتها التقليدية

قائلة :

— بابا .. احملنى ..

وقبل أن يمد إبراهيم يديه لرفعها كانت نهى قد حملتها .. وحاول إبراهيم

أخذها قائلا في رفق :

— دعها لى .. إنى متعود على حملها ..

ولم تدعها نهى وأجابت في هدوء :

— ٤٦ —

— أنا أيضا تعودت على حمل أختي مى ..
ونظرت إلى نادية ووجهت إليها القول :
— أتحبين أن أحملك يا نادية ..

ونظرت إليها الصغيرة نظرة فاحصة ثم أطرقت برأسها موافقة ، وسارت
العائلة إلى البيت وقد حملت نهى نادية .. والصغيرة لا تفتأ .. توجه من آن
لآخر أسعلتها الساذجة :

— هل ستنامين معنا ؟ ..

— أجل ..

— وستبقين معنا دائما ؟

— إن شاء الله ..

— وعندما نعود إلى مصر .. هل ستعودين معنا ؟

— لا ..

— ولماذا ؟ ..

— لأنى سأبقى هنا ..

— لمه ؟

— لأنه .. لأنه ليس لى مكان الآن غير هنا ..

— لأن هذه بلدك ؟ ..

— لأنها قرية من بلدى ..

— وأين بلدك ؟

— هناك ..

— هناك أين ؟

— .. فى فلسطين ..

- ولماذا لا تذهبن إليها ؟..
- لا أستطيع ؟..
- ولماذا لا تستطيعين ؟..
- وترددت نهى برهة وتدخل إبراهيم محاولاً إسكات نادبة بقوله :
- نادبة .. كفى رغبى ..
- ولم تأبه نادبة لاعتراضه واستمرت متسائلة :
- لماذا لا تستطيعين الذهاب إلى بلدك ؟
- لأن اليهود أخذوها ..
- وكيف أخذوها ؟..
- بالقوة .. ضربونا وطرّدونا .. وأخذوها ..
- ولماذا لم تضربوهم أنتم .. ألم يكن معكم عصا ؟..
- كان معنا عصا .. وكان معهم مدفع .. والمدفع يغلب العصا ..
- ولماذا لم يكن معكم مدفع ..
- ومرة أخرى حاول الأب أن يتدخل فقال ناهراً نادبة :
- نادبة يا حبيبتي .. لقد أصبحت لثاة جدا .. أصمتى لحظة .. لقد أوجعت دماغنا ..
- أجابته متسائلة :
- باب .. لماذا لا تعطى نهى .. مدفعا .. لتطرد اليهود من بيتهم ؟..
- سنعطئها .. وسنذهب معها كلنا لنطرد اليهود .. مبسوطة ؟..
- وكان نادبة لم تثق في قول أبيها فعادت تؤكد لنهى :
- عندما أعود إلى مصر سأشتري لك مدفعا وأرسله لك لتضربى اليهود .. وتعودى إلى بيتك ..

— ٤٨ —

— متشكرة يا حبيبتى ..

— هل تعرفين كيف تعودين إليه .. أم تضلين ويأخذك العسكرى إلى القسم ؟ ..

— إذا كان معى مدفع .. فلن أضل أبدا .. سيكون طريق العودة .. إلى بيتى .. واضحا ..

— هل المدفع يضىء الطريق ؟

— المدفع يظلم طريق السلام .. ويضىء طريق العدوان ..

— أتسكنين فى شارع العدوان ؟ .. لقد كنا نسكن فى شارع العدوى ..

لماذا لا تعزلين من شارع العدوان ؟

— لأن العالم كله عدوان ..

— إذن سأرسل لك مدافع كثيرة .. وعندما تضربين اليهود وتعودين إلى

بيتك .. هل آتى إليك ؟ ..

— طبعاً ..

— وإذا ضللت .. وأخذنى العسكرى إلى القسم ؟ ..

— لن تضللى ..

— هل سأتى معى بمدفع ؟ لينير لى الطريق ..

— لن تكون هناك ضرورة للمدفع .. سيكون الطريق بعدما أعود .. طريق

سلام ..

— ماذا سيضيئه لى ؟

— يضيئه ابتسامتك الحلوة ..

— أنت تكذبين على إن ابتسامتى لا تضىء شيئاً .. هه .. أنظرى ..

وانفرجت شفقا نادية عن ابتسامة واسعة .. بدت من خلالها أسنانها

الصغيرة ..

وضحكت الأم وقال الأب مقهقهة :

— يا نهي .. لا تأخذى معها وتعطى .. إنها متعبة وحديثها لا ينتهى أبدا ..

واستمرت نادبة تتساءل فى عناد :

— لماذا لم تضىء ابتسامتى الطريق ؟

وأجابت نهي وهى تضمها فى رفق :

— لقد أضاءت شيئا أكثر من الطريق .. لقد أضاءت قلبى ..

— أنا لا أريد أن أضىء قلبك .. إني أريد أن أضىء الطريق ..

— عندما تأتىن إلّى .. سيكون الطريق إلى بيتى .. طريق السلام .. وطريق

السلام .. تشرق فيه الابتسامة وتضيئه المحبة .. وستجدىن به الورود ..

وأغصان الزيتون ..

— والجينة ؟!

ومرة أخرى انفجر الأب ضاحكا ..

وتلفتت نادبة فى دهشة من ضحكته وقالت موضحة :

— أنا أحب الجينة أكثر من الزيتون ..

وضحكت نهي وربتت على ظهرها فى رفق قائلة :

— عندما أعود إلى بيتنا .. سأعد لك الجينة .. التى تحبها .. كانت لى عترة

صغيرة .. وكان لنا كرم .. على السفح .. تهدل عناقيه .. وكانت لنا بئر

وسط الحقل .. نسقى منها أشجار البرتقال والليمون .. وكنت أرقب مشرق

الشمس من وراء ربوة الكرم .. وكنت أسمع زقزقة العصافير .. وكنت أملأ

الجرار من البئر .. وكنت أعدو بين الأشجار .. كانت الحياة جميلة .. وكنت

أحس الطمأنينة والسلام .

— ٥٠ —

وصمتت نهى برهة .. وعادت نادية تستحثها :

— وماذا كان هناك أيضا .. احكى لى ..

— كان لى أخت جميلة أحملها كما أحملك .. وكان لى أم .. وكان لى أب ..

— وأين ذهبوا ؟

— لست أدري .. قتلهم اليهود .. أم شردوهم .. لقد فقدتهم جميعا ..

وران الصمت برهة .. واقتربوا من باب البيت .. وقبل أن يدخلوا هتفت

نادية :

— أنا أكره اليهود ..

تمتت نهى والظلمة تخفى دموعا تفرقت فى مآقيها .. « وأنا أيضا » ..

الفصل السادس

أنى أعرفه جيدا

مرت بضعة أيام ونهى تعيش بين العائلة الصغيرة .. وقد أحسست للبيت وللعائلة .. بشعور من الراحة والاستقرار .. ونما بينها وبين نادية نوع من الألفة والود .. بعث الطمأنينة فى نفس الأم نحوها .. وزاد من إحساس الأب بالعطف عليها ..

كانت مخلوقة وديعة طيبة مسالمة .. تظل على حالها فى الوداعة والسكون .. حتى يطوف بها ذكر إسرائيل - والوطن المسلوب .. والأهل الصرعى .. فتلدغها شوكة المرارة والحقد والأسى .. وإذا بأعصابها قد شدت كأنها هرة قد تقوس ظهرها ..

واستطاعت الألفة والود اللذان أحيطت بهما من أفراد العائلة الثلاثة أن يخرجها من انطوائها .. ويقللا من شرورها .. فبدا لإقبالها على العمل فى البيت .. وعلى العناية بنادية ..

ولكنها مع ذلك ظلت على حال من الشرود لم تستطع الألفة أن تمحوه .. كانت تنطلق من البيت أحيانا .. دون أن يعرف لها انجاء أو مقر .. فلا تعود إلا خائرة منهوكة القوى .. وكانوا يستيقظون فى كثير من الأحيان فلا يجدونها .. وقد أزعجهم قيامها فى بادئ الأمر .. وسألوا عنها عبد الرحمن وزوجته .. فعرفوا أنها لم تذهب إلى بيتها .. وعرفوا كذلك .. أن غيابها أمر تعودوا عليه ، وأنها تهيم شاردة ، ثم لا تلبث أن تعود حين يدر كها التعب ..

.. واستيقظ إبراهيم ذات يوم مكررا .. والشمس لم تشرق بعد فقد كان عليه

أن يذهب إلى رفح .. لملاحظة ما يحتاج إليه الطريق من عمليات الإصلاح ..
ولمراقبة بعض أعمال المهندسين ، التي تحم وجوده لنزول زميله المشرف على
تلك المنطقة إلى القاهرة ..

وغادر حجرة نومه متجها إلى الحمام مارا بالصالة .. وهو يسترق الخطى
حتى لا يوقظ أهل البيت في هذه الساعة المبكرة .. فإذا به يجد شيئا قد التصق
بالنافذة العريضة الزجاجية المطللة على البحر .. ولم يستطع أن يميز منه
إلا خطوطه الخارجية التي تحدد هيكله .. فقد كان ملتصقا بالزجاج .. وكانت
وقفته في طريق الضوء المنبعث من النافذة قد حجبت بقية تفاصيله ..

وعرف في الشبح نبي .. وهم بسؤالها عما أيقظها في هذه الساعة المبكرة
.. وعما أوقفها هكذا مسمرة في النافذة .. ولكنه لم يشأ مضايقتها وكان قد
تعود منها أوضاع الشرود .. والهيمن .. فاكتفى بأن يلقي إليها تحية مقتضبة
قائلا :

— صباح الخير ..

ودون أن يسمع ردها استمر في طريقه إلى الحمام ..

وانتهى من الحلاقة والاعتسال .. وفي طريقه إلى حجراته .. وجد نبي
لا تزال في وقتها كالتثال ، وكان الضوء قد أخذ في الانتشار ، وطلائع الشروق
الأرجوانية قد بدت من بعيد على حافة الأفق .. واقترب منها ومس كفها يرفق
فأصابها رجفة ، ورفعت إليه رأسها ذا الفرق ووجهها النحيل الدقيق ..
وبدت في عينيها الواسعتين السوداوين دمعتان قد انحدرتا حتى بللتا زاويتي
شفتيها .. فمدت طرف لسانها تلعقهما في صمت ..

وأحس إبراهيم من دموعها الصامئة المنحدرة على طرف لسانها بشيء
يعتصر جوفه .. ولم يملك نفسه من أن يربت على ظهرها في رفق ويسألها
السؤال التقليدي .. الذي يدرك هو إجابته :

— ما بالك يا نهي ..

— لا شيء ..

— ما الذى أبْقَظك مبكرة .. وأوقفك هذه الوقفة ..

— لأرَقب مشرق الشمس من وراء الربوة .. انظر .. لقد بدأت تظهر ..

ونظر إبراهيم فإذا بالمنظر الذى سبق أن وصفه له صاحبه قد بدا من خلال

النافذة ..

ففى أقصى اليمين بدت الربوة وقد حد حافتها صفان من النخيل .. ومن

بين صفى النخيل .. ومن وراء الربوة .. بدأ القرص الأرجوانى الصافى الملتهب

يبدو رويدا .. رويدا ..

أخذت الفتاة تتمتع كأنها تحدث نفسها :

— هذا هو الطريق .. هذا درى .. وتلك ربوتى .. ومن ورائها كانت

الشمس تشرق دائما لتضىء الحقل والبيت والكروم .. لو سرت إليها ..

لوصلت .. إلى هناك ..

وصممت برهة .. وهى تتطلع إلى الشمس المشرقة فى لهفة وما لبثت أن

أطرقت فى حزن وأردفت تقول :

ولكنى عندما أذهب لأسير على الدرب .. أجدها قد تصاعدت .. وأحد

طريق العودة قد ضاع .. والحلم قد تبدد .. ولا أعود أجد فى طريقى غير قفر

فى قفر .. ورمال فوق رمال .. فأعود مكروبة بائسة ..

— لهذا يجب أن تكفى عن الخروج والهيمان وحدك .. فأنت تعرقين أن

عودتك الآن مستحيلة ..

— ولكنى سأعود يوما إلى هناك .. من نفس هذا الطريق .. إنى أعرفه

جيذا .. بالربوة فى آخره .. والشمس المشرقة من ورائه .. سنعود جميعا إلى

دورنا مرة أخرى .. إلى حقولنا .. ودروبنا .. وربانا .. أليس كذلك ..

لا يمكن أن يستمر هذا الظلم .. لا يمكن أن تسلب أرضنا وأشجارنا وسماؤنا .. وهواؤنا .. وشمسنا .. إن هذا لا يرضى الله ..

وتتم إبراهيم في شبه ذهول :

— ولا حتى .. الشيطان ..

ثم جرهما من يدها قائلا :

— أجل .. لا بد أن تعودوا .. يوما .. كل شيء يمكن أن يسلب في هذا العالم إلا الوطن .. وكل شيء يمكن أن يعتاد ويستمر إلا الظلم ومرارته ..

وتركت نهى النافذة .. وعادت إلى داخل البيت ولسانها ما زال يلحق السائل المالح الساخن المنساب على زاويتي شفتيها ..

وعاد إبراهيم إلى حجرته .. وانتهى من ارتداء ملابسه .. وفي رأسه ما يشبه الطنين ..

لقد أخرجته الفتاة من ذاتية تفكيره .. ومن عزلة المحيط الذي يعيش في نطاقه ..

كان إبراهيم .. مخلوقا جادا مخلصا .. قويم الخلق .. سليم المبادئ .. ولكنه كان يحصر نفسه وتفكيره واهتمامه في دائرة ضيقة محيطها عمله وحياته الخاصة .. ولم يكن اهتمامه ليتعدى أبدا محيط أعماله ورسومه ومنشآته ومقاولاته .. بكل ما فيها من مشاكل وبحوث وتطورات .. يضاف إليها أعماله في الجيش .. ومطالب البيت وزوجته ونادية .. لم يكن يأبه كثيرا لأبناء السياسة الداخلية وتشكيل الوزارات والأحزاب .. ولا أبناء مشاكل الدول والتيارات التي تتجاذبها .. إلا بالقدر الذي يتأثر به محيطه الداخلي .. والذي قد يرفع سعر الحديد أو يخفضه .. ويبيح الاستيراد أو يمنعه ..

ولم يكن يحس بالمشاكل العامة .. إلا بقدر تأثيرها على محيطه الخاص .. ولم تنل مشكلة فلسطين من تفكيره أو إحساسه .. إلا بالقدر الذي تناله مآسى

الغير التي تمر على عناوينها بالصحف .. فتمصمص شفاهنا أو ننز رؤوسنا أسفا .. ثم نجتازها إلى مشاكلنا الخاصة العادية التي تكتظ بها حياتنا .. وعندما بدأت الحرب ضد إسرائيل .. لم يحاول أن يكون لنفسه رأيا فيها .. في ضرورتها .. وفي المقدرة على خوضها .. وفي نتائجها المحتملة .. بل سلم بالمسألة كإجراء من إجراءات الدولة العامة التي عليها أن تتحمل مسئوليتها .. والتي لا يمكن أن تقدم عليها إلا بعد استكمال دراستها من كل الوجوه .. والتي لا تهم شخصه إلا إذا تحتم عليه بحكم عمله أن يقوم بدور محدد فيها .. لم يكن من طبيعته الانفعال بالأحداث العامة .. أو المشاركة في حماس المجاميع .. بل كان تأثره فرديا بحتا .. ما لنفسه أو للغير .. فهو يتأثر بالمشكلة العامة .. إذا انعكست على شخصه .. أو على شخص غيره مما يمكن أن يحس به إحساسا مباشرا ..

فهو لا يكره الحرب .. أو يتأثر بها .. كإجراء عام بعيد عن محيطه .. ولكنها تمس نفسه .. إذا أبصر أثرها في شخص قريب منها .. وهو من أجل ذلك .. لم يحس بمشكلة فلسطين .. ولا أثر في نفسه كل ما قرأ عنها .. ولا أحس بأن عليه واجبا نحوها . ولا خطر بياله قط أن يتطوع مع الفدائيين الذين تطوعوا للدفاع عنها .. بل كان يجد التطوع لمثل هذه الأشياء .. عملا لا يقدم عليه إلا الذين برؤوسهم هوس الحماس والانفعال وحب البطولة .. وإنه ما دام يعيش في دولة نظامية .. فإن على الدولة أن تنظم أعمال الأفراد بحيث توجه كلا منهم إلى ما تحتاج إليه منه .. وكان يسلم بواجبه نحو الدولة وطاعته لها .. وكان يشعر في قرارة نفسه .. أنه سينفذ كل ما يطلب منه .. وسينتظم في أي وضع تجدد الدولة أنه أفيد لها فيه ..

وإذا كان قد تعجل السفر إلى الميدان .. فلم يكن التعجل مبعثه أبدا ..

اللهفة على أخذ دوره في القتال .. أو الحماس لفلسطين .. لأنه لم يحس بلهفة

ولا حماس .. ولكنه كان فقط مسلما بأنه عندما يحين دوره .. سيتقدم إليه
ببساطة ورضاء .. كما يتقدم لتنفيذ أية عملية من عمليات المقاولات التي سبق
أن أقدم عليها .. أو كما يخرج إلى أى طاوور من طوابير الشكنات ..
تلك كانت نفسيته .. حتى لقي الفتاة الهزيلة ذات العينين الواسعتين ..
وحتى أبصر دموعها الصامتة الحارة تنساب على طرفي شفتيها .. وأحس
بالمراة التي تملأ نفسها وبالضياغ الذي تحس به ..
لقد تركزت المشكلة العامة .. التي لم يكن يحس بها .. في فرد يراه ..
ويحس بآلامه .. فمست شغاف قلبه .. وهزت أوتاره ..
ولأول مرة أحس .. بأنه هنا .. ليحارب إسرائيل .. وليشارك بمجهوده في
فتح طريق العودة الذي تتطلع إليه هي والآلاف المشردون عن أرضهم
ووطنهم ..
لقد أحس بالمشكلة .. كمسألة خاصة .. بفرد قريب منه .. ضائع شريد
.. يئن في صمت .. ويتوجع في يأس ..
ولكنه لم يعرف للمشكلة حلا .. كانت معلوماته عنها مهزوزة عائمة ..
لأنه لم يحاول أن يدخل في محيطها من قبل ..
إن هناك قوات من الجيش تقف مواجهة لقوات العدوان الإسرائيلية ..
وواجبها لا شك هو سحق هذه القوات .. وفتح طريق العودة .. للمشردين
عن أوطانهم ..
ولكن ما هي قدرة القوات .. وطبيعة الخطط .. وما هي فرص النجاح ..
كل هذا يجهله .. فهو منذ أن أتى إلى هنا لا يعرف إلا أن واجبه هو أن يؤدي
خدمات المهندسين للقوات التي تقف متأهبة للقتال .. ولا شيء أكثر من
ذلك ..
هو لا يعرف شيئا عن العدو .. ولا عن القتال .. ولا يعرف شيئا عن

. المراحل التى مر بها .. والمراحل التى يحتمل أن يسير فيها ..
وغادر إبراهيم البيت .. وسارت به العربى تهب الطريق إلى رفح .. وفى
طريقه .. كان يمر بجنود فى خيام .. أو فى خنادق .. وبعبريات ومدافع
ودبابات ..
لم يكن يعرف شيئاً عن دورها .. ولا كان يستطيع أن يميز بين وضع هذه
ووضع تلك .. ولا كانت لديه أقل فكرة عن مواقع قواتهم وتوزيعها .. أو عن
مواقع إسرائيل ..
كان يسير فى الطريق .. كأنه يسير فى طريق الإسكندرية الصحراوى ..
لا يكاد يعى شيئاً مما يحيط به من أسرار عسكرية ..
ومرت بذهنه الفتاة .. الواقعة وراء الزجاج .. ترقب خلال دموعها ..
طريق العودة .. والشمس تتصاعد من وراء الربوة بين صفى النخيل ..
وأحس بضياها .. وبدا له الطريق .. طويلاً .. باهتاً .. سراى النهاية ..
ضائع المعالم ..
وأحس بالمشكلة .. فسيحة الأركان .. معقدة الخيوط .. وبدا له مدى
عجزه .. عن أن يعين الفتاة بحل مشكلتها .. كمسألة عامة .. معلقة بظروف
هو أعجز حتى عن فهمها .. بله المساهمة فيها .. فإن أقصى ما يستطيع فعله
كعمل إيجابى .. هو أن يأخذ سلاحاً ويتقدم به إلى مواقع إسرائيل .. حيث
الكروم والحقول .. وهو عمل جنونى خيالى .. لن يؤدى إلا إلى مصرعه ..
ولكنه مع ذلك يستطيع أن يحل مشكلتها كشيء خاص بها .. فإذا كانت
عودتها إلى وطنها .. قد تعذرت أو استحالت فهو يستطيع أن يجعل لها من بين
وطنا .. ومن نفسه أبا ..
إنه يستطيع أن يعينها .. كفرد .. بمشاعره وحنانه وعطفه ..
وأحس إبراهيم ببعض الراحة .. عندما انتهى إلى حل فردى فى تناول يده

.. لمشكلة عامة .. يعجز عن فهمها والتصرف فيها ..
ووقفت به العربية أمام رئاسة القوة في رفع .. وهبط من العربية إلى الكشك
الصاج الذي استقر فيه الأركان حرب ..
وقبل أن يجتاز الباب سمع صوتا يصيح به مرحبا :
— أهلا .. إبراهيم ..
وأبصر مراد بصدره المفتوح .. وشاربه الأصفر المنفوش يتقدم إليه ثم
يصافحه ويجره إليه ويعانقه ..
وكان إبراهيم يكره العناق .. ولم يكن يحس بشيء من الوحشة تدعوه إلى
تبادل العناق مع مراد .. ولكنه لم يملك إلا التسليم به .. فقد فرض مراد عليه
العناق فرضا ..
واستمر مراد في ترحيبه الصاحب وثرثرته العالية :
— ماذا أتى بك إلى هنا .. إني ذاهب إلى العريش وكنت أنوى أن أزورك
اليوم .. لقد دعوت نفسي إلى الغداء عندك ..
— وأنا على استعداد لإطعامك .. لوجه الله ..
— لا تنفع الدعوة .. فقد أضعتها بجميعك إلى هنا .. إني سأؤجل ذهابي إلى
العريش .. وأدعوك أنا للغداء ..
— ولكنني لن أبقى للغداء .. إن المسألة لن تستغرق أكثر من نصف ساعة
.. أو ساعة على الأكثر ..
— إذن أنتظرك حتى نعود سويا إلى العريش ..
— اتفقنا .. أين ألقاك ؟ ..
— كما تشاء .. إني سأقابل قائد القوة .. ثم أذهب إلى السرية .. وأمر على
بعض المواقع .. ثم أعود إلى رياستي .. لأنتظرك هناك .. إني أدعوك إلى فنيجان
من الشاي سأصنعه لك .. أنظر هل ترى الفنتاس القائم على يمينك .. خذ

زاوية ٣٠ درجة .. أترى التبة التى هناك فى اتجاه كودية الحشيش .. سر ..
— اسمع .. ليس لدى وقت لأسمع كل هذا الوصف .. بناقص فنجان شاي ..
.. سأنتظرك هنا بعد ساعة ..
— كنت أريد أن أريك بعض .. معاكسات مع اليهود .. حاجة على
الماشي ..

— لا ضرورة لذلك .. وإلا تأتى الطوبة فى المعطوبة ..
— أمرك .. ليس لك فى الطيب نصيب .. كنت أريد أن أجلسك .. فى
الأبارتمان الفاخر .. الذى أنشأته داخل الدبابة .. لقد فتحت له نافذتين ..
إحداهما على البحرى .. والثانية .. قبلى للشمس ..
— مرة أخرى .. يكون لدى وقت ، سأزورك .. لأجرى لك بعض
التعديلات المعمارية .. من يدرى .. يمكن أن أفتح لك دبابتين على بعض ..
— مشروع غير معقول .. ليس لدينا من الدبابات ما يسمح بهذا ..
— كم لديكم من الدبابات ؟ ..
— قال يا جحا .. عد غنمك .. واحدة نائمة .. والثانية برضه نائمة ..
— أنت مشتغالى .. حتى على سلاحك ..
— خليها على الله .. سلام عليكم .. سأحضر إليك بعد ساعة ..

الفصل السابع

حياة بلا حساب

انتهى إبراهيم من أعماله في رفع قبل أن تنتهى الساعة ، وذهب إلى مكتب الأركان حرب لانتظار مراد ..

وأقبل مراد بعربته يصيح بصوته الصاخب :

— ها .. انتهيت ..

— أجل ..

— إذن تعال معى فى عربتى ودع عربتك تأتى وراءنا ..

وانطلق مراد بعربته الجيب ينهب الطريق فى سرعة خارقة ، وقد جلس إبراهيم بجواره مثبتا بصره على عداد السرعة ، والعداد يتحرك رويدا رويدا فى اتجاه الزيادة ، وهو يحاول أن يمسك أعصابه ، وأن يترك لمراد فرصة كافية للحمق حتى يبدأ من تلقاء نفسه ، فلما رأى إصرار مراد على السرعة الجنونية رفع بصره إليه وقال له بأقصى ما يستطيع من هدوء :

— ألدريك موعد فى العريش ؟

وهز مراد كتفيه وهو مستمر فى سرعته .. وأجاب وعيناه إلى الطريق :

— أبدا ..

— ألدريك فكرة أن لدى موعدا هناك ؟

والتفت مراد إليه فى دهشة متسائلا :

— كيف أعرف ..

وزغده إبراهيم فى كتفه ناهرا :

— أنظر أمامك ..

وعندما تأكد أن مراد أعاد عينيه إلى الطريق ، قال في لهجته الهادئة :

— ما دمت واثقا أنه ليس لديك موعد .. وما دمت لاتعرف أتى على موعد

.. فلماذا إذن هذه السرعة الجنونية ؟

— أنا تعودت دائما ألا أسير أقل من هذا .. حتى ولو كنت في غير

عجلة ..

— ولكنى لم أتعود هذه السرعة .. حتى ولو كنت في عجلة ..

— يجب أن تتعوّدها .. ما دمت تركب معى ..

— إذن .. أرجوك أن تقف .. وتدعنى أركب عربتى .. لأنى لا أريد أن

أتعود حماقاتك أبدا .. مفهوم ؟

— مفهوم يا فندم !

وبدأ مراد يهدىء السرعة .. وتساءل في سخرية :

— أتعجبك هذه السرعة ؟

— أجل ..

واستمر في سخريته .. وهو يتلفت ..

— يا سلام .. طريق عامر .. يستحق التزهة .. هل تريد أن أبطىء أكثر ..

لترى الغاديات الرائحات .. وتملأ نظرك من أردافهن ؟

— أهذا كل ما يلفت نظرك في الطريق .. وما يلزمك السرعة المعقولة ..

— لا .. بالطبع .. يلفت نظرى .. الرمال ، وكوديات الحشيش ،

والأجساد الكاكية العجفاء ، والجمال ، والمعيز .. يا سلام .. انظر هذا الكلب

.. تغزل !

وتباطأ مراد حتى كاد يقف بجوار الكلب ..

ونهره إبراهيم بقوله :

— كفى عبثا .. وسر .. أليس لديك وسط .. إما أن تسير بسرعتك
الجنونية أو تقف .. أتظن كل غرضك من الطريق هو البصبة ؟
— لماذا أتمهل إذن ؟
— من أجل حياتك ..
— حياتي !

ثم اندفع مقهقهها .. وأردف يقول وهو يغنى :
— حياتي انت .. ما ليش غيرك .. وفايتنى لمن ..
وهز إبراهيم رأسه ومصمص شفثيه وتمم قائلا :
— مهرج ..

ونظر إليه مراد وهو يضحك قائلا :

— حياتي يا أستاذ .. لا وجود لها في مشروعاتي .. ولا حساب لها في
تصرفاتي .. ليس من شأنى أن تنتهى أو لا تنتهى .. إن هذا من شأن غيرى ..
من شأن هذا الجالس فوقنا .. إنه المتصرف فيها .. ينهبها أو يبقها .. هذا أمره
وحده .. فلماذا أحشر نفسى فيه .. أنا أسرع .. وأغامر .. وأحارب .. مادام
هو مبقيا لى حياتى .. وما دام إنهاؤها لم يمن فى برنامجيه بعد .. فإذا ما قرر
إنهاءها .. فسينهبها بالطريقة التى تحلو له .. لا التى تحلو لى .. فقد أسرع وأقلب
العربة .. ولا ينهبها .. وقد أغامر وأحارب ، وأعرض لسلاح العدو ..
ولا ينهبها .. ثم ينهبها ببساطة .. بسلاح جيليت مثلا .. يصينى جرح من
موسى الخلاقة وأنا أحلق .. فيتسخ الجرح ويتسمم ، وأصاب بفرغرينا ..
وأموت ..

— يا سلام على الأفكار ..

— لماذا تسخر .. إن لى صديقا من دفعنى مات هكذا .. فلماذا تستعصى
على حياتى نهاية كهذه .. أو حتى أبسط من هذه .. لا سلاح ولا غيره ..

جرثومة تيفويد مثلاً .. لا راحت ولا جت ..! إن انتهاء حياتي ليس من شأنى .. فلا يجب أن أقيم لها وزناً فى تصرفاتى ..

— إنهاء حياتك ليس من شأنك .. ولكن المحافظة عليها من شأنك ..

— كلام فارغ .. كيف أملك المحافظة على شىء .. لا أملك منع دماره .. أو تحطيمه .. بل حتى لا أعرف سر كيانه .. ووجوده .. أو بقاءه .. ونظر إليه وتسائل فى سخرية :

— هل اقتنعت .. أسرع .. أم ما زلت تريد المحافظة على حياتك ..؟

— إنى أريد المحافظة على عقلى .. إن لنا بيوتا وأولاداً ..

— ولهم جميعاً رب .. ألا تؤمن به ؟

— أومن به .. بطريقة تحم تعاونى معه ..

— وأنا أومن به بطريقة تحم توكلى عليه .. أنا أترك له كل أمرى يدبره كما

يشاء .. أنا إذن أشد منك إيماناً به وثقة فيه ..

وعاد ينظر إليه مبتسماً فى خبث وهو يتساءل :

— ها .. أسرع ؟ .

وضغط على دواسة البنزين وانطلق فى جنون وهو يصيح ضاحكاً :

— إن الله معنا .. إنى أحس أنه قد دبر لى نهاية أفضل من عربة مقلوبة ..

نهاية بها شىء من البطولة ..

— أنت مجنون بطولة .. إن شاء الله ستنتهى كما انتهى بطل توفيق الحكيم فى

قصة « عرف كيف يموت » ..

— وكيف مات ؟

— فى بكبورت ..

— إخص .. قال الله ولا فالك .. وقال توفيق الحكيم .. إنى سأريه كيف

أموت .. سأعلم أديبنا كيف يكتبون موت الأبطال ..

وكانت العربية قد أشرفت على نهاية الطريق واقتربت من قشلاق المهندسين
فهتف إبراهيم بمراد :

— بس .. هنا .. أنزلني من فضلك .. أرهم أنت كيف يموت الأبطال ..
فأنا لا أريد أن أرى أحداً عرضاً لطرق الموت ..

— ألا تحب ميتة الأبطال ؟

— بل أفضل عليها حياتي ..

وقفز إبراهيم من العربية .. وهو يقول :

— أنتظرني في العربية .. أم تأتي معي إلى المكتب ؟

— أستغيب طويلاً ؟

— ليس أكثر من ربيع ساعة ..

— إذن فساذهب إلى رئاسة الآلاى وألحق بك في الميس ..

— أى ميس ؟

— ميس المهندسين .. ألم نتفق على أنك ستغديني ؟

— سأغديك في البيت .. أكلة بيتي تربي على جنتك ..

— أسكنت في بيت ..

— طبعاً .. قائد سرية مهندسى العريش بحاله ولا يسكن في بيت ..!

— لا بد أنه بيت من الصباح كالكشك الذى نبيت فيه .. إلى أفضل أن

أبيت تحت المشمع ولا أبيت فيه .. إنه محرق في الصيف ..

— يا أستاذ بيت من الصباح إيه ؟ .. سأريك البيوت على أصولها .. أنه بيت

بمدفأة وبار ..

— مرة واحدة ؟! .. والبار عامر ؟ ..

— سأعمره لك .. ماذا تريد ؟

— لا أشرب على الغداء غير بيرة مثلجة ..

— سأحضرها لك ..

— وأنا سأكون عندك بعد ربع ساعة ..

واندفع يعرته بنفس السرعة الجنونية .. مثيرا وراءه سحباً من الغبار
ودخان البنزين ..

ودلف إبراهيم إلى مكتبه ، وقبل أن يبدأ في إنجاز أعماله رفع سماعة التليفون
قائلاً :

— أعطني البيت ..

ورد عليه صوت نادية :

— ألو .. مين حضرتك ..

وقبل أن يجيب كانت الأم قد اختطففت السماعة من يدها .. وسمع صوت
صياحها ثم سمع صوت مديحة يتساءل :
— ألو ..

— أنا إبراهيم .. أنا عزمت اليوزباشى مراد على الغداء ..

— ولماذا لم تخبرنى فى الصباح حتى أعمل ترتيبى ؟

— لأنى لم أقابله إلا اليوم ..

— إذن فكان عليك أن تدعوه باكراً حتى تعطينى فرصة ..

— لقد أتى هو اليوم إلى العريش .. ولم أكن أستطيع أن أقول له تعال غدا
حتى أعطى زوجتى فرصة .. لقد سبق أن دعانى إلى الغداء ولا بد أن أرد له
العزومة ..

— كنت تستطيع ..

— مديحة .. أرجوك .. ليس هناك مبرر للمناقشة .. لقد دعوته وانتهى
الأمر .. ونستطيع أن نأكل أى شىء .. فليست المسألة استعراض كرم .. إنها
رد دعوة .. مفهوم ..

(طريق العودة)

— حاضر ..

ووضع كل منهما الساعة في وقت واحد .. وعاد كل منهما إلى هدوئه
كأن لم تحدث بينهما مناقشة ..
ونادت مديحة العسكري الطباخ .. وأصدرت إليه أوامرها بخصوص
الضيف قائلة :

— لقد دعا البيه ضيفا للغداء .. اشو اللحمة الكستليتة الموجودة عندك ..
وأعمل طبق سلطة خضار .. وإذا لم يكن هناك فاكهة ..
— لقد اشتريت التين .. ولدينا عنب ..
— كفاية ..

وعادت مديحة في سكون إلى مقعدها في شرفة الحديقة لتعمل في صديري
تريكو من أجل نادية ، وأقبلت نهي تتسائل بعد أن سمعت أوامر مديحة
للطباخ :

— أأضع نمرة جديدة على المائدة !
— أجل ..

وذهبت نهي لتعد المائدة .. وتغير زهور الزهرية .. ووراعها نادية تابعها
متسائلة :

— لماذا تضعين هذا الطبق ؟

— لدينا ضيف ..

— من هو ؟

— لا أعرف ..

— هل سأكل معه ؟

— كما تريد ..

— أريد أن أكل معك في الحديقة ..

— نستأذن من ماما أولا ..

— لن نأكل إذن ..

— لماذا ؟

— لأنها ستقول لك لا .. نادية تبرد .. انتظري حتى يأكلوا هم ثم نتسلل
معا إلى الحديقة ..

— لا .. هذا عيب .. يجب أن نستأذنها أولا .. وهى ستوافق ..

وارتفع صوت الأم منادية :

— نادية البسى البلوفر .. لكيلا تبردى ..

وقالت نادية لنهى :

— مبسوفة .. ألم أقل لك .. دائما تقول إنى سأبرد ..

— لأنها تحبك وتخاف عليك ..

— ولكن بابا يحبني ولا يضايقني كما تضايقني هى .. أنا أحب أن أسمع كلام
بابا ..

— ويجب أيضا تسمعى كلام ماما ..

— لماذا ؟ ..

— لأن ماما هى التى تجلس معك .. أما هو فيذهب إلى عمله .. ومن أجل

هذا يجب أن تسمعى كلامها أيضا ..

وسمع صوت عربة تقف عند الباب ، وقفز إبراهيم من العربة ووراءه
مراد ..

ووقف مراد يتطلع إلى البيت فى إعجاب متسائلا :

— أهذا بيتك ؟

— طبعا ..

— ما شاء الله .. إذن فأين ينزل قائد القوة ؟

— أدخل .. حتى تراه من الداخل ..

وأقبلت مديحة على الضيف مرحبة .. ومن ورائها نادية ونهى .. وقام إبراهيم بواجب التعريف .. وتبادل الاثنان بعض ألفاظ التحية .. ودلفوا إلى البيت ومراد يحملق فيما حوله .. قائلاً :

— عجيبة .. لم يكن لدى أقل فكرة أنه يوجد في العريش مثل هذا البيت .. لقد مضى على سنة كاملة وأنا أنتقل بين الخيام وأكشاك الصاج .. والمشمعات .. لقد طلبت زوجتي أن أحضرها لتمضي جزءاً من الصيف هنا .. فلم أعرف أين أنزلها ..

وأجابت مديحة من باب المجاملة :

— البيت تحت أمرك .. تستطيع أن تدعوها للنزول معنا ..

وفكر مراد برهة ثم أجاب :

— والله فكرة .. نمضي بضعة أسابيع ..

و لم يعلق إبراهيم على قوله باعتبار أنه مجرد كلام .. ولكن مراد عاد يتساءل :

— ولكن هل لديكم حجرات فاضية ؟

ووجدت مديحة نفسها أمام أمر واقع فأجابت بمجاملة :

— نستطيع أن نفضي غرفة أو غرفتين ..

— غرفة واحدة تكفى .. إني سأرسل في استدعائها حالا .. إني أستطيع أن أحضر كل يوم لأبيت هنا ..

.. وبدا أن مراد قد أخذ المسألة مأخذ الجد ..

و لم يستطع كل من إبراهيم أو مديحة أن يتراجع في دعوته ..

وأجابت مديحة الإجابة التي لا مفر منها :

— تنزلون على الرحب والسعة ..

وقال مراد في تردد :

— ولكن أخشى أن نضايقكم ..

ورد إبراهيم :

— بالعكس .. إن مديحة تقضى طيلة اليوم وحدها .. ولا شك أن زوجتك

ستسليها في بضعة الأسابيع التي ستقضيها هنا قبل موعد المدارس ..

— إذا كانت المسألة ليس فيها مضايقة لكم فسأدعوها .. أين التليفون ؟

وأرشده إبراهيم إلى التليفون .. فرفع السماعة قائلاً :

— أعطني مصر — ٦٠٢١٠ — أنا اليوزباشى محمود مراد من الفرسان ..

وأجابه العامل أن الخط مشغول ..

فرد :

— بمجرد أن يفضى أعطه لى ..

وسار إبراهيم بجوار مراد يعرض عليه البيت .. وهمس مراد ضاحكاً :

— فرصة .. نوفر مشوار القاهرة .. ونكتفى بإجازة الإسماعيلية .

ونظر إليه إبراهيم في دهشة وتساءل :

— أ استدعوها .. لكى تذهب أنت إلى الإسماعيلية ؟

— ولم لا ؟ أنا لدى مأمورية في الإسماعيلية ، وهى ستسلى مع السيدة

حرمكم .. ماذا فى ذلك ؟

وهز إبراهيم كتفيه فى دهشة وهو يسائل نفسه : أى مخلوق هذا ؟

الفصل الثامن

هزة مفاجئة

لبت زوجة مراد دعوته .. وفي اليوم التالي كان يقف مع إبراهيم لاستقبالها في المحطة .. ولم يكن إبراهيم يحس في قرارة نفسه بحماس شديد لاستقبال الضيفة الجديدة .. إذ لم تكن صلاته بمراد من القوة بحيث ترفع الكلفة بطريقة تجعل إقامتهما معا سهلة مريحة .. ولا كان مراد نفسه المخلوق الذى تستحب صحبته وتسهل عشرته .. ولم يتعود إبراهيم من قبل أن يعيش مع أسرة أخرى في بيت واحد .. وقد كان هو وزوجته أقرب إلى الانطواء .. فكأننا عدوى المعارف .. قليلي الأصدقاء .. ولم تكن هناك سابق معرفة بين زوجته وزوجة مراد ، بحيث يمكن أن تألف صحبتها .. وترتاح إلى عشرتها .. من كل ناحية .. لم يكن هناك ما يبعث على الارتياح للشركة الجديدة في المسكن .. وكانت المسألة لا تتعدى نوعا من التورط الذى لا يمكن دفعه .. تماما كعناق مراد عند التحية .. الذى يفرضه عليه بقوة الذراعين .. وفرط المرح والبشاشة والصفاء ..

لقد فرض مراد عليهم دعوته .. بطريقته الملهلية .. البسيطة .. ولم يكن في الأمر غضاضة .. إذ كان بطبيعته لا يحس كلفة لأحد ..

ولو كان هو صاحب البيت لما ضايقه أبدا .. أن ينزل معه إبراهيم .. وعشرة ضباط آخرين بعائلاتهم .. دون أن يتعب نفسه كثيرا في تدبير أمرهم .. وإيوائهم وإطعامهم .. كان يعتقد أن كل هذه أشياء لن يستعصى تدبيرها .. فمن وراء عجزه إذا عجز — ككل شئ يقدم عليه — رب مدبر مشغول قدير

على كل شيء ..

وكان على إبراهيم وزوجته أن يقبلا الصحبة .. كفرض لا راد له ..
إلا بالخشونة وقلة الذوق .. وقد كانا من الرقة والأدب بحيث يفضلان قبول
المشكلة والرضوخ للورطة .. عن دفعها .. بالخشونة .. وردها بالجليلة ..
وأصبح عليهما أن يدبرا أمر الضيفين كأفضل ما يكون التدبير .. حتى يمن الله
عليهما بالخلاص ..

ولم يكن التدبير المادى بالأمر العسير .. فقد استطاعا أن يقسحا لهما مكانا
.. بأن ينضم إبراهيم إلى زوجته في حجرة واحدة .. ولم يكن الطعام يدخل في
حساب المشكلات .. فقد كانت وفرته تكفى لقبول أكثر من الضيفين ..
أما العسير فقد كان التدبير المعنوى .. وهو ترويض النفس على قبول
الصحبة الجديدة .. التى فرضت ، ليس لبضع ساعات من اليوم .. أو بضعة
أيام من الأسبوع .. بل صحبة دائمة .. طيلة الأيام .. وطيلة الأسبوع
أو الأسابيع التى يحتمل أن يقضيها معهم ..

ووقف إبراهيم يرقب القطار وقد بدا شبحه ينساب من بعد .. وأخذت
ضجته وصغيره .. يعلوان رويداً رويداً .. ووجد نفسه يتخيل الصيفة القادمة
برغمه .. كزوجها .. مهياصة .. مهازرة .. مستهتره .. ولم يدرك كيف يمكن
أن تقع من نفس زوجته .. هل ستحملها وتروض نفسها على عشرتها ؟ ..
لم لا ؟ .. إن زوجته تعرف كيف تأخذ الناس على علاتهم .. إنها
لا تصطدم ولا تثور أبداً .. ولكنها تكره الإهمال والقذارة .. وإذا كانت زوجة
مراد فى مثل إهماله واستهتاره .. فلن يكون التفاهم بينهما سهلاً .. ولن تكون
الألفة ميسورة ..

ولكن لماذا يشغل نفسه ويثقل على ذهنه .. بمثل هذه الافتراضات .. إن
المسألة كلها لن تزيد على أسابيع ..

ثم .. من يدري ؟ قد تكون المخلوقة نفسها محتملة .. وقد ترتاح إليها زوجته .. فتؤنس وحشتها وتسلى وحدتها ؟ ..
ووصل القطار إلى المحطة .. واستمر يتهادى حتى توقف تماما .. وأخذ مراد يفحص النوافذ .. ثم اندفع إلى إحداها صائحا في مرح :
— هاى .. ليلى ..

وتبعه إبراهيم ببصره .. حتى استقر أمام النافذة .. وأخذ يرقبه وهو يصافح اليد التى امتدت إليه من النافذة .. وبهزها مرحبا ثم تلفت وراءه باحثا عنه ..
وصاح به :
— إبراهيم ..

وتقدم إبراهيم .. وعيناه مثبتتان فى الوجه الذى أطل من النافذة وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة رقيقة ..
وأحس من الوجه .. بما يشبه الهزة .. لم يدر مبعثها بالضبط .. أمى هزة مفاجئة .. أم هزة إعجاب .. أم نشوة .. أم إنذار وتحذير .. أم كانت كلها معها ..

أما عن المفاجأة .. فقد كانت أمرا لا شك فيه .. فهو لم يتوقع قط أن تكون زوجة مراد .. التى يتحدث عنها بتلك الطريقة الماجنة .. والتى يحاول دائما أن يتسلى عنها برفيقة دائمة .. والتى يعتبرها فى حياته مجرد سد خيانة .. والتى يراها عبئا عليه يقيد حريته .. وينغص عيشه .. لم يتوقع قط أن تكون الزوجة التى يصنعها مراد بمثل هذه الأوصاف .. هى صاحبة هذا الوجه العجيب .. الذى لا يمكن أن يوحى بغير السكينة والهدوء ..

وكان وجهها بلا رتوش ولا أصباغ .. أشبه بوجوه الراهبات أو الأطفال .. ولم تكن جاذبيته ناتجة عن فتنة .. أو إثارة .. وإنما كانت عن رقة ونعومة وطيبة ..

كان جميلا جمال البحيرة الزرقاء الصافية الساكنة .. أو جمال الرقيقة
الوادعة ..

كان الوجه عاجى اللون .. لا يكسو بياضه غير سواد الحاجبين وظلال
الرمشين وحمرة غير صارخة في شفتين رقيقتين .. ولم تكن بالعينين سعة ..
ولمّا كانتا مشروطتين في ضيق يزداد مع الابتسامة حتى تكاد الحدقتان
الخضراوان تحتضنهما الرموش المطبقة .. وأسنان بيض منظمة تجعل البسمة
أجمل ما يمنحه الوجه .. من تعابير .. يحيط بكل ذلك هالة من الشعر الأسود
الناعم الذى شوشته ريح القطار فترامت بعض خصلاته في إهمال لتقطع بياض
الجبين ..

تلك كانت تفاصيل الوجه .. ولم يصبر إبراهيم بالطبع كل الدقائق ..
ولكنه .. أخذ بالوجه في جملة .. وبشئ خاص من تلك الدقائق أحس به من
أول مرة .. مس بها الوجه إحساسه .. وهو اقتران الشعر الأسود بالعينين
الخضراوين .. لقد كان ذلك هو أول عناصر الهزة التى أصابته .. بلا إرادة
ولا تفكير .. فقد كان اقتران اللونين في وجه .. من أشد دوافع إحساسه
بالجمال ..

وقبل أن يصل إلى النافذة .. وقبل أن يمد يده ليلقى اليد الممدودة لمصافحته
.. أصابته الهزة الثانية .. هزة الإحساس بالذنب .. الناتجة عن إحساسه بالهزة
الأولى .. هزة المتعة المفاجئة .. والنشوة اللاإرادية التى أصابته كما تصبى طلبة
ليس له من تجنبها مفر .. وبدأ لنفسه مذنباً .. لمجرد الرضوخ .. لهذا التأثير الممتع
.. وللمجرد الاستسلام لشعور النشوة .. من مصدر محرم .. وفى جملة ظروف
لا يمكن أن يسمح واحد منها .. بمجرد قبول الإحساس ..

وتصافحت الأيدي .. وبين ألفاظ التعارف التى انطلقت من فم مراد
الصاخب .. نشبت معركة سريعة خفية فى باطن إبراهيم بين استمتاعه باليد

الرخصة والبسمة الجميلة .. ومقاومته لإحساس المذنب .. الذى لم يتعود قط أن يكون مذنباً ..

وتغلب إحساس المقاومة .. واستطاع إبراهيم أن يطرد في حزم وسرعة كل شعور في باطنه إلا شعور المضيف والضيف .. وبادل الضيفة ابتسامتها قائلاً في ترحيب :
— أهلاً وسهلاً .. شرفت العريش ..

وتلقى مراد حقيقة زوجته .. واختفت هى من النافذة وتحرك الاثنان ليستقبلاها من باب القطار .. واتجه ثلاثهم ليستقلوا العربة إلى البيت .. وقالت ليلي مجاملة :

— يبدو أن الجو لطيف عندكم ! ..
وأجاب مراد :

— انتظري حتى تذهبي إلى البيت ..
وسألت ليلي إبراهيم :

— أهو جميل حقاً كما وصفه لى .. ؟
وأجاب إبراهيم :

— أظنه سيعجبك ، أو على الأقل سيكون مرضياً بالنسبة لغيره من بيوت المنطقة ..

وصاح مراد معترضاً في لهجته الصباحية :

— مرضياً ؟ .. ستجدين بيتاً .. لم يحلم أحد أجدادك بالسكنى فيه ..
وأخذ « إبراهيم » بلهجة « مراد » الوقحة نحو زوجته ، وهو لم يتوقع منه الأدب في حديثه ، ولكنه لم يتوقع أيضاً أن يرفع الكلفة مع زوجته أمامه .
وأحست « ليلي » بالخرج من لهجة « مراد » أمام « إبراهيم » .
ولكنها مالبت حتى أضاعت الخرج بقولها ضاحكة :

— لا أظن أحد أجدادى قد فكر فى الحضور إلى العريش .
ولكن « مراد » لم يحس حرجا من الاستمرار فى مزاحه .. الوقح ، فقال
مقهقهقا :

— لا بد أن واحدا منهم قد حضر أيام السلطة ، وكانت ستك تصيح به :
« يا عزيز عبنى .. والسلطة خدت ولدى » .
ولم تحب « ليلي » ، وكأنما خشيت أن يسوقها أى رد إلى مزيد من الإهانة
والحرج ، وهى تعرف سلاطة لسان زوجها ، واستهتاره وعدم تخرجه أو
اعتباره لأى ظرف .

وتملك « إبراهيم » إحساس بالعطف على « ليلي » ، وهو يرى استسلامها
لوقاحة « مراد » ، وخوفها من اندفاعه المستتر ، وإحساسها بالحرج أمامه
كإنسانة وزوجة يتحتم عليه احترامها .
وكان عليه أن يقول شيئا لينقذ به الموقف .. فدفع مراد من ذراعه إلى العربة
فى مزاح :

— ادخل .. وكفى وقاحة .. أنت لا تنفع إلا فى الهزل ..
وسارت العربة حتى وصلت إلى البيت .. وعلى بابها وقفت مديحة ترقب
القادمة بنظرة فاحصة .. من إخمص قدمها إلى رأسها .. حذاتها المنخفض
المترب وجورها الذى رقت النسل الذى به يبقعة من أكلا دور الأظافر .. إن
ساقها جميلتان ولكنهما تحتاجان إلى قطعة حلالة تزيل هذه الشعيرات البادية
من وراء الجورب .. ثم فحصت الجيب .. لم يكن شيئا غير عادى .. لم يكن
الجيبون يملأه بحيث يبدو نافشا كما يجب .. إن خضرها ضيق ولكن أردافها تبدو
مسكوعة قليلا .. ومجنحة .. ولكن جسدها على بعضه جميل ، البلوزة لطيفة
ولكن بها فتق صغير عند الكم .. وصدرها لا بأس به .. إنه يبدو كصدر فتاة ،
طبعاً لأنها لم تلد ولم ترضع .. إن السوتيان يحتاج إلى أن يشد قليلا .. إن

الوجه جميل .. ولكنه باهت ، لماذا لم تضع بعض الأحمر على خديها .. إنها في مجموعها .. تبدو إنسانة لطيفة .. رقيقة .. على أية حال ، لم يكن منها مفر ، لا بد من احتمال ضيافتها ..

ومدت مديحة يدها .. وشدت على يد الضيفة مرحبة .. وصاح مراد يقدمها بلهجة الصاخبة الوقحة :

— ليلى هاتم .. حرمتنا المصون .. سيدة كاملة .. ليس بها من عيب إلا أنها تمشى وهي نائمة ..

وقالت نادية وهي تمسك بثوب أمها :

— أنا أيضا أعرف كيف أمشى وأنا نائمة ..

واستمر مراد في وقاحته مقهقهها :

— أنت تمشين على الأرض .. ولكنها تمشى على الحيط ..

وأحست ليلى بالارتباك .. لم يكن هناك تقديم أسوأ من هذا التقديم ..

وبدا الضيق والانزعاج على وجه إبراهيم .. ولكن ليلى .. وقد تعودت على

سخافات زوجها .. لم تلبث أن أزال حرج الموقف بابتسامتها الرقيقة ..

ومدت ذراعها ورفعت نادية وضمتها إلى صدرها قائلة في لهجة مدللة :

— أنت جميلة .. أرينى كيف تسيرين وأنت نائمة ..

وأغمضت نادية عينها ومدت ذراعها أمامها ، وصمت الجميع .. وقالت

نادية :

— لقد رأيت الرجل يسير في السينة هكذا .. وكان يسير على حرف السور

.. أتذكر يا بابا ..؟

ومدت الأم ذراعها فأنزلت نادية قائلة :

— دعى تنت ليلى تدخل لتستريح .. إن مشوار السفر مرهق ..

وأقبلت ندى من الداخل فصافحت الضيفة .. وبدأ التساؤل على وجه ليلى

فقال مراد يعرفها بها :

— نهى .. لاجئة فلسطينية ..
واستدرك إبراهيم يصحح قوله :
— إنها ضيفة علينا ..
وقالت ليل مرحة في رقة :
— أهلا وسهلا .. إنها ضيفة علينا جميعا ..
وصاحت نادية قائلة :
— عندما تعود إلى بيتها .. ستدعونا كلنا ..
وأجابت ليلي :
— إن شاء الله تعود قريبا :
وضرب مراد على صدره في قوة .. وصاح :
— أنا وحدي الذي سأعيدها .. أنا ونفيسة ..
وتساءلت مديحة ضاحكة :
— تقصد أنت وليل ؟ ..
— بل أقصد نفيسة .. سأدخل تل أبيب على ظهر نفيسة .. دبابتي ،
فهمم .. ؟
وتساءل إبراهيم مازحا :
— هل تستطيع نفيسة أن تسير بك إلى هناك ؟ .. إنني على استعداد لنحك
« بل دوزر » .. من سلاح المهندسين .
— لا يا عم .. دبابتك العرجاء ولا سؤال اللثيم ..
— تأدب .. فلن أسكت على وقاحتك ..
وتدخلت مديحة قائلة :
— يا جماعة .. دعوا ليلي تدخل لتستريح ..
وقالت نهى :

— لقد أعددت لها الحمام .. والحجرة ..
وقال مراد بوقاحته :

— لا داعي للحمام الآن ، سنستحم سويا في الصباح ..
وكسا الاحمرار وجه ليلي العاجي .. ولم يعجب مديحة هذا الخروج في
الكلام .. ولا سيما أمام نهي ونادية .. وجر إبراهيم مراد من ذراعه وقال له
زاجرا :

— وبعدين .. لِمَ لسانك ..
وأجاب مراد في رضوخ :
— حاضر .. متأسف ..

وسارت ليلي إلى حجرتها وتبعها مراد .. وبدا التحهم على وجه ليلي وهي
تفتح الحقيبة لتضع ملابسها في الدولاب .. واقترب منها مراد يحاول ضمها إليه
فتملصت منه في ضيق ..

وقال مراد محاولا استرضاءها :

— أغضبت ...

ولم تجب ليلي ..

وعاد مراد يتساءل :

— أسنبداً في لوى البوز .. قولى ماذا أغضبك ؟ ..

— قلة الأدب التي لم تكف عنها منذ حضرت ..

— أهذا شيء جديد عليك ..

— شيء جديد على الناس الذين ننزل عليهم ..

— من أدراك أنه شيء جديد .. كل الناس سفلة مثلنا ..

— ليس هناك أسفل منك .. يجب أن تتحفظ أمام الناس .. يجب أن تحترم

نفسك ..

— يا ستنى لا تدققى . كوفى بجوحة ..
— هذه ليست بجوحة .. هذه سخافة وسماجة ..
— تعالى .. تعالى ..
ثم جذبها من ذراعها وضمها إليه فى عنف ، وقال وهو يقبلها ضاحكا :
— واحشائى .
وحاول أن يجرها إلى الفراش فدفعته فى ضيق قائلة :
— أنت متوحش ؟ .. إتنا فى بيت ناس ! ..
— ونحن سنفعل ما يفعله الناس .. تعالى ..
وعادت تتخلص منه فى ضيق قائلة :
— دعنى حتى أفرغ الحقيبة ..
وسمع طرق على الباب .. ثم دخلت نهى تقول فى رقة :
— أتريدى الغداء أولا أو الحمام ..
— إنى لا أريد أن أتعبك ..
— ليس هناك ما يتعبنى .. لقد أعددت كليهما ..
— سأستحم أولا ..
وخرجت نهى وأغلقت الباب ومراد يصيح بها :
— حمام لاتنين ..
وهتفت به ليلى :
— وقع .. إذا كنت تنوى الاستمرار فى وقاحتك أمام الناس .. فسأعود
ثانية إلى القاهرة .. مفهوم .. اتفضل .. أخرج ..
وقال مراد وهو يهز كتفيه :
— أمرك .. أنت الجانية على نفسك .. ستضيعين عمرك فى المحافظة على
كرامتك أمام الناس .. لعن الله أباك .. وأبا كل الناس ..

الفصل التاسع

بركان خامد

مضت بضعة أيام ومراد وليلى يقيمان في بيت العريش .. وكان مراد يذهب كل صباح إلى موقعه في رفح ثم يعود قبيل الساعة الثالثة بعد الظهر حيث يتناول الكل الغداء معهم ..

و لم يصعب على الأسرتين الاندماج .. وفرضت عليهما الوحدة والغربة .. ألفة سريعة .. واستطاعت ليلي برقتها ووداعتها .. أن تكسب صداقة مديحة .. وأن تزيل بسرعة آثار الكلفة ..

أما الأمر الذي بدا متعذرا على ليلي .. فهو ترويض زوجها وستر نقائصه .. وإظهاره كمخلوق مهذب يمكن معاشرته ..

كان التناقض شديدا بين الاثنين .. ولم تستطع حماقة مراد وتبجحجه أن تستر هذا التناقض .. فبدا واضحا مكشوبا .. لا يستره حجاب من الانسجام الظاهري الذي يستر تناقض الزوجين الآخرين إبراهيم ومديحة ..

كان الأربعة يمثلون ثلاثة أنواع من الخلق والشخصية .. اثنان منهم وهما مراد ومديحة .. يمثل كل منهما أقصى اتجاه من الخلق .. والاثنان الآخران وهما إبراهيم وليلى .. يمثلان الوسط المعتدل المشترك .

كان مراد يمثل اللا أصولية واللا مسؤولية .. والانطلاق في الحياة بلا قيد ولا قاعدة .. والتحرر من كل ما يثقل ميوله أو يقيد رغباته .. وإلقاء عبء المسؤولية وتحميل النتائج على إله مفروض أن يدبر له أمره .. ويحمل عنه وزره ويغفر خطاياها ..

كان حيوانى النزعة .. بدائى التفكير .. يفعل ما يريد .. كيفما يريد ..
ووقتها يريد .. لا يردعه عنه عرف .. ولا ذوق .. ولا أصول ..
وكانت مديحة .. تمثل .. أقصى النقيض ..
كانت تمثل الأصولية المطلقة .. والمسئولية الكاملة .. كانت لا تتصرف
إلا فى نطاق ضيق محدود من الأصول والقواعد .. وما يجب وما لا يجب ..
وما جرى به العرف .. وما لم يجر .. وما علمته أمها لها .. وما نهتها عنه ..
وما تعود أن يفعله أبوها .. وما لم تره يفعله ..
كانت تتحرك فى مجال تطبيقى .. لما تعلمته من النظم .. بلا تفكير
ولا ابتكار .. ولا محاولة لاستنباط جديد يطابق ميولها وحياتها .. كل شىء فى
محيطها يجب أن تفعله كما تعود الناس أن يفعلوه ..
الشأى يشرب بقطعتين من السكر .. فلا مجال لشربه بأربع أو بواحدة ..
وأبوها كان يرتدى المعطف قبل الخروج فيجب أن يرتدى زوجها معطفه ..
وأما كانت تلفها قبل النوم .. فيجب ألا تنام ابنتها بدون لف فى البطاطين
وحزم من الوسط .. السجاجيد كانت تفرع بالمنفضة فى بيت أبيها .. فيجب
أن يستمر قرعها بالمنفضة حتى ولو كان بالبيت مائة مكنسة كهربائية .. لأن
المكنسة لا تخرج التراب بالمنفضة .. حسب تعاليم أمها .. وأم زهرة الغسالة
كانت تغسل الملابس طيلة حياتها فى بيت أبيها .. فلا يمكن أن تغنى عنها فى بيتها
غسالة كهربائية .. تلك كانت مديحة .. جدول مرسوم محفوظ لا يمكن أن
تنتهى نتائجه إلا كما حسبت فى نهايته ..
عرفنا إذن فى مراد ومديحة — أقصى النقيضين .. منتهى اللا أصولية ..
ومنتهى الأصولية .. آخر اللامسئولية .. وآخر المسئولية القاعدية التطبيقية
الجامدة ..
ووسط هذين النقيضين .. يقف إبراهيم وليلى .. يمثلان أصولية الإحساس

.. ومسئولية الإدراك والفهم والتطور ..

كان كلاهما ذكيا .. رقيقا .. حساسا ..

لم يكن أحد منهما يكره الأصول .. ولا يجب الخروج عليها والعبث بها .. ولكنه أيضا لم يحاول أن يجعل فيها حدا كحد الموسيقى .. يقطع كل ما يخرج عليه .. كان يعتبر الأصول خطوطا رئيسية تنظم حياة الإنسان لتمنحه أقصى ما يمكن من خير ورخاء وسعادة وسلام .. يتبادلها مع غيره من المخلوقات ولم يكن يعتبر الأصول خطوطا متفرقة متشابكة تتداخل في حياة الإنسان حتى تمنحه وتكتم أنفاسه ..

كان كل منهما يرى في الأديان .. خطوطا عريضة لتنظيم حقوق الإنسان وواجباته ومعاملاته مع الناس .. بحيث تحقق أكبر حصيلة من الخير في هذه الدنيا .. ولكنه لم ير أبدا .. أنها يمكن أن تندأني إلى تعقيدات شكلية .. وتنظيمات هيكلية رهية .. وحركات آلية .. تفقد الإنسان حرته .. وتضيع من الحياة بهجتها .. ومتعتها ..

كان كل منهما يقدر الأصول الأساسية الرئيسية التي بغيرها لا تنظم حياة البشر .. والتي تحدد قيمة الأخلاقية ومثله العليا .. ولكنه كان يترك لنفسه ولحسه ولمنطقه التصرف في الأصول الفرعية المتكاثرة المتشابكة .. بحيث لا يخرج تصرفه عن القواعد العامة الرئيسية وبحيث لا يعيش في صورة مطبوعة من تقاليد سواء .. التي لا يعترف بها حسه ولا يقرها منطقته .. كان إبراهيم مثلا .. يقر قواعد البناء التي بغيرها لا يستقيم بانيان .. ولكنه كان يكره أن يفرض على نفسه طابع غيره .. لجرد التوارث .. وهو يحس بقلق من توارثه وتقليده .. ويدرك أنه لو أجرى بطريقة أخرى .. لكان خيرا وأبقى ..

وعندما كان يقتنع بإحساسه .. ويستريح إليه .. لم يكن شيء يقف في سبيله ..

لم يكن يقيد نفسه بوراة .. أو تقليد .. لقد عودته أمه أن تدخله الفراش بعد الحمام .. ولكنه لم يكذب يحصل على حرته حتى أضحي يلعب التنس ثم يستحم ويخرج دون أن يصاب بالبرد الذي خشيت عليه أمه منه ..

كان يعرف أن الأكل بالشوكة والسكينة شيء واجب .. ولكنه عندما يأكل السمك أو الحمام .. كانت الشوكة والسكينة تفقدانه متعة أكلهما .. فكان يلقيهما جانبا ببساطة ويأكل بأصابعه حتى يستمتع بالأكل .. ولكنه لم يعتمد أن يلقيهما أبدا .. لجرد الخروج على الأصول ..

كان يحب مص الثلج .. وكان أبوه ينهره عنه لأنه مؤذ .. وعندما كبر لم يحاول أن يقلد أباه بنهر نادية عن مصه .. بل مص الثلج معها ..

كان يحب أن يجلس ليرقب السماء أو البحر .. ويسمع الموسيقى .. وكان يحب المزاح واللعب .. ولم يحاول عندما كبر وأضحى مهندسا وضابطا ان يترك قيود مهنته ومركزه وسنه تحرمه من عاداته القديمة التي كانت تمتعه . وبنفس الطابع كانت ليلي ..

كانت تحب البساطة .. وعدم التكلف .. ولكن ليس إلى حد الإباحية .. أو الخروج على الأصول الرئيسية في حياتها ..

كانت تحب المزاح ولكنها تكره النكتة الجارحة .. وكان بها من فرط الحساسية وشدة الذكاء ما يجعلها شديدة الالتقاط لعاني الجمال .. المنظور منه والمسموع ..

لم تكن تقيد نفسها بقيود الأصول والقواعد المتوارثة التي تكبل بها مديحة نفسها .. ولكنها كانت في الوقت نفسه تكره ما يجافي الذوق وينافي الأدب والخلق .. كانت تنظف البيت ولكنها لم تكن تحدد لنفسها وقت نظافته من الثانية إلى العاشرة مثلا .. بحيث لا تستطيع قوة إلا المرض أو الموت أن تمنعها منه .. بل كانت إذا أعجبتها قطعة موسيقية .. تسمح لنفسها بترك الكنس حتى

تسمعها .. وكانت تقبل ببساطة استعمال الكنيسة الكهربائية .. ولا تصر في
عنف على إخراج آخر ذرة من التراب من السجادة .. بواسطة قرعها
بالمفضة ..

كانت تلهو في بعض الأحيان .. كما كانت في طفولتها .. وكانت تقرأ ..
وتفهم .. وتضحك ..
تلك كانت ليلى ..
وذلك كان إبراهيم ..

لم يكن من العسير بعد ذلك .. أن تتطابق مشاعرهما وتتقارب ميولهما ..
وأبدت الأيام القلائل الأولى .. هذا التقارب والتطابق بين كليهما .. بجلاء
ووضوح ..

وبدأ الأمر بجلسة في الصباح على مائدة الإفطار ..
صببت مديحة الشاي في فتجان مضيئتهما .. ثم أمسكت بالسكرية
وتساءلت :

— قطعتين ؟

وابتسمت ليلى في حياء وقالت :

— أكثر ..

— ثلاثا ؟

وبدا على ليلى التردد ثم هزت رأسها موافقة .. ولكن مراد قهقهه قائلاً
لمديحة :

— ضعي القطعة الرابعة ..

ثم وجه السؤال إلى ليلى :

— لماذا لا تقولين إنك تشربينه بأربع قطع .. تصوروا أنها تشرب الشاي
بأربع قطع .. تماماً كالعيال ..

- واستغرق إبراهيم في الضحك قائلا :
- الحمد لله .. لقد وجدت شريكا في المصيبة ..
- وتساءل مراد في دهشة :
- أنت أيضا تشربه بأربع .. لماذا لا تشربون عسلا .. بدل الشاي ..
- وصبت مديحة الشاي لمراد وتساءلت :
- كم قطعة ؟
- ولا قطعة .. سأشربه سادة بالعند فهما .. أنا لا أطيق أن يشرب أحد أمامي شايًا معسلا ..
- وقال إبراهيم :
- وأنا أرجو من ليلى هانم أن تتولى صب الشاي لي منذ الآن حتي تريحني من مناقشة مديحة .. ومحاولتها إقناعي بأن قطعتين كفاية جدا و ..
- وضحكت ليلى قائلة :
- وأنا مستعدة ..
- اتفقنا ..
- وعادت مديحة تسأل مراد :
- أتريد لنا ؟ ..
- لا .. ولكني سأقص عليكم نكتة بمناسبة اللبن مع الشاي ..
- ونظرت إليه ليلى في حذر فأجابها :
- لا تخافي .. إنها ليست قبيحة ..
- غير معقول .. أنت لا تعرف غير النكتة الوقحة ..
- وقحة ؟ .. اعملي لي بنت ناس .. اسمعوا .. في أحد مقاهي باريس في الحرب الماضية .. جلس جندي إنجليزي على المائدة .. وطلب شايًا .. وعندما وضعت له الجرسونة الشاي سأله .. أتريد لنا .. فأجاب بالإيجاب .. فما

كان منها إلا أن أخرجت ثديها واعتصرتة في الفنجان .. ونظر إليه الجندي
مشدوها .. ثم ابتلع ريقه قائلاً .. الحمد لله .. لم أطلب ماء ساخناً ! ..
وضحك إبراهيم .. ولم يبد على وجه مديحة الجامد أثر للنكتة .. لا رضاء
ولا غضباً وكأنها لم تسمعها .. ونظرت ليلي إلى زوجها في غيظ :
— أهذه نكتة تقال على المائدة وقت شرب الشاي .. يا أخي اعقل .. تعلم
.. الملائكة سعد ..

ولم يحب عليها مراد بأكثر من :

— اتلهي ..

ثم بصق بحواره بصفة كبيرة .. ولم يستطع وجه مديحة الجامد أن يخفي
تعايير الاشتزاز التي بعثها منظر البصقة وطريقها ، ونظرت إليه ليلي في ضيق
وحرج .. وهمست :

— أليس معك منديل ؟

— معي ..

— لماذا إذن تبصق على الأرض ؟ ..

— لا تغضبي .. في المرة القادمة سأبصقها على وجهك ..

ثم انطلق يقهقه بمنتهى الانشراح ..

ولم تجد ليلي بدا من الصمت .. فقد كانت تتجنب كل ما يؤدي إلى
الاحتكاك .. والصدام .. وهما في بيت الناس ..

وأحسن إبراهيم بالضيق من أجلها .. ولكنه لم يملك التدخل .. لا سيما وأن
ليلى قد آثرت الصمت ..

تلك كانت أول مظاهر الميول المشتركة .. أربع قطع من السكر في فنجان
الشاي .. ثم تلاها .. (مضناك جفاه مرقده) ..

كان إبراهيم يدندن بها .. وكانت ليلي تنصت في لهفة ..

وفي الساعة الثانية والربع أقبل إبراهيم مندفعاً إلى حجرة الصالون ليدير
الراديو فوجد ليلى تضبط المحطة ..

وقال إبراهيم في أدب :

— أسمحين ؟ إن قصيدة عبد الوهاب الجديدة تذاع الآن ..

وضحكت قائلة :

— مفضلناك ؟..

— أجل ..

— إني أضبط المحطة لأسمعها ..

وجلس الاثنان يسمعانها في استمتاع .. وعلى باب الحجرة وقفت نهي
تنصت وترقب .

وأقبلت مديحة .. ونظرت إلى الراديو في دهشة وقالت في حزم :

— أغلق الراديو .. لكلا توقظ نادية ..

وأشار لها إبراهيم بأصبعه أن تصمت قائلاً :

— مفضلناك ..

— البنت نائمة .. وسيوقظها الراديو ..

— أغلق الباب وراءك .. فلا يتسرب الصوت ..

وغادرت مديحة الغرفة وأغلقت الباب وراءها في شيء من الضيق .

وتكررت بعد ذلك .. مظاهر الميول المشتركة .. والأحاسيس المتطابقة ..

بدأ ذلك في الزهریات التي أخذت ليلى تنسّقها من بعض الزهور البرية

وفي أنواع الطعام التي يجبانها والتي يكرهانها .. وفي الموسيقيين والرسامين

والأدباء الذين يميلان إليهم أو ينفران منهم ..

وأخذ يجمعهما إحساس مشترك بالعطف على نهي .. كان إبراهيم يحاول

جهده بعد أن أحس بمشكلة الفتاة ، كمسألة عامة يعجز عن حلها ، أن يمنحها من عطفه ما يعوضها عن عطف أهلها .. وأن يهيئ لها في بيته ما يخفف عليها ألم الحرمان وعذاب التشريد ..

وأحست ليلي بشعورها المرهف .. بمصائب الفتاة .. بتشريدها وضياعها ولحقتها على الوطن وحنينها إلى الأهل .. وهي بطبيعتها رقيقة حنون .. مليقة بشعور الأمومة .. التي لم تباشره .. لأنها لم تزرق بعد أطفالا .. ولم تنهي لها خشونة زوجها أن تمارس فيه هذا الإحساس .. فوجدت في نهي على كبر سنها .. وعلى ضالة الفارق في العمر بينهما .. منفذا تفرغ فيه أمومتها .. ففاضت عليها حنانا وعظفا ..

وهكذا زادت الميول المشتركة بينهما .. وبمضى الأيام .. تعددت موضوعات الحديث بينهما .. وتكررت جلساتها معها .. جلسات صريحة .. مكشوفة .. وأحاديث عامة .. لا حرج فيها ولا غبار عليها ..

لقد أحس إبراهيم .. بإنسان يفهمه .. إنسان يمكن أن ينصت إليه باهتمام .. ويستمتع إلى مشروعاته .. ويتبع في حماس آماله .. ويؤيد اتجاهاته وآراءه .. أحس إبراهيم أنه يمكن أن يشرح لخلوقة رقيقة جميلة .. أفكاره التي ابتكرها في المشروعات التي صممها .. ويشرح رسم الفيللا التي أقامها في المعادي لوزير التكوين .. ويشرح لها العمارة التي أقامها في مصر الجديدة .. والانقلاب الذي أحدثه في تصميمها من الداخل .. وفي الواجهة ..

لقد وجد إبراهيم من يجاوبه في أفكاره .. ويؤيده في نواياه .. و .. وفي كل حديث بينهما .. كان يكتشف تشابها جديدا .. وإحساسا مشتركا .. حتى طريقة النوم اكتشف أخيرا أنها واحدة .. عندما قال زوجها مراد في مناقشة أنها لا تستطيع أن تنام إلا على جنبها الأيمن .. فأحست هي بالحنين من أن يذكر طريقة نومها .. ولكن إبراهيم ضحك في نفسه .. ثم قال

لها بعد ذلك :

— أتعرفين أننا متشابهان حتى في طريقة النوم ..
ولم يحاول أحد منهما مقاومة ذلك الإحساس الجميل الذى يحس به كل
منهما للآخر .. إذا ما جلس إليه .. أو ناقشه .. أو حتى فكر فيه ..
كان إحساسا .. نقيا .. لا تشوبه شائبة سوء .. كانت عناصره لا تزيد ..
على الإعجاب .. والتقدير والاحترام .. والفهم المتبادل .. والذوق المتشابه ..
والمشاعر المشتركة ..
تلك هى مركباته وعناصره .. ولا شئ أكثر من ذلك .. ولا تفكير فى أبعد
من ذلك ..

مجرد نظر وحديث واستماع ..
ومع كل ذلك .. كان هناك إحساس خفى بعيد متوار فى الأعماق ..
إحساس بالذنب .. وبالخطر ..
ولم يكن أحد من الزوجين يشعر بأن هناك شئاً غير طبعى .. ولا تصرفاً
يبعث على الارتباك أو الضيق ..
مراد فى صحبه وضجيجيه وأحاديثه البذيئة ونكته النابية .. وغناؤه بأعلى
صوته .. وسيره فى البيت والحديقة بالقائلة واللباس .. وحكاياته عن اليهود
والدبابات ..
ومديحة فى صمتها وجودها .. وحسابها للأصول والقواعد .. وما يجب
وما لا يجب ..
ونهى .. ترقب وتلدرك فى صمت .. وتحس وحدها بأنهم يجلسون على
فوهة بركان .. الله يعلم متى يخرج حممه ..

الفصل العاشر

استدعاء على عجل

في خلال الأسبوع الذى نزل فيه مراد ضيفا على إبراهيم .. نقل البكباشي عبد الرحمن وكيل المحافظة من مقره في العريش وأخذت زوجته تستعد للسفر إلى مصر .. وذهبت لزيارة مديحة وتوديعها .. وجلست السيدات الثلاث قبيل المغرب في الصالة حول المدفأة .. وانتحى نهي بنادية جانبا من الصالة بجوار النافذة الزجاجية تداعبها وتحاكبها .. وجلس إبراهيم وعبد الرحمن على مقعدين متقابلين بجوار البار .. واتكأ مراد برفقيه على البار مسندا ذقنه على كفيه .. وقد جلس على أحد المقاعد المرتفعة وأمامه كأس في قاعها بقايا ويسكى ..

ورفع مراد الكأس فأفرغ ما بها في جوفه ومصمص بشفتيه .. ثم هز رأسه قائلا في أسف وهو يقلب رأسه في رفوف البار الخالية :

— يعطى الخلق لى بلا ودان ..

ورد إبراهيم بقوله ضاحكا :

.. يا أخى خد الخلق واشبع به .. اعتبره ملكا لك من الآن ..

— لو أنه كان ملكي لما تركته هكذا خاويا .. لعمرت كل ركن فيه .. هنا

في هذا الركن .. أضع الكونياك .. وفي الركن المقابل أضع الويسكى .. وتحت

الزيبب .. الزحلاوى الأصيل .. و ..

— ولماذا لا تريح نفسك وتفتح بخارة ..؟

— عندما أحال على المعاش سأفعل هذا ..

— بعد عمر طويل إن شاء الله ..
— لا .. بل قريبا .. بمجرد أن نقضى على هؤلاء الخنازير .. ونعيد العرب
إلى أوطانهم في فلسطين ..
وهز عبد الرحمن رأسه وتساءل في شك :
— أتظن أن هذا سيحدث قريبا ؟..
وضرب مراد الكأس على رخام البار وأجاب :
— .. ولم لا ؟..
ونظر عبد الرحمن إلى إبراهيم متسائلا :
— ما رأيك أنت ؟..
وشرد إبراهيم بذهنه فترة ثم أجاب :
— ليس لدى أقل فكرة .. الواقع أني لم أحس بالمشكلة .. ولم أفكر فيها
إلا منذ فترة قصيرة ..
وعاد مراد يقرع الرخامة بكأسه قائلا في سخرية :
— أنتم ضباط غير محارين .. اسألوني أنا .. قسما بالله لو انطلقت بنفيسة
فلن أقف إلا في تل أبيب ..
وتساءل عبد الرحمن في دهشة :
— نفيسة ؟
وقال إبراهيم مفسرا وهو يضحك :
— نفيسة الدبابة .. إن لديه نفيستين .. أمه والدبابة ..
وتساءل عبد الرحمن ضاحكا :
— ولماذا لا تتطلق بنفيسة ؟
— لأنها الآن مقعدة ..
وقال إبراهيم في خبث :

— أيهما ..

وصاح مراد :

— الاثنان .. أمى مشلولة .. ودبابتي بطاريتها فاضية .. تصوروا يا جماعة
ديابة على خط القتال ببطارية فاضية ..
— وكيف ستصل إلى تل أبيب ؟

— زق ..

وانطلق بققه في صخب ..

ونظر إليه إبراهيم وهز رأسه في دهشة وقال :

— مهرج .. لا يمكن أن يجذأبدا ..

— إذن ما رأيك أنت .. ما آخرة هذه الوقفة ؟ ..

— حقيقة لا أدري .. هل تصدق أنى لم آت إلى هنا إلا لأحل أزمتى المالية

.. بمرتب الميدان المضاعف .. وإنى لم ألس حقيقة المأساة التى نحارب من

أجلها .. إلا منذ أن لقيت نهى .. ولست آلامها .. وأحسست بمشاعرها ..

وأرهفت نهى سمعها وأحست من قول إبراهيم بما يشبه الربت العطوف

أو الضم الحنون .

كانت نهى تجددائما فى حنان إبراهيم ملجأ تستقر فيه وتحمى به من مشاعر

الضيق واليأس التى تتملكها .. كانت تحتمى إلى جواره بالثقة والأمل

والطمأنينة . كان يبدو لها كجدار تأوى إليه فى فراغ عريض موحش تعصف

به انزوايع وهبات الريح ..

كانت تحس به إحساس الصغيرات بفارس الأحلام الوهمى الذى يأتى

بالخوارق ويصنع المعجزات .. كان أول صدر حنون يرق لها ويمجنو عليها

فدفعت إليه بكل آمالها وأمانيتها .. وتوهمت فيه القدرة على تحقيقها .. وتخيّلته

على رأس جيش طويل عريض .. يشق لها طريق العودة .. ويعيدها إلى وطنها

.. ودارها .. وأهلها .. وربوتها التي تشرق من ورائها الشمس وكرمها
المتهدل على الدرب ..
أجل .. سيعيدها إلى كل هذا .. و .. ويستقر معها .. في الأرض العزيرة
والوطن الحبيب ..
ولكن كيف يستقر معها .. وله وطن .. وله بيت .. وله ابنة وله زوجة —
وأكثر من هذا — له شيء جديد .. يبدو أنه قد تعلق به أخيرا .. ووجد فيه بغيته
.. وملاذه ..؟

ورفعت عينها فاختلست من ليلي نظرة سريعة ..
إنها رقيقة .. جميلة .. طيبة .. وهي الأخرى تحس بمشاعرها .. وتشاركها
في آلامها ..
ونهى تحبها .. ولكن حبها لها .. تشوبه الحيرة .. والقلق .. لأنها تشاركها
شيئا آخر غير الآلام .. إنها تشاركها في أحاسيسها نحو إبراهيم .. وأحاسيسه
نحوها ..

إنها لا تدري بالضبط نوع تلك الأحاسيس .. ولا مداها .. ولكنها واثقة
من وجودها .. واثقة من تعمقها وتشعبها .. تعمقا بطيئا .. وتشعبا غير
محسوس .. ولكنه كائن .. ومستمر كامتداد الجذور في باطن الأرض ..
وفي بعض الأحيان يملكها .. إحساس لليلي لا تفره .. إحساس بالضيق
وربما الغيرة .. عندما يغمرها اليأس وتملكها الوحشة .. في جلستها الصامتة
وراء النافذة .. وهي ترقب الاثنين أمام النافذة .. وقد أنهماكا في الحديث ..
وبدا كأن كلا منهما لا يحس إلا بالآخر .. وكأن الدار قد حلت إلا منهما ..
لا زوج لليلي ولا زوجة لإبراهيم .. ولا ابنة .. ولا نهي ..
ولكنها سرعان ما تطرد ذلك الإحساس .. فهي لا ترى لنفسها حقاً فيه ..
بل لا تجد لنفسها حقاً في أى شيء .. فكل ما أصابته من عطفه وحنانه إنما هو

منحة لا يجب أن تبنى عليها حقوقا .. بل عليها أن تقبلها شاكرا .. فإذا دفعتها الأوهام إلى أن تجعل منه منقذا لها ومحققا لأمانها .. فلا يجب أن تغرب بها هذه الأوهام بحيث تضع لنفسها حقوقا عليه .. وتبنى على تلك الحقوق أوضاعا تمنحها حق الغيرة .. والضيق .. وغير ذلك مما يشعر به كل صاحب حق على آخر ..

ثم هو .. بعد كل هذا .. زوج .. ولا حق لأحد عليه .. غير زوجته .. وإذا كان ثمة مشاعر خفية تتعمق جذورها وتتشعب بينه وبين ليلي .. فتلك المشاعر الخطيئة .. وهي لا تحب أن تجعل من الخطيئة المفردة خطيئة مزدوجة .. لا .. لا .. يجب ألا تتعدى مشاعرها .. الأوهام .. والأحلام .. ألا يكفى أنها تزيل عنها اليأس .. وتفتح أمامها باب الأمل وتمهد طريق العودة .. وليلى نفسها .. صاحبة فضل عليها .. وجحود ونكران .. أن تضع نفسها ندًا لها .. فتضيق بها .. وتغار منها ..

وإبراهيم .. في نظرها .. أجل .. من أن يكون .. مجرد رجل يغار عليه .. إنه موئل .. وملجأ .. ومنقذ .. إنه قوة ضخمة .. من الإيمان .. والحب .. وكل المشاعر الجميلة ..

إن العابد لا يغار في حب إلهه .. من بقية العابدين .. وبإحساسها لإبراهيم شبه كبير من إحساس العابد لإلهه .. ثقة وإيمان .. وآمال .. إن آمالها فيه لا حد لها ..

لا تدري له ؟ أمن فرط اليأس الذى أصابها بالضيق والتشرد والقلق ؟؟ كان لا بد لآمالها الحائرة .. من أن تستقر على محقق لها .. ولو بطريق التمنى أو الوهم .. وكان إبراهيم أول من فتح لها صدره .. ومنحها حبه ورعايته .. أم تراه حقيقة الشخص القدير على تحقيقها الجدير بثقتها .. ولكن .. كيف ..

إنها تنوهمه على رأس جيش كبير ..
وهو كما قال مراد في مزاحه .. ضابط غير محارب ..
إنه مهندس .. إنه لا يتحدث عن الدبابات والمدافع .. ولا يبدى حماسا
كبيرا لها .. كل ما يتحدث عنه التصميمات .. والفيلات .. والعمارات ..
لماذا إذن لم تضع آمالها .. في مراد .. المحارب بطبعه .. الذى لا يكف عن
الحديث عن الدبابات وعن المدافع .. وعن سحق إسرائيل ..
ومرة أخرى رفعت عينها واختلست نظرة من مراد .. وقد جلس على
المقعد العالى يديق البار بقاعدة الكأس دقائق منعمة منتظمة ..
و لم تحس بحماس كثير له ..
ليس هو الإنسان الذى يمكن أن تثق فيه .. وتكل إليه بآمالها وأمانها .. إنه
قد يحارب .. ولكنه لا يحس .. ولا يفهم ..
إنه حتى الآن لم يحس بوجودها كإنسان .. وهى إحدى نتائج الظلم الذى
يحارب لرفعه .. ورمز للحق الضائع الذى يريد أن يضعه فى نصابه ..
وفى المرات القلائل التى أحس بوجودها .. كان إحساسه منفرا بغيضا ..
فقد نظر إليه نظرات فاحصة ..
لقد فحصها كأنثى .. ثم ارتد عنها ..
رده منها .. جسد أعجف .. وصدر ضامر ..
لا تعفف .. ولا ضمير ..
بل لأنها .. ببساطة .. لم تعجبه كامرأة .. والنساء كلهن فى نظره مجرد
أجساد .. إما مثيرة فيقبل عليها .. أو غير ناضجة .. فيعرض عنها ..
ومع ذلك فهو لا يقبل على زوجته ..
لماذا .. إنها لا تدرى ..
ولكنه ليس وحده .. الذى لا يقبل على زوجته ..

إن إبراهيم أيضا يفعل هذا ..
إلهها .. ومنقذها .. وفارس أحلامها .. وأبوها أيضا لم يكن يقبل على
أمها ..

لعل تلك هى عادة الأزواج .. إنها من أجل ذلك لن تتزوج .. أجل
سترفض أى إنسان يتقدم لزواجها ؟ ..
أى إنسان ؟ .. حتى إبراهيم ؟ ..
ولكنه متزوج ..

لنفرض أنه غير متزوج ؟
فى هذه الحالة .. سيحتاج الأمر إلى تفكير .. إن إبراهيم .. مخلوق مثالى ..
وهو إذا أعرض عن زوجته .. فلأن زوجته .. لا تحاول فهمه وإرضاءه .. كما
تفعل ليلي .. وهى إن تزوجه .. فستفعل كما تفعل ليلي .. لا كما فعلت مديحة ..
أجل .. ستشرب مثله الشاى بأربع قطع سكر .. وستنام على جنبها الأيمن
.. وستنصت إلى كل أحاديثه عن الفيلات والعمارات .. وستستمع معه إلى
« مضناك جفاه مرقد » ..

أجل .. أجل .. إنها تستطيع أن تحتفظ به جيدا .. ولن تتركه يعرض عنها
.. ويقبل على أخرى ..

أجل ستكون كليلى .. وليست كمديحة ..
وحولت بصرها إلى المدفأة حيث جلست السيدات الثلاث .. وأخذت
تقارن بين مديحة وليلى ..

ليلى لطيفة .. ابتسامتها لذينة .. ووجهها رقيق جميل .. وطريقتها فى رفع
شعرها وعقصه على شكل ذيل الحصان .. تبدى جمال عنقها واستدارة
وجهها ..

لو كانت رجلا .. لأحببت ليلي ..

ليس بها من عيب في مظهرها .. إلا أنها تشاركها في مشاعر إبراهيم ..
أما مديحة .. فبتقاطيعها صرامة .. ويخلقها حدة .. وهي لا تحب منها تلك
الرقعة المتناهية .. وتكره أيضا طولها المفرط .. وهذا الانحناء في ظهرها ..
ومرة أخرى .. أنصتت نهي .. فقد سمعت اسمها يتردد مرة أخرى .. كان
المتحدث عنها هذه المرة .. هي فريدة زوجة المحافظ ..

قالت فريدة ردا على سؤال لمديحة :

— سنسافر في الغد .. لقد كان مفروضا أن نسافر في الأسبوع الماضي
ولكننا تأخرنا حتى يأتي وكيل المحافظ الجديد .. إلى أعرف زوجته .. سيدة
لطيفة .. أعتقد أنها ستعجبك .. ولو أنها بلدي .. بعض الشيء ..

— تعجبنى أو لا تعجبنى .. لا أظننى سأعاشرها طويلا ..

وصممت فريدة برهة ثم تساءلت موجهة القول لزوجها :

— عبد الرحمن .. ماذا سنفعل في نهي ..

وأجاب عبد الرحمن مرددا قولها دون أن يحير جوابا :

— ماذا سنفعل في نهي ؟ .. كما تريد ..

— هل سنأخذها معنا إلى مصر ؟ ..

— إذا كنت تريد .. سلبها ؟

— ولكنى لا أريد أن أضياع مديحة بأخذها .. فإذا كنا ..

وقاطعتها مديحة قائلة :

— أبدا .. أبدا .. لا تحملى همى .. أنا نفسى لا أعتقد أنى سأمكث بعدك

كثيرا .. فلا بد أن أعود لأجل مدرسة نادية ..

— إذن تمكث معك حتى تعودى ثم تحضرها معك ...

— أبدا .. أبدا .. لا يمكنك أن ..

وتدخل إبراهيم قائلا :

- يا جماعة .. تسافر أو لا تسافر .. هذا شأنها .. وحدها .. أسألوها ..
ثم صاح بنهى :
— نهى .. ما رأيك ؟
وأجابت نادبة نيابة عنها :
— ستبقى معنا .. لقد قالت إنها لن تسافر .. لأنها تريد العودة إلى بيتها ..
وصاح مراد متهمكا :
— تعود إلى بيتها ؟ .. يخرب بيتها .. بدرى على العودة .. ما زال أماننا وقت
طويل ..
— متى ستعود إذن ؟
— عندما تملأ بطاريات الدبابات .. وتستطيع نفيسة السير .. سأخذها
معى ..
وصاحت نادبة متسائلة :
— وعندما أرسل أنا لها مدفعا من القاهرة ؟ ..
— بل أرسلى لنا .. قنابل .. بشرط أن تنفجر من الأمام لا من الخلف ..
وتساءل عبد الرحمن ضاحكا :
— هل هناك قنابل تنفجر من الخلف ؟ ..
وأجاب مراد وهو يتساءل في سخرية :
— أتضحك ؟ .. إن نصف قنابلنا تنفجر من الخلف .. لقد أصبحنا نخاف
من مدافعنا أكثر مما نخاف من مدافع العدو ..
وتدخل إبراهيم قائلا :
— لا تصدقه .. إنه أكبر مشنعاقي .. لقد شنع على الدبابات .. والآن جاء
دور المدفعية .. دعك منه .. لنته من أمر نهى أولا .. ما رأيك يا نهى .. أتحيين
السفر إلى القاهرة ؟ ..

وعادت نادبة تصيح :

— قلت لك لا ..

— اسكتي أنت يا نادبة .. دعها تتكلم ..

وأجابت نهى بعد أن منحت فرصة للرد :

— إني أفضل البقاء ..

وقالت فريدة :

— ولكن مديحة هانم لن تمكث هنا كثيرا .. وقد تعود إلى القاهرة بعد بضعة

أسابيع ..

— إذن أعود إلى المعسكر ..

وتدخل إبراهيم قائلا :

— دعوها لنا .. لا تحملوا همها ..

وبدا المديحة أن تعترض ..

ولكن إبراهيم أسكتها بقوله :

— أنا سأتكفل بها .. وسأريحها .. سأعمل كل الترتيبات اللازمة ..

وقال عبد الرحمن :

— لن يكون هناك أية ترتيبات .. سأجرى أنا الإلزام .. وسأدعها لك ..

وصاحت نادبة وهي تعانق نهى :

— ستبقى معنا .. ولن نعود .. إلا بعد أن تعودى أنت وسأطلب من نينا

في مصر أن ترسل لنا المدفع .. ومعه قنبلة تفرقع من الأمام .. أليس كذلك

يا أنكل مراد ؟

— هل عند نينا مدفع وقنبلة ؟

— تشتري ..

— هل لها قريب في القصر ..

— ١٠٠ —

- القصر العيني ؟
— لا القصر الملكي ..
وتساءل إبراهيم في دهشة :
— القصر الملكي ؟
وأجاب مراد :
— أجل .. إذا كانت ستشترى المدفع والقنابل بواسطة القصر فعلينا
العرض ..
وصاحت نادية :
— بل ستشتريه من ألف صنف ..
— إذن فلن ينفجر من الخلف ..
وتساءل إبراهيم :
— ما هذا التهريج ..
— ليس تهريجا .. بل حقيقة ..
— أنت مجنون .. وستودي نفسك في داهية ..
— وأنت أاهل .. وسيودون هم بك في داهيتين .. داهية في الميدان ..
وداهية في داخل البلد ..
ودق جرس التليفون فجأة .. ومد مراد يده فرفع السماعة .. قائلا :
— ألو ..
— اليوزباشي مراد موجود ..
— أجل .. أنا مراد ..
— تفضل كلم رفع ..
وتحدث صوت آخر يتساءل في عجلة :
— مراد ..

— من ؟ ..

— أنا عبد المنعم .. جناب البكباشى يريدك حالا .. عندنا عمليات

سريعة ..

— أليس عندكم ضباط غيرى ؟ ..

— ليس هذا وقت المناقشة .. احضر بسرعة ..

— وكيف نبدأ .. العمليات .. إذا كانت الدبابات بلا بطاريات ..

— البطاريات حضرتت وركبت الآن فى الدبابات ..

— ولماذا هذه العجلة .. العمليات حيكث الليلة ؟ ..

— يا مراد لا تكن سخيافا .. احضر أرجوك .. وإذا كان لك اعتراض ..

قله لجناب البكباشى ..

— يخرب بيتك لبيت جناب البكباشى .. سأحضر حالا ..

ووضع السماعة فى قرف قائل لمن حوله :

— عمليات .. عن إذنكم .. سأذهب لآخذ لى يدا ..

وقام ليرتدى ملابسه وبعد خمس دقائق كانت العربة تتطلق به إلى رفع ..

الفصل الحادى عشر

عملية انتحارية

أقبل مراد على خيمة البكباشى منصور قائد الآلاى والليل قد أدلم .. وبرودته قد أخذت تنفذ إلى العظام .. وقد التف مراد بكوفية وضم المعطف الكاكى الخشن حول جسده الربعة .. ووقف أمامه وقد رفع يده بالتحية ووراءه اليوزباشى عبد المنعم أركان حرب الآلاى ..

وبدا البكباشى منصور مقطب الجبين شارد النظرات ، وقد جلس على مقعد خشبى وأمامه منضدة من نوع ال٦ قدم عبارة عن حاملين حديديين ، وقرص خشبى منفصل وقد تناثرت أمامه بضعة أوراق منها خريطة جنوب فلسطين ، وخليط من يوميات الميدان وأوامر العمليات وصندوق بسكوت وعلبة طباق وبجوارها غليون ضخيم ، وعلى عمود الخيمة علق فانوس هاريكان وفى ركن من أركانها وضع جهاز لاسلكى وبجواره راديو صغير .. ورد قائد الآلاى التحية فى صمت وأمسك باليب وأخذ يبحث به فى قلقى ..

وقال مراد وهو يحدق فى قائده لعله يستشف ما برأسه :

— أفندم ؟

ورفع منصور رأسه وسأله بغتة :

— كم دبابة عندك جاهزة للتحرك ؟

وأجاب مراد يبرود :

— ولا واحدة ..

- كيف ؟
- لأن البطاريات جميعها فى الصيانة ..
- دعك من البطاريات ..
- كيف ؟ .. هل نجر الدبابات ؟ ..
- البطاريات قد سلمتها لكم الصيانة اليوم ..
- لم أستلم شيئا ..
- وتدخل اليوزياشى عبد المنعم بقوله :
- لقد تسلمها قواد السرايا بعد الظهر ، وقد ركبت الآن فى الدبابات ..
- ورد مراد :
- إذن ستحرك جميع الدبابات .. عدا اثنتين من الميدوز القديمة ..
- وقال منصور :
- الميدوز لا تهم .. هل هناك شىء عاطل من اللوكاس ؟
- لا أظن ..
- المسألة ليست ظنا .. أريد أن أعرف بالضبط ..
- إذن ستحرك جميع الدبابات .. فقد كانت هناك دبابة فى سرية زكى أفندى بها بعض العطل .. وإن كنت أعتقد أنها لا بد أن تكون قد أصلحت ..
- ألا تستطيع أن تجهز ثلاث ترويات ؟ ..
- طبعاً أستطيع ..
- انتهينا .. جر هذا المقعد واجلس .. سأشرح لك ما أريده منك ..
- ثم وجه القول إلى عبد المنعم ..
- اجلس يا عبد المنعم ..
- هل أحضر أوامر العمليات ؟ ..
- اجلس يا أخى .. ليس هناك وقت .. اسمع يا مراد ..

— أفندم ..

واستعدل القائد الخريطة المنشورة أمامه وأمسك بقلم على المنضدة ووضع
سنه على نقطة معينة قائلا :

— أترى هذه التبة ؟ ..

ومد مراد عنقه قليلا ليرى النقطة التي وضع عليها قائده قلمه .. وعندما
تحقق منها أجاب متسائلا :

— التبة ٨٦ .. ؟

— أجل ..

— لقد احتلها اليهود اليوم ..

وفغر مراد فاه وصاح في جزع :

— نهار أبيهم أسود ..

وأطلق القائد ضحكة ساخرة مريرة من شفثيه قائلا :

— نهار أيننا نحن .. هو الأسود .. إن لم نطردهم حالا .

وعقب اليوزباشى عبد المنعم على قوله :

— لقد قطعوا الطريق إلى غزة .. وعزلوا كل قواتنا الموجودة في الشمال ..

وقال مراد وقد بدا عليه الدهول :

— وأين كانت القوة التي تحتل التبة ؟

وأجاب القائد وهو ما زال يضع قلمه على الخريطة :

— لقد اضطروها إلى الانسحاب بعد أن كادت تفنى .. لقد هاجمها

بقوات متفوقة جدا .. تبلغ حوالى مجموعة لواء ..

وأطرق مراد برأسه برهة ثم تساءل :

— والمطلوب ؟!

— أن نستردها ..

- كيف ..
- بآلى الدبابات ..
- فقط ؟
- لقد صدرت الأوامر إلينا من قيادة الفرقة باستردادها حالا وستعاوننا المدفعية بضرب مواقع اليهود ..
- والمشاة ؟
- لا علم لى بها ..
- ولكن المفروض أن تقوم المشاة بالهجوم بمعاونتنا ؟ .. هذا على الأقل هو ما أذكره من التكتيك الذى تعلمته ..
- سنقوم نحن وحدنا باسترداد الموقع ..
- وعندما نسترده من الذى يحتله ويغززه ويدافع عنه ؟ ..
- نحن أيضا ..
- هذا ليس من واجب الدبابات ..
- وصرخ القائد فى وجهه فى ضيق :
- لا تقل هذه الكلمة أبدا .. لقد أصبحت سبة فى وجوهنا .. لقد أصبح الجميع يتندرون بها .. ويعتبرونها فكاهة الميدان .. لقد باتوا يقولون عنا .. إنهم كلما يكلفوننا بعمليات قلنا إن هذا ليس من واجب الفرسان ..
- لأنه يكون فعلا ليس من واجب الفرسان ؟
- لقد ضاقوا بنا ذرعا ..
- لأنهم لا يعرفون جميعا عملنا .. إنهم يريدون أن ينشرونا فى المواقع الدفاعية .. إن القيادة لا تعرف .. واجبات القوات المدرعة .. فى كتاب تعليم آلى المدرع ..
- وقاطعه القائد بحدة :

— ليس هذا وقت تطبيق تعليمات الكتب .. إننا هنا لتنفيذ أوامر لا لتجرب تعليمات .. يجب أن نفعل كل ما يكلفوننا به .. سواء كان في طبيعة عملنا أم لم يكن .. وسواء نص عليه كتاب التكتيك أم لم ينص .. مفهوم ؟
— مفهوم يا فندم .. ما هي أوامركم ؟ ..

وسحب القائد ورقة بيضاء ورسم عليها دائرة وجر أمامها خطا وقال :
— اسمع .. هذه هي التبة ٨٦ وهذا هو الطريق ..

ثم خط بضعة خطوط داخل الدائرة وحولها .. واستطرد يقول :
— وهذه هي المواقع التي كنا نحتلها في التبة .. والتي أعتقد أن اليهود لا بد أن يكونوا قد احتلوها .. لأنها جميعا على الطريق .. ولأنهم يستطيعون منها أن يمنعوا أى قوة من التقدم شمالا أو جنوبا .. مفهوم ؟ ..
— مفهوم يا فندم ..

— ليس أمامنا وقت لعمل استكشاف .. لأن المفروض أن نبدأ عملنا في طردهم .. عند أول ضوء .. بحيث تكون التبة في أيدينا قبل الظهر .
وقلب مراد شفته السفلى ونظر إليه القائد في غيظ وصاح به ناهرا :
— مالك ؟

— لا شيء ..

وأعاد القائد قوله في إصرار :

— ستكون التبة في أيدينا قبيل الظهر ..

— سنحاول ..

— وسننجح ..

— التساهيل على الله ..

— وعلينا .. وعلى عزمنا ..

— العزم موجود ..

— والقدرة ؟

— لا يقدر عليها إلا الله .

— لا أريد منك هذا التواكل ..

— أنا لا أستطيع أن أفعل شيئا إلا بالانكال على الله ..

— توكل على من تشاء .. المهم أن تكون التبة في أيدينا قبل الظهر ..

— ما هو المطلوب منى بالضبط ؟ ..

— سأشرح لك الخطة العامة .. ثم أعطيك أوامر كتيبتك .. سنقوم

بالعملية بكتيبتين .. ستقدم كتيبة على الطريق .. لتثيت العدو .. ولتحويل
أنظاره ..

— بهجوم مخادع ؟ ..

— بل هجوم حقيقى .. مباشر على مواقع العدو ..

— هجوم حقيقى من الطريق ؟

— أجل ..

— والكتيبة الثانية ..

— ستقوم بعمل لفة من الجنوب إلى الشرق حول مواقع العدو لتهدد

مؤخرته .. وتضطره إلى الانسحاب .. مفهوم ..

— مفهوم يا فندم ..

— وستدق المدفعية مواقع العدو طول الليل ..

— وما هى أوامرى أنا بالتحديد ..

— ستقوم أنت بالهجوم بثلاث ترويات على محور الطريق ..

— هجوم مباشر على محور الطريق ؟ ..

— أجل ..

- هذا انتحار .. وليس هجوما ..
- ليكن .. وسيقوم الصاغ مرسى بعمل الالتفاف بكتيسته ..
- حلال عليه ..
- وعليك أن تبدأ الهجوم .. عند أول خيط من خيوط الفجر .. أعنى بمجرد أن تستطيع أن تبصر مواقع العدو .. بمجرد أن يلوح الضوء ..
- ولماذا الانتظار حتى يلوح الضوء .. لماذا لا نتحسس مواقعه ..
- أتمزح ..
- لا يا فندم .. إني أحب التحسيس .. ولو على مواقع العدو ..
- وضحك منصور لأول مرة .. وكان يعرف أن مراد مهرج مهذار ويعرف أيضا مدى استهتاره .. ولكنه كان يعرف أيضا أنه رغم مناكفاته ومشاغباته .. أقدر ضباطه على أعمال الجرأة .. والاندفاع .. فلم يجد خيرا منه يوكل إليه العملية التي وصفها مراد بأنها عملية انتحارية ..
- ونظر منصور إلى ساعته وقال وقد أعاد إلى وجهه سيماء الجد :
- الساعة التاسعة الآن .. أريدك أن تتحرك في أقرب وقت تستطيع التحرك فيه ..
- إن هناك أشياء كثيرة لا بد أن نعلها .. نريد أن نعبى البنزين والذخائر .. وأريد أن أفتش على الشدة ..
- وقال اليوزباشى عبد المنعم :
- لقد أعطينا الكتيبة إنذارا بالتحرك .. وقد قلت لليوزباشى فريد قائد ثانى الكتيبة جميع الأوامر الإدارية اللازمة .. وضابط الإمداد والتموين وضابط الصيانة وورشة الآلاى تحت أمرك .. وأعتقد أنك ستجد الكتيبة جاهزة بأجمعها ..

ونفض مراد قائلا :

— أرجو أن تكون البطاريات قد شحنت جيدا .. وألا تكون الصيانة قد أعادتها كما هي ..

وضرب كعبيه ببعضهما ثم رفع يده بالتحية قائلا للقائد :

— عن إذنك يا فندم .. سأذهب لأعد الكتيبة للتحرك .. وأعطى قواد التروبات أوامري ..

— أعطنا خبرا .. عند التحرك .. وأرجو أن يكون هذا قبل ساعة ..

— إن شاء الله ..

وقبل أن يستدير للانصراف .. مد يده فأمسك بعلبة البسكويت الموجودة

على المنضدة قائلا :

— أسمح بهذه يا فندم .. حتى لا أموت .. جائعا ..

— خذها .. وخذ هذه أيضا ..

ومد يده إلى جيب معطفه المعلق وأخرج علبة سجائر قائلا :

— هذا تموين الأسبوع ..

— وحضرتك ..

— كفاية البيت ..

— متشكر يا فندم .. السلام عليكم ..

— عليكم السلام .. لا تتركاً في التحرك ..

— حاضر يا فندم ..

وقال القائد لليوزباشي عبد المنعم :

— أعد الرئاسة للتحرك ..

وأجاب عبد المنعم :

— جاهزة يا فندم ..
وخرج عبد المنعم فى أعقاب مراد .. والتفت إليه مراد متسائلا .. وهو
يدس علبة السجائر فى جيبه ويفتح علبة البسكويت ليأكل منها :
— ستتحرك الرئاسة معنا ..
— ستتحرك مع كتيبة مرسى ..
— يا رعاديد .. لماذا لا تتحركون معنا ..
— معك أو معهم .. كله شقاء ..
— لا .. ليس كله شقاء .. بعضه شقاء .. وبعضه .. انتحار .. على أية حال
.. أنا لا أحب صحبة الرياضات .. لأنى أكره أن يتدخل أحد فى شؤوفى ..
سأريكم كيف يكون الهجوم ..
— أنت أسد ..
— وأنت جحش ..
— تأدب .. إنك على أبواب موت .. دعنا نذكرك بالخير .. ونقول .. الله
يرحمه .. كان مهذبا ..
— بل ستقولون .. الله يرحمه .. كان كذابا .. إذا قلت إنك أى شىء .. غير
الجحش ..
— الله يسامحك ..
— لا أظنه سيسامحنى .. إن بيننا حسابا طويلا .. من الخبص والهاس
ومفاسد أخرى ..
— إن رحمته واسعة .. إنك رغم هذا ابن حلال .. وأعتقد أنه سيرحمك ..
— يرحمنى ؟ مالك قلبتها غما .. لماذا تريده أن يرحمنى .. إنى سأعود سالما
من عملياتكم الانتحارية .. إن عمر الشقى بقى ..

— لم أقصد هذا .. إن رحمة الله مطلوبة لنا جميعا .. أحياء وأموات ..
— أجل .. قل هذا ..
وقبل أن يتخذ مراد مقعده في عربته .. التفت إلى عبد المنعم وقال في
اهتمام :
— اسمع .. أمتأكد أنت أن البطاريات شحنت تماما ؟..
— طبعاً .. لقد اختبرها ضابط الصيانة ..
— .. تصور لو فضيت البطاريات في وسط المعركة .. ووقفنا أمام العدو
.. كالمشلولين لا نستطيع حراكاً ..
— يا أخى دع عنك الوسوس .. اتركها على الله .. ألم تقل للقائد إنك
لا تتكل إلا على الله ..
— أجل .. إني على استعداد لأن أتكل على الله .. ولكن ليس على ضابط
الصيانة .. السلام عليكم ..
— اطمئن لا تخش شيئاً ..
— وإذا خشيت .. ماذا يهم ؟.. أهى موتة أم اتنين .. من لم يميت بالسيف
.. يا أستاذ .. مات بلدعة أو قرصة .. أو سكرة .. ومن لم يميت بهذا كله ..
مات فطيساً .. دعها لله .. السلام عليكم ..
ورفع يده بالتحية فرد عبد المنعم التحية .. ووقف يرقبه وهو ينطلق بعربته
ويختفى في الظلمات ..
وأطلق عبد المنعم تنهيدة وتمتم لنفسه قائلاً :
— كان الله في عونى .. وفى عوننا جميعاً .. أهذه عملية تخاض بالدبابات
اللو كاس ..
وطافت بذهنه صورة سريعة .. للعمليات الدائرة .. وللأسلحة وللذخائر

.. وأحس كأنه يفرق في مستنقع .. من الطين ..

لشد ما خاب ظنه .. وخيبت آماله ..

لقد توهم أنه سيطبق ما تعلمه .. من دراسات عن الحرب .. وسيصدر
أوامر عمليات .. وسيضع جداول سير .. سينظم عمليات التموين كما تعلمها
في كلية أركان حرب ..

ولكنه عندما جابه الحقيقة .. أحس بكل هذا يتبدد .. ووجد نفسه ضالا
في يبداء من الارتجال بلا نظم ولا قواعد .. لماذا إذن أجهدوا أنفسهم في
تعليمهم .. إذا كانت المسألة تنتهي في الواقع إلى مثل هذه الفوضى ..
على أية حال .. لا بد مما ليس منه بد .. وكما قال قائده .. إنهم هنا لينفذوا
الأوامر . لا ليطبقوا تعليمات الكتب .. وإذا كانت الأوامر هي الانتحار ..
فلا بد من الانتحار ..

الفصل الثاني عشر

فراش خال

انطلقت العربية بمراد في الظلمات إلى مواقع كتيبة .. وأخذت تمر بذهنه
خواطر سريعة مختلطة متشابكة ..

هذه المرة .. سيقوم بعمل ضخم ..

هو وحده الذى سيطرد اليهود ..

سيقابلهم وجها لوجه .. فى عمليات لا شك ستكون عنيفة .. عملية قتال
حقيقى .. لا مطاردة .. ولا مناوشة ..

ولكن كيف سيقوم بالهجوم ..

ليست لديه خطة واضحة فى ذهنه .. لأنه لا يعرف تفاصيل تفيده عن
عدوه .. لا مواقعه .. ولا قوته .. كل ما يعرفه أنه احتل التبة ٨٦ وأنه قطع
الطريق إلى غزة .. وأن عليه أن يطرده ..

وأخذ يستعيد فى ذهنه صور أوامر العمليات التى درسها .. ولم يجد لديه
من المعلومات ما يستطيع أن يملئ به أبسط أمر عمليات درسه .. ولكن
ما الداعى لأمر العمليات .. إذا كان هو نفسه لم يتلق من قائد الآلاى أكثر من
هذه الأوامر العائمة .. بأن يتقدم على الطريق ويهجم على العدو ليطرده من
مواقعه .. وأن المدفعية ستدق المواقع طول الليل لتمهد للهجوم .. والكتيبة
الثانية ستلف حول مواقع العدو ..

ما شاء الله .. هذه هى كل أوامر عملياته ..

وليس عليه إلا أن ينقلها بدوره إلى ضباطه ..

على أية حال .. ليس المهم أوامر عمليات .. ولا تقدير الموقف ولا غير هذا
مما تعلم .. المهم .. أن يأخذ دباباته .. ويتقدم في سرعة ويدق اليهود في عنف
أيضا وجدهم ..

أجل .. سيمزقهم إربا ..
وتملكته حمية القتال .. واستحث السائق ليسرع إلى مواقع الكتيبة ..
ثم عاد يفكر مرة أخرى ..
إن لديه قاذفات اللهب .. وسيستعملها لأول مرة .. ويصلي بها اليهود نارا
حامية ..

سيطرد اليهود من مواقعهم .. ويتبعهم حتى يفنيهم .. سيمزقهم بأسنانه ..
هو وضباطه .. وعساكره .. إن لديه بضعة أولاد « حمشين » يأكلون
الزلط ..

سيأخذ التبة ٨٦ .. ولن يقف .. فيها ..
أجل لن يحتل مواقع .. ويقف للدفاع ..
ليس هذا واجب الدبابات .. رغم كل ما قاله .. قائده ..
إنه سيستمر في التقدم .. وليحتل المشاة التبة ٨٦ ويدافعوا عنها ما شاء الله
لهم الدفاع ..

إن التبة ٨٦ لا تمه في قليل ولا كثير .. إنه سيتقدم بدبابته .. ولن توقفه
قوة ولا أوامر .. حتى يصل إلى تل أبيب .. على ظهر نفيسة كما كان يعلم
دائما ..

وانتقل من نفيسة الدبابة .. إلى نفيسة الراقدة في شبرا .. إلى أمه المشلوله
.. الطيبة .. التي تغرقه بدعواتها ..

لا شك أنها الآن تفكر فيه .. وتدعوه .. وقد تكون عبراتها تتدحرج على
خديها الغائرين كما تعود أن يراها دائما ..

ستسمع غداً أخباره .. عندما تذيع الإذاعة أن اليوزباشى مراد قد احتل تل
أبيب .. وشنق بن جوريون وعلقه من أذنيه فوق أعلى قمم الهاكارمل ..
وتذكر زيارته للهاكارمل .. ولخيفا .. قبل خروج الإنجليز من فلسطين
وقبل إعلان دولة إسرائيل .. وتذكر اليهوديات راقدات على شاطئ تل أبيب
.. الشاطئ الرملى الضيق القائم بجوار الجدار العالى الذى يفصله عن
الطريق ..

وانتقل من اليهوديات الراقدات على شاطئ تل أبيب إلى عشيقته الراقدة
فى الإسماعيلية ..

ترى ماذا تفعل ريتا الآن .. لعلها تستحم كعادتها .. فهى تقضى نصف
حياتها فى البانيو ..

وأحس بشوق لها .. وبدأ يستعيد لنفسه ساعاته معها .. عندما وقفت به
العربة .. أمام الكشك الصاج الذى يعتبر المأوى الوحيد فى الموقع الذى ترابط
فيه كتيته ..

وقفز من العربة وأقبل عليه جندى مراسلة يحميه ..

ورد مراد تحيته وصاح فى عجلة ..

— أين حضرات الضباط ؟

— ذهبوا إلى مواقعهم ..

ودلف مراد إلى الكوخ الصاج .. وهو مستمر فى تساؤله :

— وأين عبد الرحيم أفندى ..؟

— كان هنا منذ لحظة ..

— ابحث عنه وقل له أن يجمع الضباط ويأتى حالا ..

— حاضر يا فندم ..

— أحضر الباشجاويش بقرى أيضا ..

— حاضر يا فندم ..

ووقع بصر مراد على زجاجة ويسكى قد وضعت على منضدة فى ركن الكشك .. وتبين له أنها نقصت كثيرا فصاح يستدعى العسكرى :

— من شرب من هذه الزجاجة ؟ ..

— لست أعلم يا فندم ..

— اقترب ..

واقترب العسكرى واستمر مراد فى أوامره :

— افتح فمك ..

وفتح العسكرى فمه .. فمد مراد أنفه يشمه وعندما لم يجد به رائحة ويسكى عاد يتسائل فى غضب :

— من إذن الذى شرب من الزجاجة ؟

— والله لا أعرف يا فندم ..

— لا بد أن يكون عسران أفندى .. اسمع .. هل مكث عسران أفندى فى الكشك وحده مدة طويلة ؟ ..

— لا أدرى ..

— ما الذى تدريه ؟ .. ماذا تفعل هنا .. إذا كنت لا تحرس ممتلكات قائد الكتيبة .. سبعة أيام حجز قشلاق .. مع قطع أربعة أخماس الماهية .. وفى المرة القادمة سأخصم منك ثمن زجاجة الويسكى .. وعندما أعود سأجرى تحقيقا وسأخرب ببيتكم جميعا .. اذهب وناد عبد الرحيم أفندى بسرعة ..

وانطلق العسكرى يعدو فى الظلمات .. وسار مراد داخل الكوخ وأمسك بزجاجة الويسكى يفحصها أسفا ويتمم لنفسه فى غضب :

— ضاع نصفها .. ضباط غجر وكتيبة بايظة .. لو لم نكن على عجل لشممت أفواه الكتيبة كلها .. وعرفت السارق .. ولكن من يكون غير

عسران أفندى .. إن له سوابق في هذا .. لقد لطف ثلاث زجاجات بيرة في الأسبوع الماضي .. لا بد أن أعمل له مجلس تحقيق .. سأوقفه .. ولكن ليس هذا وقته .. بعد المعركة إن شاء الله .. المهم الآن .. أن نشرع للتحرك .. لا نريد أن نصيب لحظة واحدة ..

وفتح الزجاجاة وأخذ منها جرعة .. ومصمص شفتيه قائلا لنفسه :

— قليل من الخمر يصلح المعدة ..

ومسح شفتيه وأردف قائلا :

— ويريح الأعصاب أيضا .. نحن الآن في أشد الحاجة إلى أعصاب .. وتلفت حوله .. يلقي نظرة شاملة على الكوخ كأنما يبحث عن شيء .. وبدأ الكوخ على ضوء المصباح موحشا .. قد صفت به خمسة سراير سفرية .. ثلاثة منها للضابط في ناحية .. وفراشان في الناحية الأخرى .. كان أحدهما له ..

وألقى مراد نظرة على فراشه .. ثم انتقل بيصره إلى الفراش المجاور ..

كان فراشا .. بلا صاحب ..

لقد ذهب صاحبه .. ولم يعد .. أو عاد .. إلى مرقده بطن الأرض في حفرة .. لا فراش فيها .. سوى الثرى .. ولا غطاء .. سوى الرمل والحجارة .. ذهب كما يذهبون الآن ..

ذهب اليوزباشى جلال .. قائد ثاني الكتيبة .. يضحك في جذل .. ويدندن بأغنية مرحة .. وطلب منهم ألا يأكلوا .. كل علة البلوبيف .. واستحلفهم ألا يمسوا زجاجة البيرة التى تركها .. وأبقوا له العلة والزجاجة .. ولكنه لم يعد ..

وبقى فراشه خاليا .. وسيذهبون الآن جميعا .. الملازمون الثلاثة .. وهو .. لا يعلم أحد منهم .. من العائد .. ومن سيكون صاحب الفراش الخالى ..

ومرة أخرى نظر مراد إلى فراشه ..
وأحس برجفة .. وتملكه إحساس بالخوف والتخاذل .. ما ليث أن طرده
عنه بشدة .. وتنحنح بصوت عال .. كما يفعل الخفير في بهمة الليل ووحشته
.. ليطرد عنه أشباح الظلام .

ويصق بصقة كبيرة .. ومدیده .. إلى كوم من روايات الجيب على المنضدة
وأزاحها جانبا .. وأخرج من أسفلها مصحفا صغيرا .. متآكل الغلاف ..
ورفعه إلى شفتيه .. ثم دسه في جيبه ..

وأحس بشيء من الراحة .. وذهب عنه إحساس الخوف .. ونظر إلى
سقف الكوخ .. كأنما يحاول التأكد من الله .. أن مصيره لم يحن بعد .. وأن
حياته لم يزل بها بقية .. وبقية طويلة ..

وانحنى ليفتح حقيبة من الصاج بجوار الفراش .. وأخذ يعث فيها ..
فأخرج الطينجة وكيس الذخيرة .. وأخرج شنطة جراية قديمة بها علبة جبن
.. وعلبة فول مدمس .. وعلبة سردين .. ووضعها على الفراش ..

ثم جذب الزمزية المعلقة على مسمار في حائط الكوخ .. ورجها ثم فتحها
وأفرغ ما بها من ماء .. ونقل إليها ما تبقى من زجاجة الويسكى وأغلقها
ووضعها في طمأنينة على المنضدة قائلا لنفسه :

— تنفع وقت العوزة ..

ولم يكد يضع الزمزية حتى سمع وقع أقدام تقترب من الكوخ .. ثم أبصر
عبد الرحيم .. الملازم الأقدم والذي يتولى مركز قائد ثاني الكتيبة بعد موت
جلال ..

وحياه عبد الرحيم وصاح في لهجة عسكرية :

— الكتيبة تمام يا فندم ..

وسأله مراد :

— البطاريات ركبت ؟
— كلها يا فندم ..
— فتشت عليها ..؟
— كل ضابط فتش على سريره وأعطى تماما ..
— وقاذفات اللهب ..؟
— فتش عليها الباشجاويش بقرى ..
— وأين الضباط ؟
— سيأتون حالا ..
— أمستعلون للتحرك ؟
— في أية لحظة ..
وسمع وقع أقدام .. وما لبث أن دخل الملازم عسران يتبعه الملازم عبيد ،
وحياه كل منهما يده قائلا :
— تمام يا فندم ..
ونظر مراد إلى عسران نظرة فاحصة .. كانت بين الاثنين صداقة وطيدة ..
فقد قرب كلا منهما إلى نفس الآخر تشابه شديد في الخلق .. نفس الجرأة ..
والاستهتار والإباحية .. وخفة الدم والتواكل .. وإن تناقضا في الشكل .. فقد
كان عسران صعيديا من سوهاج أسمر الوجه .. مديد القامة طويل الساقين ..
يقذف بقدميه إذا ما سار ..
وكان عبيد .. يمثل في الكتيبة الحذر والوسوسة .. وفرط الدقة .. وكاد
أكثر ما يهيمه في كل عمله المحافظة على العهد .. والتسليم على مهمات العساكر
والدبابات .. وكان مراد يطلق عليه « الباشمخزنجي » ..
وقبل أن ينطق مراد بكلمة اقترب من عسران يشمه .. وأغلق عسران فمه
حتى لا يستطيع مراد شمه ..

— ١٢٠ —

وسأله مراد ليجبره على فتح شفتيه :

— أفتشت على البطاريات ؟

وهز عسران رأسه دون أن يفتح شفتيه ..

وصاح به مراد :

— انطق ..

وعاد عسران يهز رأسه دون أن ينس بينت شفة ..

وجذب مراد زجاجة الويسكى .. وقبل أن يوجه أى سؤال صاح عسران

في جزع :

— هل شربت الباقي كله ؟

— إذن فأنت الذى شربت الزجاجة ..؟

— بق واحد والله العظيم ..

— سأخرب بيتك عندما نعود .. سأضعك في الإيقاف الشديد .. عندما

تنتهى المعركة .. وسأ ..

وتدخل عبيد قاتلا :

— الفقرة خمسة الخاصة بالإيقاف الشديد .. في قانون الجيش تحم ..

وقاطعه مراد قاتلا :

— اتلهي أنت والفقرة خمسة .. اجلسوا ..

وجلس الضباط الثلاثة حول مراد .. على حرف الأسرة .. وعلى صندوق

خشبي فارغ ..

وقال مراد وهو يفرد الخريطة أمامه :

— سأوجز في الحديث .. فليس لدينا وقت نضيقه في الدردشة .. اليهود

احتلوا التبة ٨٦ .. وقطعوا الطريق إلى غزة .. والمفهوم أنهم هجموا بمجموعة

لواء .. والمفهوم أيضا أنهم استولوا عليها اليوم العصر .. ولم يكن لديهم وقت

كاف للتعزيز .. والمطلوب أن نقوم بهجوم سريع لطردهم .. وقد كُلف
الآلأى بعملية الهجوم .. وأعطيت كتيبتنا واجب الهجوم بالمواجهة على محور
الطريق .. والمفروض أن هجومنا تثبتى ليثبت العدو في مراكزه .. لنعطى
الفرصة للكتيبة الثانية لتطويقه .. ولكن الذى فهمته أن المطلوب منا أن نهجم
هجومًا تامًا بأقصى ما نستطيع من قوة .. وبدون أن ندخل في حسابنا أن هناك
عملية تطويق ستقضى عليه ..

وهز عبيد رأسه في حيرة وتساءل :

— هل سيكون هجومنا مجرد تثبيت لكى تقوم الكتيبة الأخرى بالهجوم
الفعلى .. ؟

وصاح فيه مراد :

— إلى أتكلم عربى .. إن عملنا سيكون هجومًا منفصلاً .. أساسياً ..
سننسى أن هناك تطويقاً .. ولا بد أن نأخذ الموقع قبل ظهر غد ..

وصمت برهة ثم صاح بهم :

— هل نستطيع أم لا ؟

وأجاب عسران فى حماس :

— نأخذه ونأخذ أبوه ..

وبدا التشكك فى وجه عبيد .. ولم يعبر وجه عبد الرحيم عن شىء وأردف

مراد يقول :

— ستعاوننا المدفعية فى ضرب مواقع العدو طول الليل .. إلى لا أستطيع أن
أحدد لكم الآن تفاصيل الخطة .. لأنه ليس لدى أى معلومات من مواقع العدو
.. وأعتقد أن كل ما علينا الآن هو أن نتحرك بسرعة لكى نصل قبل الفجر إلى
المواقع التى نستطيع منها أن نقوم بهجوم ..
وأشار إلى الخريطة بطرف قلمه :

— إننا سنقف في هذه المنطقة .. هناك جرف نستطيع أن نوزع الدبابات خلفه .. وسنقوم منه باستكشاف سريع .. ونستطيع أن نضع خطة الهجوم بعده .. وإن كنت أعتقد أن المسألة .. لن يكون فيها تعقيد كثير .. فهي لا تحتاج لأكثر من قوة وتصميم وإرادة .. سنضرب العدو بكل ما نملك من نيران .. وسنتقدم لنهرس أجساده تحت دباباتنا .. مفهوم يا ولاد ؟
وأجاب الضباط الثلاثة :

— مفهوم يا فندم ..

— توكلوا على الله .. اذهبوا إلى سراياكم .. وسأقوم بإجراء تفتيش سريع .. المهم عندي أن تتأكدوا من البنزين والذخيرة .. والبطاريات .. لا أريد أن تقف دبابة وسط المعركة لأن المارش لا يدور .. هل يريد أحد منكم أن يسأل أى سؤال ؟

وسأل عبيد :

— لم تذكر حضرتكم شيئاً عن الشؤون الإدارية ..

— ماذا تريد أن تعرف عن الشؤون الإدارية .. الدبابات تملأ بالبنزين والذخيرة .. وتعين الطوارئ مع العساكر ..

— هل سنأخذ معنا احتياطي في اللوريات ..

— لن نأخذ معنا لوريات .. لا داعي للخمة .. سيقى كل شيء هنا .. إن المسافة ليست بعيدة .. وأرجو أن تنتهى العملية كلها قبل الظهر ..

— إن شاء الله ..

— تفضلوا ..

ونهض الضباط ثم حيوا .. وقبل أن يغادر عسران الكشك مد يده خلسة إلى الزمزية وهم يرفعها إلى شفتيه ..
وخطف منه مراد الزمزية .. فرجاه عسران في استعطاف ..

— ١٢٣ —

- أريد بق واحد .. بق ماء ..
- ماء في عينك .. وعين أبوك .. ألا يكفي ما شربته ..؟
- بق واحد فقط ..
- خذ .. خسارة في حبة عينك ..
- وانطلق الضباط من الكشك يتبادلون النكت .. وقبل أن يغادره مراد صاح بالعسكري الحارس :
- كما كنت حجز القشلاق .. خذ بالك من ممتلكات قائد الكتيبة .. ومن زجاجاته .. مفهوم ..
- وأجاب العسكري وهو يتسم :
- مفهوم يا فندم .. مع السلامة .. ربنا ينصركم ..

الفصل الثالث عشر

عودة مريرة

علا ضجيج الدبابات وثار غبارها .. وهى تتخذ طريقها فى جوف الليل .. إلى أرض المعركة ..

وأحس مراد بالمسئولية الضخمة الملقاة على عاتقه .. وهو يتخذ مكانه فى دبابته وقد لف عنقه ووجهه بكوفية من الصوف الكاكى .. وأخذ يحملق فى الظلمات المتكاثفة أمامه ..

وتذكر الفراش الخالى .. وتذكر جلال ..

وبرغمه .. انزلقت فكرة الموت إلى ذهنه .. وحاول طردها عبثا وعجز عن مقاومتها .. فسلم نفسه إليها .. وتركها تعبت به .. وتقلبه تقليب الشواء على النار ..

ليس بمستبعد أن يلقى حتفه فى هذه المعركة .. برصاصة تندفع فى الهواء .. لا تجد مكانا تستقر فيه سوى رأسه أو صدره .. وتخيل نفسه يتلمس موضعها ويحس سخونة الدماء ولزوجتها .. وتخور قواه ويخر صريعا ..

وتصور جثته ملقاة فى العراء نهبا للطيور .. أو محمولة على نقالة الميدان .. وتصور وقع موته على الناس .. سيسمونونه بالطبع الشهيد مراد .. وسيلصقون به مختلف الفضائل وينسبون إليه كل أنواع البطولات .. وسينشرون صورته فى الصحف .. ترى هل سيجدون له صورة وجيزة .. أو سيأخذون صورته الموجودة فى الدوسيه الخاص به بإدارة كاتم أسرار .. لأنها ستكون مقلبا فيه .. فهو يبدو بها أشبه بالبلطجية أو الجزارين .. لئنه ترك لهم صورة وجيزة .. إن

لديه صورة أخذها في ستوديو شبرا .. ببدلة الجيش وهو يتسم كأنه نجم من
نجوم السينما .. لا بد أن يراعى هذا الأمر عند عودته .. إذا عاد هذه المرة ..
فلا بد أن يدبر أمر استشهاده تديرا جيدا ..

وستبكيه أمه .. إنها طيبة وغليلة .. وستبكيه زوجته .. تلبس من أجله
السواد .. وتصبح أرملة .. وسيبكيه ضباطه .. وبعد مدة .. سينساه
الجميع ..

أجل .. لن يكون في نظرهم .. أكثر من فراش خال .. بين الضباط ..
أو معاش لزوجته ..

وضاق بأفكاره .. وهز رأسه كأنما ينفضها عنه .. وساعد في طردها ..
دوى سمع من بعيد .. أخذ يتوالى .. حتى بدا له أن المدفعية قد بدأت في عملها
ضد مواقع العدو ..

وأحس مراد بدبابته تنبأ .. وبدا له أن الماكينة تقطع في سيرها .. فصاح
بالسائق :

— ما الحكاية ؟ ..

وأناه صوت السائق من داخل الدبابة :

— الدبابة تقطع ..

— بنزين والا كهرباء ..

— الظاهر .. أنها وساخة في البنزين ..

— لماذا لم تدع الأسطى مرسى يفتش عليها ؟ ..

— لقد قضينا اليوم طوله في تنظيفها وتشحيمها ..

— لماذا إذن تتحجج بوساخة البنزين .. هل جربت البطارية جيدا .. وهل

فتشت على الكهرباء ؟

— أجل ..

وصاح مراد في عصبية :

— إذن لماذا تقطع ؟..

وهبط مراد إلى الداخل مقتربا من مقعد السائق .. ومد عنقه فأحصا تابلوه الدبابة صائحا :

— دوس بنزين ..

وأحس السائق بالارتباك من صيحة مراد وعصبيته .. وبدأ مضطربا في عمله .. ولكن الدبابة عادت إلى الانتظام في السير .. فأنقذته من غضب مراد .. وتتم يقول معذرا :

— إنها وساخة بنزين .. إن الدبابة على خير حال ..

وقال مراد محذرا :

— خذ بالك جيدا .. وضع عقلك في رأسه .. نحن في معركة ولسنا في طابور سير .. احذر أن تتوقف بك الدبابة .. وإلا أضعت حياتنا .. واستمرت الدبابات في السير .. يبدد ضجيجها سكون الليل .. وبين آونة وأخرى يسمع دوى المدفعية .. من بعيد .. واستغرق ركابها في تفكير متقطع مضطرب ينتقل بين البيت النائي والأهل الغائبين .. وبين العدو الرابض .. والمعركة المنتظرة ..

أخيرا أعطيت الإشارة بالتوقف .. وأخذت السرايا تتفرق وانتشرت الدبابات تحاول أن تتخذ ساترا من ثايا الأرض .. وساد السكون .. إلا من المسهسة والوسوسة .. وفرقة هنا .. وخبط هناك ..

ومرة أخرى جمع مراد ضباطه وراء دبابته .. وأحس بالاضطراب يتملكه وهو يفكر في خطة الهجوم .. ويوشك أن يصدر أوامره بها دون أن يكون في ذهنه شيء محدد واضح .. وأحس بالسخط على قائده الذي ألقى به في خضم

المعركة .. بلا معلومات مفصلة أو أوامر محددة .. كل ما هو مطلوب منه أن
يهجم ليستعيد التبة ٨٦ ويطرد العدو ..
واقترب الضباط الثلاثة وقد تدثر كل منهم بمعطفه ولف رأسه بالكوفية ..
ووقف الأربعة ينظر كل منهم إلى الآخر في صمت وقد خيم عليهم سكون
رهيب ..

وكان عسران أول من تحدث .. قال وهو يفرك يديه ويخفي رأسه بين
كفيه .. ويتسم في خبث منشدا :

— عطشان يا صبايا .. دلوني على السبيل ..

و لم يتالك مراد نفسه من الضحك فأجابه في سخرية ..

— أشرب من البحر ..

— أشرب من البحر وزمزميتك موجودة ؟ عيب ..

— الزمزية فضيت ..

— أنا في عرض بق .. بق واحد يا عمى .. وأطردك اليهود من التبة

٨٦ و ٨٧ .. إلى مائة ..

وحاول مراد أن يتخذ سيماء الجذ فقال ناهرا :

— عسران أفندي .. نحن في ميدان قتال .. في أرض المعركة ..

— بق واحد .. يا حضرة القائد أنا أطرافى ثلجت ..

ومد مراد يده فأخرج الزمزية ودفع بها إليه ورفعها عسران إلى فمه

وتناول جرعة ثم مصمص بشفتيه في استمتاع .. وأعاد الزمزية قائلا وقد رفع

رأسه وشد صدره :

— أوامر سعادتك ..

وبدت الحيرة على وجه مراد .. وبعد برهة صمت رفع رأسه قائلا :

— اسمعوا يا ولاد .. إني لا أستطيع أن أضع خطة معينة حتى الآن .. ولكنني

أعتقد أننا نستطيع أن نهجم بسريتين .. ونضع سرية في الاحتياط تستر هجوما ..

وقال عسران بلا تفكير :

— سأكون أحد سريتي الهجوم ..

وقال عبد الرحيم :

— وأنا سأكون السرية الأخرى ..

وقال مراد :

— إذن عليك يا عبيد أن تبقى في مواقعك وتستتر هجوما ..

وقال عبيد في دهشة وتشكك :

— أهذه هي كل خطة الهجوم .. أليس هناك أوامر عمليات .. أو أوامر

إدارية ..

ونظر إليه عسران وأجابه في سخرية :

— اتنيل .. بلا أوامر إدارية بلا عمليات .. اترزى في مواقعك .. وسلط

مدافعك على مواقع العدو .. هذا هو كل ما هو مطلوب منك .

وأجابه عبيد في غضب :

— تأدب يا عسران أفندى .. أنا لا آخذ أوامري منك .. أنا آخذ أوامري

من قائد الكتيبة .

وتدخل مراد قائلا في هدوء :

— وبعدين .. أهذا وقته ؟ ..

وأجاب عبيد :

— أريد أن أعرف أوامري بالضبط ..

— قلت لك اثبت في مواقعك واستر الهجوم .. ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

— وأين مواقع العدو ؟؟ ..

— ألا تعرف أين مواقع العدو ؟ ..

وقبل أن يجيب عبيد .. سمع صوت دوى .. وأعقبه انفجار ثم تبعه طلقات متتالية من مدفع ماكينة ..
وأنصت الجميع ، وأرهفوا آذانهم إلى مصدر الطلقات وقال عسران هامسا لعبيد :

— أعرفت يا شاطر .. أين العدو ؟

وقال مراد :

— اسمعوا يا جماعة .. لا نريد أى ضوء أو صوت أو حركة .. اذهبوا إلى سراياكم .. وأمرؤا العساكر بأن تصمت تماما .. لا نريد أن يعرف العدو مواقعنا قبل أن نبدأ الهجوم .. نحن لا نريد أن نثوت فطيس ..
وحلق مراد فى اتجاه الطلقات .. وأرهف سمعه .. ولكن الصوت كف عن الإنطلاق ..

ونظر عبد الرحيم إلى الساعة .. ثم رفع بصره إلى الأفق الشرقى وتمتم قائلا :

— لا أظن أماننا وقتا طويلا ..

وقال مراد :

— اذهبوا إلى سراياكم ودعوا العساكر تستريح فى أماكنها .. وعندما تطمئنون على كل شىء عودوا إلى ..

وعاد الضباط إلى سراياهم .. وأخذ الوقت يمر بطيئا رهيبا .. وبين آونة وأخرى يسمع صوت دوى .. أو دفعة طلقات متتالية ..

ورويدا رويدا .. بدأ ضوء النجوم يخفت .. وسواد الكون يستحيل إلى رمادية باهتة ..

والتف الضباط مرة أخرى حول مراد وقد رقدوا على بطونهم فوق حافة تبة مرتفعة وأخذوا يحدقون فى الفراغ الذى تبددت منه الظلمة وتسرب إليه

الضوء باهتا شاحبا .. وأخذت تلوح لأعينهم تفاصيل الثبات وبدت عليها
أشباح وهياكل لا تستطيع العين أن تفسرها ..
ووضع الضباط الراقدون منظارا الميدان على أعينهم فلم يستطيعوا أن
يميزوا بها شيئا ..

وقال مراد :

— اسمعوا يا جماعة .. لا نريد أن نضيع وقتا في الاستكشاف ، إننا في أشد
الحاجة إلى الثواني والدقائق .. ويبدو لنا أن ما نكسبه من المفاجأة لو هجمنا
الآن خير بكثير من أى معلومات يمكن أن نحصل عليها لو انتظرنا ..
ما رأيكم ؟ ..

وأجاب عسران ..

— معك حق .. إني على استعداد للهجوم ..

— إذن خذ سريتك .. واهجم في اتجاه اليمين .. إني أستطيع أن أجزم بأن
العدو قد احتل هذه التبة التى على يمين الكودية .. فمن هذا الاتجاه صدرت
طلقات المدفع الذى سمعناه بالليل .. هل تريد تفاصيل أو أسئلة ؟

وقال عسران وهو يسحب جسده للخلف :

— لا أريد شيئا ..

ولكن قبل أن يستدير لينطلق إلى سريته عاد يقول :

— أريد شيئا واحدا ..

— ما هو .. ؟

— بق من الزمزية ..

وألقى إليه مراد بالزمزية .. وهو يضحك قائلا :

— خذها كلها يا بوعسران .. وإذا طردنا العدو وعدنا سالمين .. لك

عندى زجاجة جون هيج ..

— يا نهار أسود .. زجاجة جون هيج برأس بن جوربون بعد لحظات ..
سلام عليكم ..
وانطلق عسران يعدو إلى دبابته ..
واستمر مراد يتحدث إلى عبيد وعبد الرحيم .. وما لبث الثلاثة أن عادوا
أدراجهم إلى دباباتهم ..
وبعد لحظات بدأت السرايا في التحرك .. علا الضجيج .. وثار الغبار ..
وخرجت الدبابات من مكنها ..
وفي نفس اللحظة .. بدأ الدوى من الجانب الآخر ..
بدأ خفيفا متقطعا .. واستمرت الدبابات في الزحف .. واستمر الدوى في
التزايد والشدة ..
وأخذ مراد يرقب تقدم الدبابات وقد جلس في دبابته مع سرية الاحتياط
التي اتخذت مواقعها وراء الجرف .. وأخذت تطلق مدافعها صوب مواقع
العدو ..
وبدأت القنابل تتساقط هنا وهناك .. والدبابات مستمرة في زحفها ،
ومراد يرقبها وقد شدت أعصابه .. وزاد قلقه وهو يحس كأنما قد ألقى بحزمة
القش في جحيم من النيران .. أو يكوم من السمك في أفواه الحيتان ..
وسمع مراد دويًا أشد من كل ما سمع منذ بدء المعركة .. وأبصر انفجارا
شديدا في الناحية التي تقدمت منها سرية عسران .. وبدأ في الجو خليط من
الغبار والدخان .. ثم أبصر عمودا من النيران يتصاعد من إحدى الدبابات ..
وتبين من مكانها في المقدمة .. إنها دبابة عسران .. ولم يبالك نفسه من الصراخ
في جزع .. وصاح قائلا :

— يا نهار أسود .. دبابة عسران تحترق ..
وأحس كأنما قد طعن في صميمه طعنة نجلاء .. وأصابه ذهول مفاجيء

أعجزه عن النطق والتفكير .. وظل يحلق من مكانه في الدبابة المحترقة .. وبدا له أن السرية كلها قد توقفت عندما أبصرت دبابة قائدتها تحترق وتتوقف .. وفجأة صاح مراد بسائق دبابته :
— تقدم وراء السرية الأولى ..
ثم تلفت إلى عبيد صائحا :

— يا عبيد .. لقد احترقت دبابة عسيران وتوقفت سريته .. سأقدم لقيادتها بدله .. وتقدم أنت بسريتك بين السريتين واستمر في الهجوم ..
ودارت دبابة مراد .. واندفعت إلى أرض المعركة .. لتلحق بسرية عسيران .. بين وابل من القنابل والرصاص ..
ووصل مراد إلى دبابة عسيران .. فإذا بها فحمة سوداء .. لا أثر فيها لكائن حي ..

وأحس بشيء يعتصر قلبه ويدمى جوفه .. ولكن جحيم المعركة المشتعل حوله لم يترك له فرصة للتفكير أو الحزن .. واستمر في السير مشيرا لبقية الدبابات أن تعاود التقدم ..

وسارت الدبابات عدا واحدة .. لم تكد تتقدم حتى انفجر في أسفلها لغم أطار جنزيرها .. فتوقفت عن الحركة .. واستمر مدفعها يصوب نيرانه فجأة تجاه العدو دون أن تستطيع الدبابة التقدم ..

ومضت برهة والدبابات مستمرة في سيرها .. وسيل من النيران يندفع من فوهات مدافعها ليجيب على الجحيم الصادر من الجانب الآخر ..
وبعد لحظة توقفت دبابة أخرى بعد أن أصيبت في مقدمها أصابة مباشرة .. ولحظة أخرى .. وتوقفت دبابة ثالثة بعد أن طار برجها ..

وكلما ازداد تقدم الدبابات .. ازداد تساقطها ..
وتلفت مراد حوله .. فإذا بكل الدبابات تقريبا قد توقفت .. ولم يعد

يتقدم منها إلا بضع دبابات ..
وأحس باليأس وهو يتلفت حوله .. وما زالت مدافع العدو تصلى أرض
المعركة وابلا من النيران ..
ولم يجد بدا من الانسحاب .. فقد كان التقدم أبعد من هذا ضربا من
الجنون .. لا سيما وقد أخذت الألغام تتكاثر من حوله كلما تقدم ..
وأصدر أوامره بالانسحاب .. وأمر سائق الدبابة بالدوران للعودة ..
وسحب السائق أحد عصي الدوران .. وضغط على البنزين ودارت
الدبابة نصف دورة .. ثم توقفت ..
وداس السائق على المارش .. فلم يدر ..
وصاح مراد في حنق وقد انهالت القنابل من حوله :
— مالك .. ماذا حدث ؟ ..
— المارش توقف ..
— لماذا ؟ ..
— الكهرباء هربت ..
— هربت ؟ ..
— أجل ..
— كيف ؟
— لست أدري .. لا يوجد كهرباء ..
— اضغط على المارش ..
— لا يوجد كهرباء أصلا ..
وأحس مراد أنه يوشك أن يجن .. ووجد أن المدفعية قد توقف عن
الضرب .. والتفت إلى السائق فصاح به :
— استمر في الضرب .. أيها الغبي ..

وعاود المدفعجى الضرب .. وأطلق بضع طلقات ثم توقف ثانية فصاح به
مراد :

— لماذا عدت إلى التوقف .. استمر ..

— لقد نفذت الذخيرة ..

— ما شاء الله .. مدفع بلا ذخيرة .. ودبابة بلا كهرباء !

وأحس مراد بالمأزق الذى وضع فيه .. لقد أضحى سجيناً فى دبابة لا
تستطيع الحراك ولا تستطيع الضرب ..
ولم يطل به التفكير .. فقفز من البرج وصاح ببقية الطقم أن يغادر
الدبابة ..

لقد كان عليهم أن ينجو بجلدهم .. قبل أن يقضى عليهم العدو أو يأخذهم
أسرى إذا فكر فى هجوم مضاد ..

ونظر مراد إلى دبابته وقد وقعت عاجزة فى أرض المعركة .. إنها عزيزة عليه
.. ولكنه لا يستطيع أن يأخذها معه .. ولا يستطيع كذلك أن يتركها سليمة
ليستعملها العدو ..

وفى الموقف اليائس المميت .. أمر مراد الطاقم بالانسحاب على قدميه بعد
إحراق الدبابة ..

وبعد برهة انفجرت الدبابة وعلا منها عمود من النيران والدخان ..

وبدأ الطاقم يتسحب زحفاً بين الرصاص المنهال حولهم ..

واستمر مراد يزحف .. فى إعياء .. وقد تملكه إحساس بالمرارة وباليأس
والذل ..

وكان أكثر ما سبب له المرارة .. هو عودته وحده .. بلا كتيبة .. ولا جنود
ولا ضباط .. ولا حتى دبابة ..

الفصل الرابع عشر

انتصار الحطام

قطع مراد المسافة إلى رفع سيرا على قدميه .. يتبعه طاقم دباباته عدا واحدا أصابته شظية صرخته خلال الانسحاب زحفا من أرض المعركة .
وأحس مراد بقدميه لا تكادان تقويان على حمله .. كان السهر والمشقة والجهد وطول السير قد أخذت منه كل مأخذ .. وكانت الأحوال التي لاقاها ومرارة الهزيمة التي ذاقها قد هدت قواه وحطمت أعصابه .. حتى بات يحيل إليه وكأن ما مر به .. لم يكن سوى كابوس مزعج .. لن يلبث حتى يفيق منه ..

لم يصدق أن دباباته قد دمرت .. وأن كتيبته بأكملها قد رقدت في أرض المعركة حطاما وركاما .. وإنه لم يعد من كل قواته المسلحة .. من دباباته ومدافعه وضباطه وجنوده .. إلا وهو .. يسعى أعزل منهارا محطما .. كشحاذى الجوامع .. أو أسرى الحرب ..
كان خيرا له ألا يعود .. أن يصرع بشظية من العدو .. أو رصاصة من مسدسه هو ..

ألا يبقى ربان السفينة .. على ظهرها حتى يفرق معها ؟ .. لماذا لم يفعل هو ذلك ؟ .. لماذا لم يبق مع كتيبته حتى يلقي حتفه ..
ولكن أية كتيبة تلك التي يبقى معها .. إنه لم يكن يرى منها سوى السنة نيران وأعمدة دخان .. وأشلاء مهشمة وبقايا محطمة ..
كان جنونا منه أن يلقي بقواته في هذا الأتون المستعر .. وأن يهجم في تلك

الأرض المكشوفة ليوأجه العدو المستعد بكل ما لديه من أسلحة دفاع ..
ولكن كان عليه أن ينفذ الأوامر ..
لقد كان يعلم من قبل أنها عملية انتحارية ..
ولكن لماذا يقدم على الانتحار ؟ .. ولماذا يسوق كل هؤلاء الذين تبعوه
ووثقوا به إلى الانتحار ؟ ..

— لقد كان يتوقع الهزيمة .. ولكنه لم يتوقع الفناء ..
كان يمكن أن تحمل به الهزيمة .. فيفشل في الاستيلاء على موقع العدو ..
ولكنه يعود بكتيبته بعد أن يفقد بضع دبابات .. ومعها بضعة جنود ..
أما أن يفقد الكتيبة بأكملها .. حتى السرية الاحتياط .. التي دفعها بحمق إلى
الهجوم بين السريتين ..
كان مندفعاً .. إذا تخيل أنه لو ألقى بكل قوته في عنف وجسارة .. فقد يزعرع
دفاع العدو .. ويفقد ثقته بأسلحته .. ويوهمه بأن وراء تلك القوات المهاجمة
.. قوات أخرى ..

لقد كانت خطته مبنية على الاندفاع الجنوني ..
وكان يعتقد أن هذا هو المطلوب منه ..
ولكن النتيجة .. كانت بشعة ..
وتصور دبابة عسران .. تأكلها النيران .. ويلفها كوم من الدخان الأسود
.. ثم ينحسر كل هذا عن هيكل أسود .. لا أثر فيه لكائن حي ..
وأحس بقواه تخور .. وبدا له أن يرمى على الأرض .. عندما سمع صوت
عربة .. ثم بدت له لإحدى عربات المدفعية .. وفتح مراد باب العربة وارتمى
بجوار السائق وأشار للجنديين اللذين يتبعانه أن يركبا في الخلف ..
وقال مراد للسائق في إعياء :
— اذهب بنا إلى رئاسة الدبابات ..

ونظر السائق إلى مراد في إعجاب .. وقال وهو يدير العربة :
— مبروك يا فندم ..
ورمق مراد السائق في دهشة .. وخيل إليه أنه يسخر به فأجابه متسائلا في
تهكم ومرارة :
— على إيه .. يا روح أملك ..
وخذل السائق من لهجة مراد المتكلمة .. وقال في لهجة أقل أعجابا وأكثر
حذرا :
— سمعنا أن اليهود طردوا ..
— طردوا من أين ؟
— من التبة ٨٦ ..
وازداد غيظ مراد .. وعاد يسأل السائق في حنق :
— من طردهم ؟
— الدبابات ..
— الدبابات ؟ من قال لك هذا ؟ ..
— كل العساكر ..
ولم يجب مراد .. بل أغمض عينيه وازداد إحساسا بالمرارة .. لقد أشاعوا
أن الموقع سقط .. والمفروض أن يعود إليهم .. ليتلقى تهنيتهم ..
أى سخرية أشد من هذا .. وأكثر مرارة ..
ليقولوا .. ما يقولون .. لعن الله أباهم .. أجمعين ..
لأنه لا يريد أن يرى أحدا .. مطلقا ..
سيأخذ إجازة .. ويذهب إلى الإسماعيلية .. إنه محطم الأعصاب ..
ولو مكث لحظة أخرى .. في هذا الجو .. لأصابه الجنون ..
ووصلت العربة إلى رئاسة الآلاى .. ونزل مراد .. يجر ساقيه .. وهو

يوشك أن يسقط من الإعياء .. ولم يكذ يقترب من باب الخيمة .. حتى أبصر اليوزباشى عبد المنعم أركان حرب الآلاى يندفع منها ليحتضنه فى لهفة ويهتف به :

— مبروك يا مراد ..

ولم يحتمل مراد .. فقد كان مفروضا فى أركان حرب الآلاى أن يكون أكثر تحفظا فى تصديق الشائعات .. وأن يكون على بينة أصدق بما فعلته وحداته ..

وكان مفروضا فيه أن يكون أعقل من هذا .. فيتظر حتى يعرف منه المعلومات الصادقة .. بدل أن يندفع هكذا ليعانقه ويهتفه بمجرد شائعات أشاعتها العساكر ..

وضاق مراد بهتة عبد المنعم فدفعه عنه فى عنف وصاح به :

— مبروك علام ؟

— على طرد اليهود .. وسقوط الموقع ..

— سقوط الموقع .. ما هذا الهذيان ! ..

— هذيان ؟

— طبعا هذيان .. وممن ؟ من أركان حرب الآلاى .. المفروض فيه أن يكون على علم بكل شىء .. وأن يكون أول من عرف بالكارثة التى وقعت .. وأن يعد الإمدادات لإنقاذ الكتيبة التى فنت عن آخرها .. بدل أن يقف هكذا كالمهايل .. ليقول مبروك .. الموقع سقط .. من قال لك هذا يا حضرة الأركان حرب .. من أين استقيمت معلوماتك .. من أى بوليس أدبخانه ؟

ونظر عبد المنعم فى ذهول إلى ثورة مراد وقال دهشا :

— مراد .. ما هذا الذى تقوله .. هدىء أعصابك إن الموقع قد سقط

فعلا ..

وازداد مراد حدة وغضبا وصرخ فيه :

— كيف سقط ؟ .. سقط بالسرايا المخطمة المتناثرة أمام مواقعه .. سقط
بالمدافع الصامتة التي نفدت ذخيرتها .. سقط بالدبابات العاطلة .. الفارغة
البطاريات .. قل لى كيف سقط .. بالجنود الجرحى التي لا تجد من يضمه
جراحها .. بعسران المحترق داخل دبابته .. والذي لا يجد من يعيد إلينا جثته
.. قل ! .. انطق ؟

وكانت ثورة مراد قد بلغت أشدها .. وعلا صوته وخرج الزبد من
شفتيه ..

واندفع قائد الآلاى من داخل الخيمة .. على صوت صياحه .. وأمسك
بذراعه يسوقه داخل الخيمة قائلا :
— ماذا حدث ؟

ونظر إليه مراد وهو يضغط على ضروسه .. ثم انفجر صائحا :
— ألا تعرفون ماذا حدث ؟ .. الكتيبة فنت عن آخرها .. معظمها احترق
وتدمر .. والبقية .. لا بد أن تكون الآن فى أيدي العدو .. وأنتم تجلسون هنا
لتقولوا .. مبروك .. الموقع سقط .. ألف مبروك .. نحن نفنى .. وأنتم هنا
تتبادلون التهاني .. وطيعا أرسلتم للقيادة بالأنباء السارة .. والقيادة .. أرسلت
إلى الباشوات الذين يجلسون فى كوبرى القبة .. وغدا يقرأ الناس أنباء
انتصاراتنا .. وبعد هذا تسألنى ماذا حدث ؟

ونظر إليه قائد الآلاى فى هدوء وربت على كتفيه قائلا :
— اجلس .. أنت متعب ..

وصاح مراد :

— لن أجلس .. لا أريد أن أشتغل معكم .. اخرجوا أنتم لتعرفوا ما حدث
.. اخرجوا .. لتفعلوا شيئا .. لتتقنوا بقية الدبابات من برائن العدو .. لتقتلوا

جرحانا .. لتسحبوا جثتنا .. بدل أن تجلسوا لتصدقوا شائعات العساكر ..
وتقولوا أن الموقع قد سقط ..
واستمر قائد الآلاى ينظر إلى مراد نظرتة الهادئة .. الصابرة .. ثم عاد يربت
على كتفيه قائلاً فى منتهى الهدوء :
— اجلس يا مراد .. استرح .. هدىء نفسك .. إن الموقع قد سقط
فعلاً ..

ونظر إليه مراد وقد جحظت عيناه وبلغ غيظه أشده وصاح به :

— من قال هذا ؟

— أنا .. أنا أقوله ..

— من أبلغك ؟

— أبلغتنى عيناي .. وليس بوليس الأدبمخانة كما تقول .. إن الموقع قد سقط
.. انسحب منه اليهود .. واحتلته أورطة مرسى .. ودباباتنا ترابط الآن فيه فعلاً
.. حتى تتسلمه المشاة .. أتأكدت أنه سقط .. اجلس .. اجلس واسترح ..
أنك متعب ..

وارتمى مراد على أقرب كرسي وأسند رأسه بكفه وأخذ يضغط عليه بعنف
وعصبية .. كأنه يحاول أن يوقظ نفسه من كابوس ثقيل .. ثم رفع عينيه إلى
القائد وتساءل فى دهشة :

— غير معقول .. إني لا أصدق .. كيف حدث هذا ؟ .. لقد تركت
الكتيبة محطة أمام مواقعه ..

— لقد حطمت بعد أن دمرت معظم أسلحتهم .. وبعد أن هزت دفاعاتهم
.. وضربتهم ضربة قاسية وتركهم منهوكى القوى .. وعندما قامت كتيبة
مرسى بالالتفاف من الجنوب والشرق وأشرفت على مواقعهم .. أصابهم
الفرع .. بعد أن ظنوا أنهم قضوا على هجومنا الأصلي وأنهم المعركة .. ولم

يحاولوا الدخول معنا في معركة أخرى .. احتلنا التبة بكيتية مرسى دون أن يطلق طلقة واحدة ..

وفغر مراد فاه .. وبدأ عليه الدهول وهو يستمع إلى قائد الآلى .. وعاد يردد قوله .. وكأنا يحدث نفسه :

— احتلتم التبة .. دون أن تطلقوا طلقة واحدة .. وفقدت أنا كيتيتي .. وعدت ماشيا كالمتسول .. دون أن أحمل شيئا ..

وقال عبد المنعم وهو يربت على كتفه في رفق :

— لا تقل هذا .. إننا لم نتصر إلا بفضلك ..

وبدا كأن مراد لم يسمع شيئا من حديثه .. واستمر يردد بلهجته الشاردة :

— لقد تركت دباباتي محطة .. وجنودي أشلاء .. وعسران محترقا .. وعدت كالشريد .. الهائم .. الضائع ..

وقال البكباشي منصور في لهجة حازمة :

— قد أرسلت إليهم الإسعاف والمؤونة من غزة .. وضباطك بخير وعسران سيوضع في سجل الشهداء الخالدين .. ونحن قد انتصرنا .. وأجاب مراد في عصبية وحدة :

— نحن ؟ .. من نحن ؟ .. الذين ركبوا الدبابات وساروا كأنهم في نزهة .. وحاول قائد الآلى أن يخفي انفعاله وأجابه في هدوء :

— نحن جميعا .. آلى الدبابات .. الذي نعمل فيه كلنا .. من أقل عسكري إلى أكبر ضابط .. إن انتصار أحدنا .. انتصار للآخرين .. لقد انتصر الآلى .. وعندما ينتصر الآلى نكون كلنا قد انتصرنا .. وتكون أنت قد انتصرت ..

— أنا لم أنتصر .. لقد كنت كبيتش الفداء .. لقد دفعت كيتيتي إلى الفناء

.. ودفعتنا إلى الانتحار ..

— أنت الآن متعب .. ويجب أن تستريح وتريح أعصابك .. وعندما تهدأ
ستعرف أنك انتصرت .. وسيدكر الناس أنك أديت واجبك ..
— لن يذكر الناس إلا أنني عدت هائما على وجهي بعد أن أحرقت دبابتي
.. وحطمت كتييتي .. سيدكر الناس أن قائد كتيبة الدبابات الأولى عاد سائرا
على قدميه .. بعد أن مزق العدو كتييته إربا .. وسيدكر الناس أنك ومرسى قد
طردتما اليهود .. هذا هو ما سيدكرونه .. لقد كنت تعرف النتيجة سلفا ..
ولذلك ذهبت مع مرسى .. ولم تذهب معي .. ولو كنت شجاعا لذهبت معي
.. ولكنك كنت تريد قتلى .. لأنك تكرهني ..

وتدخل عبد المنعم مقاطعا :

— مراد .. ما هذا الذي تقوله .. لا تدع أعصابك تخونك .. وتندفع في
الخطأ ..

ونظر إليه قائد الآلاى مليا وقد بدا عليه غضب مكثوم وقال :

— أنت تتحدث وأنت في غير وعيك .. ولن أؤاخذك على شيء مما تقول
.. تفضل الآن .. وعد إلي عندما تكون أهذا حالا ..

— لن أعود إليك .. سأطلب نقل ..

— سأمنحك إجازة تستريح فيها .. وأنا واثق أنك ستعود إلى صوابك ..
ومد عبد المنعم يده فسحب مرادا من ذراعه قائلا :

— هيا يا مراد .. يجب عليك أن تستريح ..

— لن أستريح حتى أنقل من هذا الآلاى ..

— ليس هذا وقت نقل .. إن كتيبتك في حاجة إليك ..

— لم تعد لي كتيبة ..

— بل ستعود كما كانت .. وخيرا مما كانت ... كل خسائرك ستسد ..

وسيعوض لك كل النقص في الدبابات والعربات .. هيا بنا .. لا تستسلم للغضب واليأس ..

وخرج مراد من الخيمة مع عبد المنعم وركب الاثنان إحدى عربات الجيب وقال عبد المنعم :

— أتريد أن تذهب إلى العريش ..؟

ولم يجب مراد .. وبدأ عليه الشرود .. وعاد عبد المنعم يقول :

— يجب أن تستريح فترة من الوقت .. وأؤكد لك أن كل شيء سيعود كما

كان .. سأذهب معك الآن إلى العريش .. ما رأيك ؟

وقبل أن يسمع إجابته قال للسائق :

— اذهب بنا إلى العريش ..

وأدار السائق العربى .. وقبل أن يتحرك قال مراد :

— مر بنا على الكتيبة أولاً .. حتى أحضر ملابسى ..

ووقفت العربى أمام الكشك الصاج .. وهبط مراد منها ودلف إلى

الداخل ..

وألقى على الكوخ نظرة سريعة شاملة .. ثم استقر بصره على فراش

عمران ..

وتذكر صاحب الفراش .. تذكر جرأته .. ومجونه ومرحه .. تذكر قوامه

الطويل ووجهه الأسمر .. وتذكره وهو ينشد (عطشان يا صبايا) ثم تذكر

آخر ما رآه منه وهو يخطف الزمزية .. ويندفع إلى دبابته صائحاً « جون هيج

برأس بن جوريون » ..

لن يراه .. بعد الآن ..

ما أسرع ما ينتهى الإنسان ..

في لحظة يكون .. وفي اللحظة التالية يختفى ..

الفاصل بين أن يكون .. وألا يكون .. لحظة واحدة ..
كان يمكن أن تأخذ نهاية الإنسان وقتاً أطول ..
هذا الكائن الضاحك الصاحب المتحرك المفكر .. الذى يفعل أشياء كثيرة
.. كان يجب ألا ينتهى بهذه الطريقة الخاطفة .. كان مفروضاً أن يكف عن كل
أفعاله الكثيرة شيئاً فشيئاً ..
ومد مراد يده ليتناول بدلة الميدان من فوق المشجب فوجد تحتها بدلة
عسران .. لقد سبق أن نهه دائماً ألا يستعمل مشجبه .. وتحسس مراد البدلة
.. وأحس بكل مشاعره الجامدة تذوب .. وبأعصابه المتوترة تتحلل ..
وبدموعه تنحدر من مآقيه .. وإذا به يندفع فى نوبة بكاء .. كأنه طفل ..
ودخل عبد المنعم وأمسك به يخرججه من الكوخ .. وقبل أن يصل إلى بابه
تلفت خلفه .. وقال فى صوت يخنقه البكاء وهو يشير إلى فراش عسران :
— لقد زادت الفراشات الخالية واحداً ..

الفصل الخامس عشر

ومض البرق

وصل مراد إلى بيت العريش .. منهكا .. محطما ..
ولم تكن غيبته قد طالت أكثر من سواد الليل ونصف النهار .. ومع ذلك
بدا له وهو يقبل على البيت كأن دهرا قد مضى ما بين تركه للدار ليلة أمس
وعودته إليها ظهيرة اليوم ..

وكأنما قد ساءه بعد الليلة الليلاء الحمراء — حمراء فعلا لا مجازا — وبعد
الدمار الذى أمضى فيه ليلته .. أن يجد البيت على حالة من السكينة والهدوء ..
وعدم الإحساس بالأحوال التى مر بها .. فتملكه نحو أهله نفس الشعور العدائى
الذى تملكه لقائده .. والذى أحس به لكل من حوله من الأحياء المنعمين أو
شبه المنعمين .. وداخله إحساس بأن لا شيء يستحق التضحية .. وإن
الاستشهاد سخافة .. والفداء حماقة .. والبطولة خبل ..

وكان أول من لقيه من أهل البيت .. نهى .. بجسدها النحيل وعينها
الواسعتين ووجهها الشاحب وضمائرهما المجدولة المدلاة على كتفيها .
كانت تجلس على حجر فى مدخل البيت .. ونهضت لتحيته حين مر بها ..
وبدا لها من مظاهر الإعياء البادية عليه والغيار الذى علا جسده إنه لم ينم ليلته
.. وإنه أتى عملا شاقا مرهقا ..

وودت لو سأته عما فعل .. ولكنها كانت تحشاه وترهب الحديث إليه ..
لو أن إبراهيم هو الذى ذهب .. وخاض غمار معركة .. وعاد مرهقا متعبا
.. لأقبلت عليه فى لهفة .. وسأته عما فعل .. وكيف قاتل اليهود .. وكيف

(طريق العودة)

مهد لها طريق العودة ..

ولكن إبراهيم لا يذهب للقتال .. ولا يخوض غمار معركة .. ولا يفعل شيئا غير التطلع إلى وجه ليلي .. والحديث معها ..
ومر بها مراد .. ورمقها بنظرة خاطفة ثم تساءل :
— من بالداخل ؟

— السيدات .. إنهن ينتظرنك على الغداء ..
— ينتظرنني أنا ؟ كأنما قد ذهبت في نزهة .. لقد كان مفروضا ألا أعود ..
— حمدا لله على السلامة ..
— أى سلامة ؟ .. لقد عدنا ..
— ولماذا لم تعدموهم أنتم ؟ ..
— لماذا ؟ .. والله لا أعرف .. لا أعرف لماذا لا نقتل هؤلاء الكلاب ونفنيهم عن آخرهم .. بل لا أعرف لماذا تركتموهم يطردونكم من دياركم .. لماذا لم تطردوهم أنتم .. وتريجونا ..
— لم يكن معنا سلاح ..

— كان يجب ألا تتركوا بيوتكم أو تموتوا فيها .. لو أنكم كلكم بقيتم هناك .. لعرفتم كيف توجدون بينهم طابورا خامسا .. أو مقاومة شعبية تسهل عمل من بالخارج .. ولما تركتمونا نعمل الآن كأننا نحاول أن نغزو دولة معادية .. بدل أن نستعيد وطننا مغزوا ..

وطأطأت نبي رأسها وهي تسير بجواره .. وأحست بشيء من الضيق والألم .. لم تفهم الطابور الخامس أو المقاومة الشعبية .. ولكنها فهمت ما يقصد .. وأحست أنه على حق .. ولو كان الأمر بيدها لما هربت .. بل لفضلت الموت في ربوتها وعلى دربها وتحت كرمها ..
ولكن ماله يتحدث بقسوة هكذا .. كأنما هو خصم للناس كلهم ..

وكأنه يود أن يقاتل الجميع ..
إن إبراهيم لا يفعل هذا أبدا .. إنه يعطف عليها بلا لوم .. ويحنو عليها
بلا تأنيب وتقريع .. ولو خرج ليقاتل .. لعاد مرحا بشوشا ..
ولكنه للأسف .. لا يقاتل .. بل يجلس للحملقة في ليلي ..
ومرة أخرى أحست بتفور من ليلي .. إنها رغم كل ما بها من فضائل ومزايا
.. لا تحبها ..
ومهما حاولت أن تستر هذا الشعور .. الذى لا يغلب عليه الحب .. فهى
تضيق بها .. وباستحواذها على اهتمام إبراهيم ..
وعبر مراد الباب إلى الداخل .. ووراءه نهى ..
وجد السيدتين قد جلست إحداهما قبالة الأخرى .. مديحة كعادتها
منهمكة في عمل التريكو .. ولىلى تلاعب الصغيرة نادية ..
ولم ينهض لاستقباله أحد .. لقد قوبل كما يقابل كل يوم .. لقد رجع في
نفس الموعد .. وغياب الليل لم يكن أمرا غير طبيعى .. فقد تعودته منه في بعض
الأحيان ..
لم يبد على أحد أنه شعر بما لاقاه .. بالمعركة التى خاضها .. وبالمشقة التى
عانها .. وبالموت الذى واجهه ..
رفعت لىلى إليه بصرها .. ودون أن يلدو على وجهها أى تعبير .. قالت :
— أهلا ..
ولم تكلف مديحة نفسها مشقة رفع عينيها .. لفحصه .. فقد ميزته بخطواته
.. وكفتها أذناها مشقة التطلع .. وقالت :
— كيف الحال ..
ونظر إليها مراد في حلق مكبوت وقال في سخرية :
— رضا .. كانت سهرة رائعة ..

- وقبل أن يستمر في سخريته .. أحس من ورائه وقع أقدام إبراهيم وسمع
صوته .. وهو يدلّف من الباب ويرحب به في حماس :
- أهلا مراد .. حمدا لله على السلامة ..
— الله يسلمك ..
— مبروك ..
— الله يبارك فيك ..
— سمعنا أنكم استرددتم التبة ٨٦ .
— أنا أيضا سمعت هذا ..
— سمعت ؟ المفروض أنك فعلت .. لا سمعت .
— المفروض ..
— لست أفهم ما تقصد .. لقد قالوا أنكم استرددتوها .
— جائر ..
— جائر ؟! ألسنت متأكدا .. إن الدبابات هي التي استردتها ..
— جائر أيضا ..
— كيف ؟ .. ألم تخرج بكتيتك لاستردادها ..
— خرجت ..
— وماذا فعلت ..؟
— لم أستردّها ..
— هل التبة في أيدي اليهود حتى الآن .. لقد طلبوا مني إرسال فصيلة
لإصلاح الطريق هناك .. فكيف أرسلها إذا كنتم لم تستردوها ..
— لقد قلت إنى لم أستردّها أنا ..
— من الذين إستردّها إذن ..
— الكتيبة الأخرى .. لقد كنت مغلّب قط .. احترقت أنا .. وأكلتها

هى ..

— هى أو أنت واحد .. المهم أن التبة استردت .. وإنكم انتصرتم ..
وبدت لهجة الحدة فى صوت مراد .. وبدأت ثورته المكبوتة تنفجر :
— لم أنتصر .. لم أشعر بالانتصار .. لقد حطم الكلاب دباباقي ودمروا
كتيبتى .. وقتلوا جنودى وضباطى وعدت سائرا على قدمى كالشريد ..
فكيف أشعر بالانتصار .. الانتصار هو أن تشعر أنك اقتصصت لنفسك ..
ورأيت مصرع عدوك أمام عينيك .. أن تمزق جلده .. وتمص دمه .. أن تمزقه
لربا .. وتحس أنك فعلت به أضعاف ما فعل بك .. هذا هو الانتصار ..
وضحك إبراهيم وأجابه قائلا :

— أنت تريد انتصارا فى قتال الغاب .. تريد انتصارا خاصا .. لا انتصارا
للمجموعة التى تحارب فيها .. إن هزيمتك قد تكون جزءا من الانتصار العام
.. فلا تكن أنانيا ..

وصمت إبراهيم برهة ثم أردف فى مرح ..
— هيا بنا نأكل .. لا بد أنك جائع .. إن أكلة دسمة .. وحماما ساخنا ..
ونومة مريحة .. ستعيد إليك الطمأنينة والثقة ..
سأمنحك كأسا من الويسكى يهدى أعصابك .. وبعد الغداء ادخل
الفراش وأغمض عينيك ولا تستيقظ إلا غدا .. هيا ..

وارتمى مراد على المقعد فى إعياء قائلا :
— لن أستحم ولن أنام .. سأتناول لقمة ثم أذهب ..
وتساءلت ليلى فى شيء من الدهشة :

— إلى أين ؟

— إلى الإسماعيلية ..

— وله .. ؟

— ١٥٠ —

— عندى مأمورية لا بد أن أؤديها ..

— مأمورية وأنت فى هذه الحال ..

— ماذا بى .. ما زلت حيا أرزق .. لم أنقص يدا ولا ساقا ..

وتدخلت مديحة لأول مرة فى المناقشة قائلة :

— ولكنك فى حاجة قصوى إلى الراحة ..

— سأستريح فى الإسماعيلية ..

— ولماذا لا تستريح الليلة وتذهب فى الغد ..؟

— لأن المهمة عاجلة ..

وعلق إبراهيم فى سخرية ..

— عاجلة جدا ؟

وأجاب مراد فى اصرار ..

— جدا .. جدا .. وإذا لم تكفوا عن تدخلكم فسأذهب بلا طعام ..

وقالت ليلي فى استخفاف :

— كأنك ستأكل لنا .. افعل كل ما يحلو لك .. لن يتدخل أحد فى أمرك

.. فأنت أدري به ..

ورد مراد فى حدة وكأنه يوشك على الدخول فى معركة :

— ومن طلب منك أن تتدخل فى أمرى .. ومنذ متى كان أمرى يعنيك ..

أنت ..؟

وقاطعه إبراهيم :

— انتهينا .. لا داعى للمناقشة غير المجدية .. هيا نأكل وبعدها افعل ما يحلو

لك ..

وانتهوا من الطعام .. وغادر المائدة فى صمت .. ولم يمكث مراد أكثر من
بضع دقائق غسل فيها وجهه وأبدل ملابسه ، ثم انطلق بالعربة الجيب إلى

الإسماعيلية ..

وعادت السكينة إلى الدار مرة أخرى ..
وعادت مديحة إلى جلستها أمام المدفأة وأصابعها تعمل بالإبرتين الطويلتين
.. وجلست ليلي أمامها تتشاغل بتصفح كتاب . وعيناها ترمقان باب حجرة
إبراهيم بين آونة وأخرى ..

وأخيرا ظهر إبراهيم وقد ارتدى جاكته قصيرة من الجلد وتساءل :
— ألا يريد أحد منكما السير على الشاطئ ؟ ..

أجابت ليلي مرحة بالفكرة :

— ولم لا .. هيا يا مديحة ..

وردت مديحة في استنكار :

. — الآن .. وفي هذا البرد ؟

وأجاب إبراهيم :

— الجو في الخارج أدفاً من هنا .. وجلسة العجائز هذه .. تجمد الأطراف

.. هيا بنا ..

ولم تتحرك مديحة .. ونهضت ليلي موافقة وهي تقول :

— هيا يا مديحة ..

— اذهبي أنت معه ..

— ونتركك وحيدة ..

— سأجلس مع نادية ونهى ..

— بل سأجلس أنا معكم ..

— لا داعي لأن تضايقي نفسك ..

وأردف إبراهيم :

— لن نغيب كثيرا .. هيا يا ليلي .. إن مديحة متعودة على الجلوس .

البيت ..

وبدا التردد على ليلي ولكن إبراهيم جذبها من ذراعها . وخرج الاثنان إلى الشاطيء .. ولم يبد على ملاح مديحة الجامدة أى علامات للضييق .. وكانت مديحة قد آلت على نفسها ألا تضيق بشيء .. كانت كبرياءها تمنعها من أن تحس بأن هناك مبعثا للضييق .. كانت تحاول أن ترى فى كل ما بين ليلي وإبراهيم من مظاهر انسجام ومودة .. أمرا طبيعيا يجب أن يكون بين مضيف وزوجة ضيفه ..

وإبراهيم مخلوق مهذب .. وليلي إنسانة مهذبة .. والمفروض أن يكون بين الناس المهذبين مودة ورقة .. واستلطاف .. وحتى إذا زاد ما بينهما درجة .. عما يجب أن يكون ما بين الضيف ومضيفته .. فماذا يمكن أن يؤدى إليه ذلك .. ما أقصى ما تخشى أن يحدث فى بضعة أيام .. ستمر بالطول أو بالعرض .. وبعدها يفترق كل منهما إلى حيث لا لقاء .. المسألة تحتاج إلى بعض الصبر .. والبرود والأعصاب .. وهى والحمد لله لا تفتقر إلى شيء منها .

لقد أوشك الأسبوعان المفروض أن تمكثهما ليلي على الانتهاء .. وكانت تتوقع أن يعود بها مراد عند عودته هذه المرة .. ولكنه ذهب إلى الإسماعيلية دون أن يذكر شيئا عن سفرها إلى مصر .. ولم يكن من المعقول أن تسأله مديحة لماذا لا يأخذها معه .. والمسافة بين الإسماعيلية والقاهرة غير بعيدة .. على أى حال .. لا بد لها من الصبر والهدوء .. والحذر من أن تبدر منها بادرة ضيق .. فهى أدرى بإبراهيم وبمركب العناد فى نفسه .. إذا ما أحس أن شخصا يحاول أن يمنعه من شيء .. أو يجذب منه شيئا .. إن خير ما يعالج به المسألة هو الاستخفاف والتجاهل ..

والمسألة بعد كل هذا .. ليست مسألة .. إنها مجرد دردشة ورغى بين الاثنين .. واشتراك في التفاهة .. والخفة .. سينتهى برحيلها .. المهم أن ترحل ليلى .. قبل أن تضطر مديحة للرحيل .. فليس من اللياقة والأصول .. أن تبقى ليلى فى منزل رجل وزوجته غير موجودة .. وموعد مدرسة نادية قد حل .. وفات وهى متجاهلة .. حتى تسافر ليلى .. وهى قد تستطيع الرحيل .. لو أن مراد موجود .. ولكن ذهابه إلى الإسماعيلية .. قطع عليها كل تفكير فى العودة إلى القاهرة .. فليس من المعقول أن تسافر وتترك ضيفتها وحيدة مع زوجها .. إن هذا ليس من الذوق .. ولا من العقل ..

لا بأس .. قليل من الصبر يحل الموقف ..
يوم أو يومان ويعود مراد .. ويرحل بها إلى القاهرة .. وإذا لم يرحل .. فهو على الأقل سيبقى .. مع زوجته ..
وهو قبل كل شيء .. زوج ومستول عن زوجته ..
ولكن .. لماذا تقول .. كل هذا ؟
ماذا حدث .. ؟

إن مأخذًا واحدًا .. لا تستطيع أن تأخذه على إبراهيم أو ليلى .. ليس بينهما كلمة واحدة .. يجب ألا تقال .. أو تصرفا واحدًا يجب ألا يفعل ..
كل ما بينهما ليس إلا مظهرًا من مظاهر الذوق والرقعة .. وبينها وبين نفسها .. هذا ما يغيظها ..

لو أن بينهما شيئًا يؤخذ .. أو مغمزا يلام عليه .. لاستطاعت أن توقفه ..
لاستطاعت أن تلوم وأن تغضب ..

وبمثل هذه الأفكار استمرت أصابعها تروح وتجيء بالإبرتين الكبيرتين .. وعلى مقربة منها بجوار النافذة الكبيرة كانت تجلس الفتاة النحيلة .. ترمقها

بعينها الواسعتين ..
والتقت النظران ثم افترقتا .. وأحست مديحة بضيق من عيني الفتاة .. لقد
خيل إليها أنها تستشف ما في ذهنها ..
هذه الفتاة الصامته .. تعرف ما يدور برأسها .. وما يدور برؤوس
الآخرين .. إنها تعرف كل ما تحويه نفوس أهل هذا البيت ..
وهي لا تحبها .. ولا تعرف ماذا ستفعل بها بعد رحيلها .. لقد قال إبراهيم
إنه سيقبها .. وهو يدللها كثيرا .. تدليلا لا مبرر له .. وهو في غير حاجة إليها
.. وهي ليست صغيرة لكي تبقى مع رجل متزوج يعيش وحده ..
إن إبراهيم عاقل .. ولكن الناس أَلَسْتَهُمْ طويلة ..
لماذا لا يعيدها إلى المعسكر ؟ ..
ومرة أخرى عادت مديحة ترمق نهي ..
وكانت نهي تسبح ببصرها في الخارج .. لترقب شبحين يسيران الهويناء على
شاطيء البحر .. وراء النخيل ..
كانا يبدوان .. متلائين منسجمين ..
عجيبة هذه الدنيا ..
لماذا تخطيء في التوفيق بين الأشخاص .. أهي وسيلة من القدر لإثارة
الخطايا .. وخلق الذنوب ..
ما ضره لو ألقى بالائنين في طريق واحد قبل ..
إنهما متجانسان .. متشابهان .. متقاربان في كل شيء .. وبنفس كل منهما
للآخر شيء .. مهما حاولا إخفائه أو تحويره .. ومهما حاولا أن يسمياه ..
فهو أولا وآخر .. حب ..
وتلك الجالسة في صمت وهدوء .. ترقب كالصقر .. إنها تفهم كل
شيء ..

كل إنسان في هذا البيت يفهم .. ولكنه يتجاهل .. لأن الفهم يخيفه ..
مخلوق واحد لا يفهم .. لأنه لا يحاول أن يفهم .. هو هذا المقاتل ..
الصاحب العريد .. المخاصم لكل إنسان .. الثائر على كل شيء .. الذي لا يرى
في الحياة إلا لقمة تؤكل .. وكأسا تشرب .. وجسدا يحتضن ..
وعادت نهي تتبع يبصرها الشبهين السارين على الشاطيء ..
وانحدر الشبحان ليختفيا وراء الربوة ..

ومست أصابعه أصابعها .. فتوقفت الذراعان المهترتان وتشابكت
الأصابع .. وسرت في الجسدين هزة .. وأطبق الكف على الكف ..
وهمست ليلي وهي ترقب مغرب الشمس وسط السحب الحمراء :

— غروب الشمس جميل ..

— والشروق جميل ..

— والبحر جميل ..

— والسماء جميلة ..

— وأي شيء حولنا ليس جميلا !

— وددت لو داومنا المسير ..

— بلا عودة !!

— وددت أشياء كثيرة .. لا أستطيع نطقها ..

— وأنا وددتها مثلك ..

— وأحسست بالذنب .. لمجرد الرغبة فيها ..

— ولكنني لم أحسه .. ألا يكفي أن نحرم من الإفصاح حتى تود حرماننا
من التفكير ؟ دعنا نحلم .. ونحلم .. فليس أمام المحروم إلا أحلام اليقظة ..
إنها هنيهات مضيئة أشبه بومض البرق .. فلماذا تريد أن نغمض أعيننا
عنها ..؟

— أخشى أن يخطف الومض بصرنا ويتركنا بعدها في ظلمة مخيفة ..
لا نستطيع أن نبصر حتى الأشباح التي كنا نعيش فيها ..

الفصل السادس عشر

ثورة مظلوم

وقف مراد أمام مصعد العمارة التى تقطنها ريتا فى الإسماعيلية وقبل أن يجتاز الباب قال للبواب محذرا :

— اسمع يا عم محمد .. لقد مضى على ٤٨ ساعة لم أذق خلالها النوم .. فإذا كنت تنوى أن تؤذن الفجر .. فأذنه الآن .. الله لا يسيئك .
— نحن الآن فى منتصف الليل ..

— ولو .. أذنه مقدما .. وإلا فقسما بالله العظيم ثلاثا .. لن ينقذ عنقك من أصابعى أحد .. إذا كنت تصر على الأذان فصل ركعتين على روحك قبل أن تؤذن .. لأنى سأقتلك .. مفهوم ؟
وضحك عم محمد قائلا :

— مفهوم يا سعادة البيه .. لن أؤذن وذنبي فى رقبتك ..
— فى رقبتى .. فى رقبتى .. دع حسابه لى .. سأضيفه إلى بقية ذنوبى ..
يحلها ربنا يوم القيامة .. المهم أن تدعنى أنام الليلة ..
ودخل مراد المصعد .. واتكأ على بابيه منها .. ثم ضغط الزر الرابع ..
وأخذت الأبواب تتوالى أمام عينيه حتى توقف المصعد .. واتجه مراد إلى باب فى مواجهته مباشرة .. وكان تبعه قد بلغ أقصاه .. ووقف أمام الباب يدق الجرس .. وانتظر برهة فلم يسمع وقع خطوات ولا إجابة .. وعاد يرن الجرس بطريقة أكثر عنفا وأشد إلحاحا .. ولكن الصمت استمر مخيما .. وبدأ مراد يحس بالضيق والغضب .. ومد قبضته يدق بها الباب فى حدة .. حتى

كلت قبضته ..

وتلفت حوله فى يأس وهو يهز الباب فى عنف .. أين ذهبت هذه الحيوانة ؟
غير معقول أن تكون نائمة مع كل هذا الدق .. لعلها لم تعد بعد .. ولكن
لماذا لا تفتح الخادمة ..

لعنة الله عليها .. إنه يريد فقط أن ينام .. يريد فراشا دافئا .. وهز الباب هزة
أخيرة .. ثم اتجه إلى المصعد وكان ما زال معلقا .. فهبط به وهو يكاد يسقط
إعياء ..

لماذا يأبى النحس أن يفارقه ؟ ..

ألا يكفى ما حدث له فى الميدان ؟ ..

لقد كان يبنى نفسه .. يحضن لين دافئ .. وعشاء دسم .. ولكنه بات
الآن لا يكاد يحصل على مستقر لجسده .. حتى لكأن القدر يصر على أن يتركه
يقظا ..

والعربة قد صرفها وأمر سائقها بالذهاب إلى المنطقة ..

ووقف فى فناء العمارة ينظر حوله فى يأس .. واتجه إلى حجرة عم محمد ..
وطرق بابها .. وخرج إليه الرجل يتسائل فى دهشة :

— أى خدمة يا سعادة البية ..

— أين مدام ريتا ؟ ..

وبمتهى البساطة أجابه الرجل :

— سافرت ..

— إلى أين ؟ ..

— إلى بلدها ..

— ولماذا لم تخبرنى ؟ ..

— لأنك لم تسألنى ..

— غبى .. أهذا أمر يحتاج إلى سؤالك .. ألا تعرف أنى .. صاعد إليها ..
— أعرف أنك صاعد إلى مدام ريتا .. أى ريتا .. أنتظن أن لدينا فى العمارة
ريتا واحدة ! ..

— أتمزح يا عم محمد ..

— لا والله يا سعادة البية .. العمارة كلها هكذا .. إنى أؤذن .. فى مالطة ..

— وما العمل الآن .. إنى أريد أن أنام ؟ ..

— لو كانت حجرتى قدر المقام لأخليتها لك ..

— ألا تستطيع أى ريتا أخرى أن تستضيفنى ؟ ..

— فى مثل هذا الوقت يا سعادة البية .. ؟ ..

— ولم لا .. سواد الليل فقط ..

وصمت عم محمد برهة .. ثم رفع رأسه قائلاً :

— تعال .. سنطرق شقة مدام فيكى .. إن لديها حجرة تريد أن تؤجرها ..

ومرة أخرى عاد مراد إلى المصعد فى رفقة البواب .. وضغط الرجل على

الزر السادس واتكأ مراد على جدار المصعد وأغمض عينيه ونام ..

وتوقف المصعد .. وفتح الرجل الباب .. وانتظر أن يخرج مراد .. ولكنه

لم يتحرك .. ونظر إليه فوجده قد أغمض عينيه فهتف به :

— اتفضل يا سعادة البية ..

ونفض مراد رأسه ثم سار وراء البواب حتى توقف أمام أحد الأبواب ..

وقبل أن يدق الجرس التفت إليه فجأة قائلاً :

— مدام فيكى عمرها سبعين سنة يا سعادة البية ..

— سبعين .. ثمانين .. أليس عندها فراش ؟ ..

— إنى أحذررك فقط .. الشرط نور ..

— إنى أريد أن أنام .. يا عم محمد .. لقد مضى علىّ يومان بلا نوم

.. فاهم ؟ ..

ودون أن يرد الرجل مد يده فدق الجرس .. ومضت برهة قبل أن يسمع
وقع أقدام متناقلة توقفت وراء الباب .. ثم علا صوت رفيع يتساءل في حذر :

— مين ؟

— أنا يا مدام فيكى ..

— أنت مين ؟

— عم محمد ..

— ماذا تريد في هذه الساعة ؟

— لدى مستأجر للحجرة ..

— في منتصف الليل ؟ .. دعه يأتى في الصباح ..

— إنه لا يجد مكانا ينام فيه .. ويريد أن يستأجرها من الليلة ..

وساد الصمت برهة .. ثم سمع صوت دوران المفتاح وفتح الباب في حذر
.. وأطل وجه نحيل ملء بالتجاعيد .. وعندما وقع بصرها على مراد بملايسه
الرسمية فتحت الباب في اطمئنان وقالت مرحبة :

— أهلا وسهلا .. تفضل ..

ودخل مراد مترنحا .. وعيناه شبه مغمضتين .. واستمرت العجور في
ترحيبها :

— أهلا وسهلا .. اتفضل يا كابتن .. الحجرة ستعجبك جدا .. إن بها
نافذة تطل ..

وقاطعها مراد بقوله :

— أين الفراش يا مدام .. إني لا أريد أن أطل على شيء .. أريد فقط أن
أنام ..

واجتاز مراد باب الحجرة .. ووقعت عيناه على الفراش .. وبعد دقيقة

واحدة .. كان ملقى عليه يغط في نومه .. تاركا العجوز تحدث نفسها ..
وعندما فتح عينيه .. كانت الشمس تملأ الحجرة .. وظل برهة يحلق فيما
حوله .. دون أن يدري أين هو .. حتى استطاع أن يذكر مدام فيكى ..
ونظر إلى الساعة في معصمه فإذا بها العاشرة ..
وتمطى .. وفرك عينيه .. وأخذ يفكر فيما يمكن أن يفعله في الإسماعيلية ..
وأى مغامرات يستطيع أن يضيع فيها بضعة أيام .. دون ريتا .. وقبل أن يستقر
على رأى .. سمع وقع خطوات تسير خارج الحجرة ..
لم تكن خطوات متناقلة .. كخطوات مدام فيكى .. بل كانت خطوات
أسرع وأخف .. جعلته يستبشرا خيرا .. ودفعته إلى أن يقفز من الفراش ويفتح
الباب ليرى صاحب الخطوات .. أو صاحبها .. كما كان يأمل ..
فتح الباب .. وبدل أن يبصر جسدا أهيف غضا .. أبصر جسدا ضخما
.. ورأسا أصلع .. استطاع أن يميز منه .. من ظهره .. الصاغ عبد العاطى ..
زميله في الفرسان والقائد السابق لكتيبته .. والمتدب بإدارة كاتم أسرار ..
وهتف مراد بلا إرادة :

— عبد العاطى .. يخرب بيتك .. ماذا أحضرك هنا ؟

وتلفت عبد العاطى في ذهول .. ولم يكده يقع بصره على مراد حتى صاح
به في دهشة أشد :

— مراد ؟ .. ماذا أحضرك أنت .. فقد ظننتك في أرض المعركة ..

— لقد انتهينا من المعركة ..

— مبروك .. لقد كانت عملية رائعة ..

— الله يبارك فيك .. كانت عملية مروعة ..

— احك لى .. تعالى نجلس .. وقص على بالضبط ماذا حدث ..

ودخل الاثنان حجرة مراد .. وأغلق عبد العاطى الباب وجلس على مقعد

كبير .. وجلس مراد أمامه على طرف الفراش ..

وابتسم عبد العاطى وهو يفرك يديه قائلا :

— لا يمكنك أن تتصور فرحتى عندما علمت بانتصاركم وطردكم اليهود ..
لقد أصابنى الحنين إلى الكتيبة وتمنيت لو كنت معكم .. أخوض المعركة إلى
جواركم .. كيف حال الكتيبة .. وكيف حال نفيسة ؟ ..

وأطرق مراد وأجاب فى اقتضاب :

— حرقتم ..

— حرقتم ؟! .. كيف ..؟

— أحرقتها أنا ..

— غير معقول .. لماذا ؟

— حتى لا تقع فى أيدي اليهود .. وعدت وحدى سائرا على قدمي .. تماما
كالعائدين من « مولز » الذين كنا نراهم فى الأفلام التى كانوا يعرضونها علينا
فى الكلية الحربية عن حرب ١٩١٤ ..

— وبقية الكتيبة ؟

— دمر معظمها ..

— ولكننا سمعنا أنكم انتصرتم .. لقد أبلغونا رسميا أنكم كسبتم المعركة
وطردتم اليهود من التبة ٨٦ بعد أن أحدثتم بهم خسائر فادحة ..

— أنا أيضا أبلغت هذا .. لقد أوقعت بقوات اليهود .. شرا مما أوقعوا بى ..
لقد أفنى كل منا الآخر .. ولكن الذى جنى ثمرة المعركة .. والذى فرت
بقايا اليهود أمامه .. دون أن يطلق طلقة واحدة .. هو مرسى .. لقد خسرت
أنا كتيبتى .. ولكن الآلاى كسب المعركة .. هل فهمت ؟ ..

وأطرق عبد العاطى برأسه .. قائلا :

— فهمت ..

وصمت عبد العاطى برهة .. ثم هز رأسه وأردف ضاحكا ..
— المهم هو أننا طردناهم وكسبنا المعركة .. والفضل على أية حال يرجع إليك .. وإلى كتيبتنا .. كتيبة الأسود ..
ولم يجاوبه مراد فى مرحة .. بل بدا مستغرقا فى شروء حزين .. وحاول عبد العاطى أن يخرجـه من وجومـه .. وأن يدخل عليه السرور ببعض ذكرياتهما المرحـة .. فسأله ضاحكا :

— أتذكر عندما ذهبنا سويا فى الإسكندرية .. إلى أم قرى ..
ولم يبد على مراد أنه يتبع حديثه .. أو أنه يريد أن يذكر شيئا مما يذكره به .. وقاطعه متسائلا :

— لم تقل لى ماذا أحضرك إلى هنا ؟
— لقد كنت فى طريقى إليكم .. ومررت بقائد منطقة القناة .. وقلت أبيت ليلتى عند مدام فيكى .. لأنها معرفة قديمة .. عندما كنت أخدم بالإسماعيلية .. وسأعاود السفر اليوم إلى العريش ..

— وماذا ستفعل فى العريش ؟
— سأقابل قائد الفرقة .. للتفاهم معه على حركة التنقلات التى يود إجـراءها ..

— هل هناك ضباط سينقلون الآن ؟
— بعض الذين لا يريدـهم قائد الفرقة ..
— ليتنى أنقل فى الحركة القادمة !
— أمجنون أنت !
— لماذا ؟

— تنقل فى هذه الظروف ؟..
— لقد قرنت ..

- ولكنهم لن يستغفروا عنك ..
- ومتى ستصدر النشرة ؟
- بعد بضعة أيام ..
- تنقلات فقط ؟
- وبعض إنعامات بنيامين وترقيات استثنائية .:
- ترقيات استثنائية ؟
- أجل .. ترقيات ميدان .. للذين أدوا خدمات جليلة في المعركة ..
- ألدريك فكرة عنهم ؟
- ليس بالضبط ..
- من من الفرسان ؟
- وتردد عبد العاطى برهة .. ثم هز كتفيه قائلاً :
- والله لا أعرف ..
- لا تكن خبيثاً .. ولا تعمل عليّ كاتم أسرار .. قل ..
- سأقول .. على أن تعدني بالأخبار أحدا ..
- أعدك ..
- سيرق منصور إلى قائمقام .. وسينعم على مرسى بنيشان النيل ..
- وأحسن مراد كأنما قد لسعته عقرب .. وتساءل كالماًخوذ :
- منصور .. ومرسى ؟ .. لماذا ؟ ..
- بناء على طلب قائد الفرقة لما أبدياه في معركة التبة ٨٦ ..
- وعاد مراد يسأل مشدوها :
- وأنا ؟
- وصمت عبد العاطى وهو يحس حرجاً شديداً .. وتردد برهة .. وبداه
- أن يتخذ الموقف بالتراجع أو الكذب فقال :

— ربما .. أنا فى الواقع لا أعرف بالضبط ..

— لا تكذب .. أنت تعرف كل شىء .. قل الحق .. فسأعرفه غدا .. إن لم أعرفه اليوم ..

— الحقيقة .. إنه لم يطلب لك شىء .. لست أدرى لم .. لقد ظننتك لم تشترك فى المعركة ..

— لم أشترك فى المعركة ؟ .. لقد كنت أنا المعركة .. لقد حطمت أعصابى .. وفقدت قواى .. لقد رأيت الموت .. فى لحظة .. لقد خضت الألغام .. واصطليت من القنابل .. أصم أذنى دوى المدافع .. ثم تقول لئننى لم أشترك فى المعركة ..

— أنا لم أقل هذا يا مراد .. لقد قلت إنى ظننت عندما رأيت أنه لم يطلب لك شىء ..

واستمر مراد فى هديره .. وهو يكاد ينفجر :

— الذين لم يطلقوا طلقة واحدة .. باعترافهم .. يأخذون الرتب والنياشين .. وأنا الضحية الوحيدة .. كبش الفداء .. مخلب القط .. أخرج من المولد بلا حمص ..

— ربما ستأخذ فى النشرة القادمة ..

— لن آخذ شيئا .. أنا أعرف السبب .. ما دام منصور قائد الآلاى فلن أحصل على شىء .. إنه يكرهنى .. لقد دفعنى إلى الموت .. وسار هو مع مرسى .. فى نزهتهم التى انتهت به إلى التبة ٨٦ .. فأكلوها باردة .. ونسبوا الفضل إلى أنفسهم .. لقد قلت له هذا .. إنى لم أسكت .. لقد شتمته فى وجهه .. ولكنى لم أعرف أن النذالة ستصل به إلى الحد الذى يجرمنى من حقى .. بعد كل ما فعلت يأخذ هو الترقية ويعطى مرسى التيشان ..

— هدىء نفسك يا مراد .. كل شىء يمكن إصلاحه .. إنك تستطيع

التظلم ..

— لن أتظلم .. أنا لست امرأة .. إني سأذهب إلى هناك وأضربه ..

— لا تكن أحمق .. إنك ستضيع مستقبلك ..

— في ستين داهية .. ماذا سيفعلون بي أكثر من هذا .. سيطردوني من الخدمة .. ليكن .. لقد زهقت ..

ونفض مراد من مكانه .. وبدأ يرتدى ثيابه وهو مستمر في ثورته وعبد العاطى يحاول تهدئته ..

وعندما أتم ارتداء ثيابه هم بالخروج .. فسأله عبد العاطى :

— إلى أين ؟

— سأعود إلى العريش .. سأريهم كيف يفعلون بي هذا .. وأنا لست هفية ..

— انتظرنى .. سأأتى معك .. سنأخذ أول قطار ..

— إن معى عربة جيب سأذهب بها ..

— إذن آتى معك فيها .. انتظرنى حتى أدفع الحساب ..

وبعد لحظات كانت العربة الجيب تنهب الطريق بالائنين عائدة إلى العريش ..

الفصل السابع عشر

مزيد من الصبر

دق جرس التليفون في بيت العريش .. وكان النهار قد انتصف وأسرعت
مديحة إلى السماعه مجيئة :
— أفندم ..
وسمعت صوت عامل التليفون يقول :
— معاك البيت يا فندم ..
وتلاه صوت إبراهيم يتساءل :
— مديحة ..
— أجل ..
— ماما تتحدث من مصر وهي تتعجل نزولك ..
— دعنى أتحدث إليها ..
ودق إبراهيم التليفون بضع دقائق ثم قال للعامل :
— حول الخط على البيت ..
وبعد لحظة وصل إلى مديحة صوت أمها من بعيد يقول :
— صباح الخير يا مديحة ..
— صباح الخير يا ماما ..
— كيف حالكم وكيف حال نادية .. لماذا تأخرت في الحضور .. لقد
فات موعد دخول نادية للمدرسة ..
— سنحضر قريباً إن شاء الله ..

— ومدرسة نادية ؟
— لتأخر قليلا يا ماما لا يهم أن تفوتها بضعة أسابيع .. إن الجو هنا لطيف .. والبحر ممتع ..
— ولكن .. لا بد من الحضور ..
— لماذا ؟ ..
— لأن بابا .. مريض ..
— كيف .. ومتى ؟ ..
— لقد مضى عليه أسبوع وهو راقد في فراشه .. والدكتور محسن قال إن كبده متعبة .. والدكتور محمود ابن عمك قال إنها الكلى .. والحالة ملخبطة ..
— ولماذا لم تقولى لى ذلك من أول الأمر ؟
— لقد توقعت أن تيجئى من نفسك لأجل مدرسة نادية .. ولم أرد أن أزعجك ..
— كان يجب أن تخبرينى فى الحال ..
— إن الحالة لا تستدعى مثل هذا الانزعاج ..
— سأحضر فى أول قطار ..
ووضعت مديحة السماعة .. ثم تلفتت حولها فى حيرة واضطراب ..
كان يجب أن تسافر من قبل لأجل نادية .. ولكنها ظلت تؤجل السفر يوما بعد يوم ..
دفعها إلى ذلك إحساسها الداخلى الذى يحيط بزوجها .. خطر ليلى ..
لاخطر الميدان ..
الخطر الخفى الذى تأبى أن تعترف — حتى بينها وبين نفسها — بمجرد وجوده .. ولكنها بغريزتها كأنثى كانت تقف متحفزة لصده ..
وكانت تحس أن وجودها بجوار إبراهيم .. يمنحها نوعا من السيطرة على

الموقف .. وحفظ زمامه في يديها .. وجذبه إذا ما أوشك أن يفلت ..
من أجل ذلك .. حاولت التسمييف في الرحيل مدعية أنها تريد المزيد من
الاستجمام للطفلة .. حتى يرحل مصدر الخطر .. وتأمين على إبراهيم منه ..
ولكن نبأ مرض أبيها المفاجيء .. قد أوقعها في مأزق .. ووضعها بين شقي
الرحى ..

وهي امرأة واجب .. لا تستطيع أن تهمل واجبها نحو أبيها لمجرد رغبتها في
الاستجمام .. يأبى عليها ذلك سلامة منطقتها .. ودقة تصرفها .. ويأباه عليها
أمام نفسها شعورها نحو أبيها .. شعور ملء بالحب والعرفان بالجميل ..
يوجب عليها أن تكون بجواره في مرضه .. بدلا من أن تلزم جوار زوجها لمجرد
الإحساس بخطر .. خفى موهوم ..

ولم تتردد لحظة واحدة في تقرير السفر بدليل تأكيدها لأمرها بأنها ستسافر
حالا .. دون أن تفكر في حالة الخطر المحيطة بزوجها ..

ولكنها لم تكد تضع السماعه .. حتى عادت تفكر في ليلي ..

ومرة أخرى بدأت مطارق الغيرة تدق ..

لقد طالعت إقامتها من غير ما مبرر .. المفروض أنها حضرت للإقامة بضعة
أيام .. وقد أتت لأنها هي موجودة .. ولأن هناك ربة بيت تستضيفها
وتتحدث معها ..

أما الآن .. فعلام مقامها وربة البيت توشك أن ترحل . أليس من الواجب
أن تسافر معها ؟

وملأها الخاطر إحساسا بالراحة ..

أجل .. هذا هو الشيء الطبيعي ..

ولو عرضت هي عليها .. لما بدا ذلك منافيا للذوق .. ولما ترددت في

قبوله ..

ستخبرها بمرض أبيها وعزمها على الرحيل .. وتسألها عما إذا كانت تود أن
تسافرا سويا .. بحجة الالتئاس وقطع وحشة السفر وطول الطريق ..
ولا تظنها ستقول .. لا ..
فمن غير المعقول أن تبقى وحدها ، لم يبلغ بها سوء النية والتبجح هذا
الحد ..

قد تحتاج إلى إذن من زوجها .. أو على الأقل قد تدعى هذا ..
لا بأس من الانتظار حتى يأتي مراد .. وهى لا تظن غيبته ستطول ..
ولا تظنه كذلك سيبصر على إبقائها ..
وملأتها النتيجة التى أوصلها إليها تفكيرها بالطمأنينة .. وكان عليها أن تبدأ
بتنفيذ فكرتها .. وعرض السفر على ليلي ..
ولم تكد تخطو بضع خطوات .. حتى طرقت أذنيها صرخة حادة جعلتها
تقف في مكانها مشدوهة .. ثم تندفع بعد لحظة إلى مصدر الصرخة في فزع
وذهول ..

كانت الصرخة .. صرخة نادية .
واندفعت مديحة تصيح في لهفة :
— نادية .. حبيبتي ..

ولم تكد تصل إلى باب الصالة المؤدى إلى الحديقة حتى أبصرت نادية
معلقة على حافة التكية .. وقد انزلق السلم الخشبي من تحت قدميها .. وهى
تحاول أن تمسك بعش عصفور ..

وقبل أن تتحرك مديحة لإنقاذها أبصرت ليلي تعدو من الحديقة حتى
وصلت إلى التكية ووضعت السلم الخشبي مكانه واندفعت تصعد لالتقاط
نادية وهى تحاول طمأنتها :

— لا تخافى يا حبيبتي .. أمسكى فى ..

واحتضنتها نادية .. ولكنها لم تكذب تبدأ الهبوط حتى انزلق السلم مرة أخرى .. ووجدت ليلي نفسها تندفع إلى أسفل لترطم بالأرض في عنف وهي تضم الطفلة إلى صدرها ..

ولم تستغرق الحادثة أكثر من ثوان .. اندفعت الأم بعدها كالماخوذة إلى حيث سقطت ابنتها بين ذراعي ليلي ..

ومدت مديحة ذراعيها لتلتقط الطفلة وتحسسها في جزع .. ورفعت ليلي بصرها وهي راقدة على الأرض لتسأل في لهفة وألم :
— أبها شيء ؟ ..

واستمرت الأم تضم ابنتها وتحسسها في خوف ثم قالت لاهثة :
— لا أظن .. وأنت ؟

وكانت ليلي ترقد فوق السلم وقد التوت ساقها اليمنى تحته ، وبدت على وجهها مظاهر ألم شديد . ولم تستطع أن تكتم أنينا انطلق من شفتيها .. وعادت مديحة تسأل :

— ما بك يا ليلي ؟

— لا شيء .. إنها سقطة بسيطة ..

— ولكنك تتألمين ..

وعادت ليلي تكمن وهي تحاول جهدها أن تتجلد وأن تنهض من سقطتها .. واستمرت مديحة تسأل وهي تحمل طفلتها ..
— ماذا يوجعك ؟

— قدمي .. لقد التوت أسفل السلم ..

— ألا تستطيعين الوقوف ؟

وهمت ليلي بالوقوف .. ولكنها أحست بوخز شديد في قدمها .. فصرخت ثم عادت إلى الأرض ..

ووضعت مديحة نادية على الأرض ثم انحنى على ليلى تحاول مساعدتها على النهوض قائلة :

— امسكى ذراعى واتكئى على ..

— لا أستطيع .. أنى أحس فى قدمى بألم شديد ..

وفى تلك اللحظة بدت نهى من باب الحديقة .. فصاحت بها مديحة :

— نهى ..

وتلفتت الصبية التى بدت كأنها مقبلة من جولة شروود مما تعودت أن تهيم خلالها على الشاطئء ووسط الرمال ..

ولم تكذب نهى تبصر ليلى راقدة حتى اندفعت تجاهها متسائلة فى جزع :

— ماذا حدث ؟

وأجابتها نادية وقد جلست بجوار ليلى :

— لقد تسببت فى سقوطها .. حاولت أن أحضر عشب العصفير الذى رفضت أن تحضره لى فانزلت لى السلم .. وصرخت .. فأنت لانتقذى ولكن السلم سقط بنا سويا ..

وانحنى نهى فى جزع على ليلى وقد تفرقت الدموع فى عينيها :

— أحدث لك شىء ؟

وصاحت بها مديحة :

— اذهبى بسرعة وإطلبى إبراهيم فى التليفون .. وقولى له أن يحضر طبيباً معه لأن ست ليلى سقطت على قدمها .. وأرسلنى إلى عبد الرازق من المطبخ ليعاوننى على نقل ليلى إلى الداخل .. أسرعى ..

— حاضر ..

وانطلقت نهى تعدو إلى الداخل .. وقد بدا عليها الجزع والقلق .. وبعد لحظة أقبل الطباخ مندفعاً من الداخل .. وتعاون مع مديحة فى حمل ليلى .. وهى

تكن أنينا متقطعا .. وقد بدا على وجهها أشد أمارات الألم ..
وعندما رقدت ليل في فراشها .. بدا ذهن مديحة يفيق من صدمة الحادثة
.. ليفكر في نتائجها ..

هذه مشكلة جديدة لم تكن في الحسيان ..
بل يبدو أنها معضلة لا تحل .. وإنه ليس هناك من سبيل أمامها إلا التسليم ..
أهذا وقته !!
أهذا وقت تسقط فيه وتكسر ساقها ..
ولكنها لم تكسر .. إن ما بها مجرد جزع .. أو التواء سرعان ما ستشفى
منه ..

ولكن وقته غير مناسب .. كان المفروض أن تعرض عليها السفر الآن معها
.. وأن تبدأ في حزم حقائبها .. للسفر في أول قطار كما وعدت أمها ..
ولكن يبدو أن الظروف تصر على بقائها .. حتى لكأن القدر يدبر أمرا ..
ويعد له خطة ..

لو لم ترها تسقط أمامها .. لظنتها مدعية ..
ولو لم تسقط لإنقاذ ابنتها ل قالت مسألة مدبرة ..
ولكنها رأيتها بعينها .. ولولاها للقيت نادية نفس مصيرها .. بل من يدرى
.. ربما أشد .. لقد اقتدت بنفسها ابنتها ..
مع ذلك .. تحاول هي لومها ..
يا للسخافة .. لماذا تنحرف أذهانتنا .. في تفكيرنا .. مثل هذا الانحراف
المزرى ..

— لماذا تعيدنا أذهانتنا .. إلى ذاتنا ؟ .. لماذا تكرهنا على ألا نفكر إلا في
مصلحتنا ؟ ..

الآن تفكيرنا .. لا يطلع عليه الغير .. فنحن نتحرر فيه من كل مظاهر الخير

المتكلف المفتعل ..

على أية حال .. إن المسألة من كل وجوها مزعجة ..
ورقدتها هذه مؤلة .. من كل وجهات النظر ..

من وجهة النظر العامة والخاصة ..

فهى تكره لها أن تصاب .. لأنها تكره للناس الأذى ..

وهى تكره أن تصاب فى هذا الظرف .. لأن المفروض أنها كانت ستسافر
معه .. فتخلصها من وضع شاذ .. مقلق .. لا تعرف إلى أى مدى يمكن أن
تصل نتائجه ..

وجهة نظر .. واحدة .. قد تجد المسألة .. ليست بالإيلام الذى
تتصوره ..

وهى وجهة نظرها هى .. المصابة نفسها ..

أجل .. من يدرى .. قد يسرها أن تبقى فى القراش مريضة ضعيفه ..
لتلهب المشاعر .. ويبدأ الجو وتكمل القصة ..
ووجهة نظره هو ..

ولكن .. لماذا كل هذا السخف فى التفكير .. لماذا كل هذا الإمعان فى سوء
الظن ..؟

وعلام تلوم ليلي ..؟

وأحست مديحة بشيء من تأنيب الضمير .. إنها تتألم .. ومع ذلك
لا ترحمها مديحة فى انطلاقة ذهنها المتهم .. الوسواس ..
وسمعت صوت عربة تقف فى الخارج ..

واقتربت الخطوات من الباب ..

كان هناك أكثر من شخص .. لا شك أنه إبراهيم ومعه الطبيب ..
ما أسرع ما قدم .. لكأنه قد هبط بالبراشوت .. أكل هذا .. لأن ليلي

سقطت ..

ترى ماذا سيفعل عندما يراها راقدة .. تكن ..
هل يستطيع أن يسيطر على مشاعره أمام الناس .. أم تراه سيفقد
أعصابه ..

ولكن لماذا تتوقع هي أن يفعل شيئا غير عادى ..
لماذا تحس شيئا ..

ولم لا ؟

أليس هناك شيء ؟ .. ألم تعترف هي بذلك بينها وبين نفسها .. لماذا تحاول
أن تهرب منه .. لماذا تحاول أن تخفى رأسها في الرمال .. لماذا تتهرب ..
واقترب وقع الأقدام .. وتمنت لو تركت الحجرة ..
ولكن قبل أن تغادرها .. فتح الباب ..
ولم يكن الداخل إبراهيم .. بل كان مراد ..
ونظر مراد إلى الحجرة في دهشة .. وتنقل بصره بين وجه مديحة الجزع ..
ووجه ليلي الشاحب من فرط الألم .. ثم تساءل في دهشة :
— ما الحكاية ؟ ..

وأحست مديحة بالراحة .. من وجود مراد .. لقد كان مجيئه حلا سعيدا
للموقف .. إن عليه أن يتولى أمر زوجته .. وأجابته مديحة في إعياء :
— لقد سقطت ليلي على ساقها ..
— كيف ؟ ..

— كانت تحاول أنزال نادية من فوق التكهية .. فسقطت والتوت ساقها
تحت السلم ..

ولم يبد على مراد .. جزع شديد .. وهز رأسه في يأس قائلا :
— بجملة .. المصائب لا تأتى فرادى ..

واقترب من ليلى ونظر إليها وهو يبرز رأسه قائلا :

— تصورى .. بعد كل ما حدث .. رقى منصور إلى قائمقام .. وأخذ
مرسى نيشان النيل .. وخرجت أنا من المولد بلا حمص .. لقد قررت أن
أستقيل .. ولكن بعد أن أضربهم جميعا .. لا بد أن أقتلهم .. أنا يفعلون بى
هذا .. !؟

ولم تجبه ليلى .. وبدا كأنها توشك أن تروح فى إغماء بعد أن خفت
أنينها ..

ونظرت مديحة إلى مراد فى دهشة .. إنه لم يأبه كثيرا لما أصاب ليلى ..
لعله لم يقدر حقيقة ألمها ..
أو لعل النيشان والترقية .. أهم كثيرا من ليلى .. لماذا لا يفكر إبراهيم مثله
.. فى ترقية أو نيشان ..

ترى ماذا سيصنع عندما يرى ليلى فى مرقدها ..

وقطع مراد عليها تفكيرها متسائلا :

— اتغديتم ؟ ..

وزادها سؤاله دهشة .. ولكنها لم تملك سوى الإجابة فقالت :

— لم نتغد بعد ..

— إن معى الصاغ عبد العاطى .. ونريد الذهاب إلى رفح بسرعة .. هل
نستطيع أن نتناول لقمة ؟

ونظرت إليه مديحة فى حيرة .. ثم نظرت إلى ليلى الملقاة فى شبه إغماء .. ثم
قالت فى تردد :

— حالا .. بمجرد أن يصل إبراهيم مع الدكتور ..

— دكتور .. أحتاج المسألة إلى دكتور ..؟

— ألا ترى ما بها ؟

— لقد تعودت منها السليطة ..
وقبل أن تجيب مديحة .. وقفت عربة أخرى .. وبعد لحظة دخل إبراهيم
مندفعا .. وقد بدت على وجهه أمارات الجزع .. وصاح كالمشذوه :
— أين ليلي .. ماذا بها ؟
ثم اندفع إلى فراشها .. وأمسك بيدها هاتفًا :
— ليلي .. ليلي .. ماذا بك ؟ ..
وأحست مديحة بما يشبه اللطمة .. أو الطعنة .. ولم تستطع أن تقول
شيئا ..
لم يكن هناك مجال للوم .. أو للغضب .. ماذا كانت تستطيع أن تقول
له ؟ ..
أتقول له لا تجزع .. لا تخف ..
أتقول له إن زوجها .. تحدث عن النياشين والترقية .. وطلب الغداء ..
غير معقول .. هذه أشياء لا تقال ..
إذا فقد هو أعصابه .. فيجب أن تتألك هي أعصابها ..
وتقدمت لاستقبال الطبيب قائلة في هدوء :
— تفضل يا دكتور ..
لقد كان عليها أن تتمسك بمزيد من الصبر .

الفصل الثامن عشر

شعر التجربة

انتهى الضابط الطبيب من تشخيص ليلى .. وحاولت ليلى أن تكتم
آلامها .. وكانت عيناها تلتقيان بين آونة وأخرى بعيني إبراهيم .. فكانت
تجد بهما شيئا ممتعا ملطفا لآلامها ..
كانت تجد جوابا لإحساسها .. وردا صريحا قاطعا .. جازما من اللفة
والجزع .. و .. الحب .

كانت بعينه .. بدل النظرة .. ضمة .. وبدل اللمحة مسة ..
كانت تحس كأنه يتحسسها في رفق ويربثها في إشفاق .. ويضمها في
حنان ..

ومن حولها .. كانت نظرات لفة أخرى ..
كان مراد .. يتلهف على أن ينتهي الطبيب من فحصه .. حتى يستطيع هو
الذهاب إلى رئاسة الآلاى .. ليفرغ ثورته ويصب جام غضبه .. ويطالب
بحقه في الترقية والنياشين .. ويلعن أباهم .. واحدا .. واحدا ..
وكانت مديحة .. تتلهف على معرفة النتيجة ..
ما مدى إصابتها .. هل تستطيع السفر ؟
هل تحتم إصابتها رقدة .. طويلة ؟

وتحدث الطبيب .. مجيبا على لفة الثلاثة .. قائلا في تردد :
— أعتقد أن هناك شرخا .. أو كسرا .. لا أستطيع أن أجزم ..
وكانت لفة إبراهيم أقوى اللفات الثلاث .. فلم يستطع أن يترك الطبيب
(طريق العودة)

يتم حديثه .. وقاطعه متسائلا :

— والعمل .. ماذا ستفعل ؟

— المفروض أن نعمل للإصابة بصورة بالأشعة .. ويستلزم هذا أن تنزل إلى القاهرة ..

وأحست مديحة .. بأن الأزمة قد انفرجت .. وقالت في حماس :

— أجل .. لا بد من هذا .. إني سأنزل في أول قطار .. ويمكنني أن أرافقها حتى المستشفى ..

ونظر إبراهيم إلى ليلي في جزع .. ثم حول بصره إلى الطبيب متسائلا :

— هل تستطيع السفر وهي على هذه الحالة ؟

وأجابت مديحة بسرعة :

— إني سأتولى العناية بها .. وأعتقد أننا نستطيع أن نعملها حتى المحطة وفي القطار ..

ولم يتركها الطبيب تم حديثها .. بل قاطعها قائلا :

— لست أنصح بسفرها .. فلست أظن الأشعة ضرورية .. إنها ستؤكد لنا

حقيقة الإصابة .. ولكن علينا أن نوازن بين المتاعب التي يمكن أن تتعرض لها

بالسفر .. وبين مزية التأكد من حقيقة الإصابة .. أنا شخصا أفضل ألا تسافر ..

وتساءل إبراهيم في لهفة :

— وكيف نعالجها ؟

— سأضع لها ساقها في الجبس .. وسواء كانت مشروخة أم مكسورة ..

عليها أن تظل راقدة في فراشها .. حتى يلتئم الشرح أو الكسر .. ثم تفك من الجبس ..

وقال إبراهيم في حماس :

— انتهينا .. لا ضرورة إذن لمتابع السفر وهى فى هذه الحالة ..

ثم وجه القول إلى مراد :

— ما رأيك يا مراد .. أليس من الأفضل أن تبقى ..

وهز مراد كتفيه قائلاً :

— كما يريد الدكتور ..

ثم وجه القول إلى لىلى محاولاً الضحك :

— عسى أن تكفى بعد ذلك عن الشعلقة فى التكمييات .. ستكون ساقك

فى الجبس جميلة .. لن أستطيع البقاء الآن حتى أتمتع برؤيتها .. فلا بد أن أذهب

إلى رفح مع الصاغ عبد العاطى .. عن إذنكم ..

وقبل أن يترك الحجرة نظر إلى الطيب قائلاً :

— لا تتعجل بالرحيل بعد أن تضع ساقها فى الجبس .. لىلى قد أحتاج

إليك .. لأنى سأخوض معركة جديدة ..

— مع اليهود ..

— بل مع رئاستنا .. لقد أخذت أنا العلقه .. وأخذوا هم النياشين ..

سأخرب بيتهم إن شاء الله .. السلام عليكم ..

واتجه إلى باب الحجرة وهو يقول فى لهجته المستخفة :

— لن أغيب عليك يا لىلى .. بضع ساعات فقط لأقصص رقبة قائد

الآلاى .. وأشق بطن قائد الفرقة .. ثم أعود إليك .. سأجلس معك على

طول .. وعلام التعب .. ما دامت النياشين تؤخذ من منازلهم ..

وأحست مديحة من الجملة الأخيرة التى أطلقها مستخفاً بشيء من

الطمأنينة ..

إن مراد ينوى — على الأقل — أن يكون بجوارها ..

إنه رغم استهتاره واستخفافه بكل شيء زوجها .. ووجوده يمنح المسألة

منظرا لائقا .. ولن تبدو بها تلك الصورة الشاذة التي كان يمكن أن تبدو بها ..
لو اقتصر الأمر على الاثنين معا ..

زوج .. بلا زوجة .. وزوجة طريخة القراش بلا زوج .. يضمهما بيت
واحد .. في هذه الوحدة والخلاء .. لا يمكن أن يبدو منظرها للناس طبيعيا ..
هذا من ناحية الشكل .. والمنظر ..

أما من ناحية الموضوع .. فهي أدرى الناس بتعقيده .. وهي أدرى الناس
بأن لا مراد ولا غير مراد .. يستطيع تسويته ورد أخطاره ..
وإبراهيم ما زال يقف لينظر في جزع ولهفة إلى ليلي .. وفي صدره ..
خافق .. هتاف .. يهمس به :

« ويحك .. ألا تملك لأعز الناس عندك أكثر من نظرتك العاجزة
الحيرى .. افعل شيئا .. ضمها إليك .. مس كسرهما بشفتيك ، ولو عرف
الخافق الهتاف شعرا لردد بيت المجنون :

بربك هل ضمنت إليك ليلي قبيل الصبح أو قبلت فاهها
ويحس إبراهيم .. أن الخافق في صدره .. أحرق مجنون ، وأنه لا يملك حتى
مجرد اللهفة والجزع .. بله الضم واللمس .. وإن هذه الراقدة أمامه .. من حق
رجل آخر ، قد تكون أهون لديه من نيشان أو رتبة .. ولكنها مع ذلك ألصق به
من عابر سبيل .. لم يلقها إلا وهو مشدود إلى قاطرة أخرى .. مثقل بحمل
شرعى .. عليه أن يحمله حتى آخر عمره راضيا .. قريرا .. مبتهجا ..
وأخرجته مديحة من صخب أفكاره بقولها :

— كنت أود أن أبقى مع ليلي .. ولكنى سأضطرب إلى السفر في قطار
الغد ..

— ولم هذه العجلة ؟

— ماما أنبأتني أن بابا مريض منذ أسبوع .. وأنها كتمت عني النبأ لتوقعها

أن أحضر من تلقاء نفسى لأجل مدرسة نادية .. وقد وعدتها بالسفر فى أول قطار .. ولهذا اقترحت أن تسافر ليلى معى ، لأنى أكره أن أتركها وحدها بلا أحد يقوم بخدمتها ..

وانبعث صوت سمع فى الحجرة لأول مرة .. هو صوت نهى يقول فى إخلاص :

— لن أتركها لحظة واحدة .. إنى سأرعاهما يعينى ..
وأردف إبراهيم قائلاً وكأنه يجامل ليلى :
— وأنا أيضا سأكون بجوارها ..
وأجابت مديحة :

— طبعاً .. ومراد سيكون أيضا بجوارها ، إن البركة فيهم جميعاً ، ولهذا سأسافر وأنا مطمئنة عليها ..
وقال الطبيب ضاحكاً :

— ما هذا كله .. إن المسألة لا تستحق كل هذا .. إنى سأضع ساقها فى الجبس .. وأمرها بالرقاد .. وأمركم جميعاً أن تتركوها فى حالها .. وإن شاء الله بعد أسبوع سأفكه لها .. إنى أرجح أن ما بها لن يكون أكثر من شرخ ..
وقالت مديحة وكأنها وجدت باباً تنفذ منه :

— ولهذا اقترحت أن تسافر .. لأنى لا أعتقد أن السفر سيتعبها .. وهى ستكون فى القاهرة أكثر راحة ..

— لا داعى لإرهاقها بالسفر .. إن الراحة والرقاد خير علاج لها .. إنى لن أحاول إزعاجها حتى ينقلها إلى المستشفى .. سأحضر لها أدوات التجبير هنا .. عن إذنكم ..

وخرج الطبيب ووراءه إبراهيم .. وأقبلت الصغيرة نادية هاتفة :
— تنت ليلى .. كيف أنت ؟

وأجابها ليلي في رقة :
— بخير .. ليس لي شيء ..
وقالت مديحة مؤنية نادية :
— لقد تسببت في كسر ساقها .. مبسوط .. كل هذا من شقاوتك .. كان
يجب أن تكسر ساقك أنت ..
وقالت ليلي :
— بعد الشر عنها ..
ولكن الصغيرة تساءلت :
— تكسر ساق .. وتوضع في الجبس ؟
وأجابت الأم :
— أجل ..
— وأضحى كالعروس الجبس ؟
وأزاحتها الأم ناهرة :
— بل كالعفريت الجبس .
وغادرت مديحة الغرفة .. لتجد إبراهيم عائدا بعد أن أوصل الطبيب إلى
العربة .. وتجد مرادا عائدا خلفه وقد بدت عليه العجلة .. وانتحى بإبراهيم
جانبا وهمس به :
— أمعك خمسة جنيهات ؟
— أجل ..
— هاتها ..
والتفت إبراهيم بدوره إلى مديحة وقال لها :
— أمعك خمسة جنيهات ؟
واختفت مديحة لحظة في حجرتها ثم عادت ومعها الجنيهات الخمسة ..

واختطفها مراد قائلا :

— متشكر .. سأردها لك أول الشهر .. وسأعطيك الأرباح .. كأسا من كل زجاجة ..

— زجاجة ماذا ؟

— ويسكى يا حضرة ..

— أخذت الخمسة جنيهاً لتحضر بها ويسكى ؟

— طبعاً .. أكنت تظننى سأحضر بها تين شوكي ؟

— سأحضر بها معي ويسكى .. وزيب زحلاوى .. وعرق .. سأفتحها

لكم خمارة .. لن أرى المواقع بعد ذلك بعينى .. كله محصل بعضه .. وأحسست مديحة مرة أخرى بمزيد من الطمأنينة .. ولم تضق أبداً بالقرض الذى منحته .. ما دام سيضمن لها بقاء مراد بجوار زوجته على الأقل .. حتى تشفى .. وترحل بالسلامة .. أو تعود هى ..

وقبل أن يغادر مراد البيت سألته :

— متى ستعود ؟

— الليلة .

— لا تتأخر .. إن ليلى يجب ألا تبقى وحدها ..

— طبعاً .. طبعاً .. لن أتأخر أكثر من مسافة الطريق ، وزمن المعركة .. سأريهم أنى لست هفية .. وأن ليس كل الطير يؤكل لحمه .. وإذا كنت لم أأخذ النيشان فى معركة التبة ٨٦ سأأخذه فى معركة رئاسة الآلاى .. كان منصور أفندى يريد قتلى .. فى المعركة .. ولكنى سأقتله .. بلا معركة .. سأتى إليكم الليلة ومعى ثلاثة ويسكى واثنين زيب ونيشان النيل .. خذنى بالك من ساق ليلى .. حذرى الدكتور من أن يتلقها الجبس .. إن ساقها خير ما فيها .. حقيقة إنها باردة ، ولكن ساقها جميلتان ..

وأحس إبراهيم بأن دمه يفور من وقاحة مراد .. وكأنما كان هو الزوج ..
ومراد .. ال .. ال .. ماذا يسمى نفسه ؟ أهو عشيق .. حاشا لله .. أهو
حبيب ؟ .. حتى هذا لا يستطيع أن يصارح نفسه به . ماله إذن يغضب ..
وهو لا يستطيع أن يحدد صفته بالنسبة إليها .. إنه مجرد وهم .. لا يستطيع حتى
أن يسمى .. باسمه ..

إنه يحب ويخشى أن يقول إنه يحب ..
لأنه لا يملك هذا .. وهو الإنسان العاقل المتزن .. ذو الأخلاق المثالية ..
لو أنه كان كمراد .. لأراح .. واستراح ..
ولكنه يعترف بالمثل العليا .. والقيم الأخلاقية .. ويكره الانحلال ..
والانحراف .. والزلل ..

ثم .. يحس في جوفه .. بشيء يدفعه إلى كل هذا ..
يحس بأنه يملك نوعا من المشاعر .. لو أطلقها أو سماها .. لما كانت .. إلا
انحرافا وانحلالا .. وخطيئة .. ولما سميت بأكثر من خيانة .. واعتداء .. وقلة
شرف ..

أف له .. وأف للتقاليد .. وللعرف ولكل هذه المسميات القاسية ..
ومرة أخرى .. أخرجته مديحة .. عن معركة ذهنه .. ومشاعره .. وسألته
في هدوء .. السؤال الذى لم يكن يخطر له ببال :

— هل ستسافر معنا ؟

— أنا ؟

— أجل ..

— أسافر معكم متى ؟

— غدا ..

— كيف أسافر معكم ؟

— ألا تستطيع أن تحصل على إجازة ..

وكانت مديحة تعرف الرد .. وكانت واثقة .. إنه لا يستطيع السفر .. من الناحيتين .. ناحية القدرة .. وناحية الرغبة .. ومع ذلك فقد حلاها أن تسأل عليها تصيب رمية من غير رام .. أو لعلها من مناقشتها له تستطيع أن تسوق إليه تحذيرا خفيا .. مستورا ..

وأجاب إبراهيم في شيء من الحدة :

— كيف أحصل على إجازة .. في هذه الظروف ؟

— أى ظروف تعنى ؟

— ظروف العمل ..

— لست أجد هناك ما يمنع ..

— وهذه المناوشات التى يقوم بها اليهود كل ساعة ؟!

— مالك وما لها ؟

— والعمل الذى أقوم به بدل الضابط الذى فى إجازة ؟

— يقوم غيرك به ...

وصمت إبراهيم برهة ونظر إليها نظرة فيها شيء من التحدى والعنف ثم

قال :

— والضيعة المكسورة الراقدة ؟

— لديها زوجها .. هل أنت مكلف باستضافة الناس وتمريضهم ؟

— وهل من الذوق .. أن نستضيف الناس ثم نتركهم .. طريحي الفراش ..

وأحست مديحة أنها لو ازدادت فى ضغطها المتسائل .. لأحدثت به

انفجارا .. وهى تعرف انفجاراته .. ولم تجد بدا من التراجع لا سيما وقد

أحست أنها قد بلغت جزءا من أهدافها .. وهو التحذير الخفى ..

ونظرت إليه نظرة أكثر ليما .. وقالت :

— ١٨٦ —

— معك حق .. ليس هذا من الذوق ..
وأحسست أنها قد تنحت عن الطريق وتركته يمر ..
إنها تحس بثقة فيه ..
والمسألة كلها تجربة .. يجب أن تعينه على أن يجتاز شرها ..

الفصل التاسع عشر

دخان المدفأة

كانت الساعة قد بلغت التاسعة مساء عندما عاد مراد يطرق باب البيت
ثانية بعد رحيله إلى رفح ..
وكان البيت قد شمله سكون تام .. واستغرق مكانه في صمت عميق ..
وبدت مديحة وقد جلست في حجرتها على حافة الفراش .. ووضعت أمامها
الحقائب فارغة ترص فيها الثياب .. ويداهما تتحركان حركة آلية وذهنها قد
انطلق هائما في شروده .
لم يكن بذهنها شيء جديد .. نفس القلق ، ونفس الوسواس .. ونفس
الصراع الذي لا ينتهى .. بين الجزع والصبر .. والخوف والشجاعة .. واتهام
الغير ولوم النفس ..
كان ذهنها كعادته يخوض في رحلته بين دخان الشكوك وسحب
الريب .. لا يستقر على شيء .. ولا يصطدم بشيء .. ولكنه مع ذلك لا
يستطيع أن ينكر أن هناك شيئا .. أن هناك غيما يحيط به .. ويطبق عليه ..
ويضيئ عليه الخناق .. وهو لا يستطيع صده .. لأنه لا يصد ..
أجل .. إنها تجابه أزمة دخان .. ومشكلة غيوم ..
كائنة .. ومتطايرة ..
موجودة .. وغير ملموسة ..
ويداهما ترصان الثياب .. في هدوء .. وذهنها منطلق خلالها .. في عنف ..
لا يهدأ .. ولا يكل ..

وفي الصالة جلست نهي .. بجسدها الأعجف .. ووجهها الضامر
النحيل .. قابعة في مجلسها المعتاد وراء النافذة الزجاجية العريضة .. التي
تبدى لها الصورة العريضة البراقة .. كل فجر .. صورة الشمس المشرقة
المتصاعدة من وراء الربوة بين النخيل .. وتحمل لعينيها النور والإشراق ..
وتحمل لذهنها الآمال الحلوة .. وترسم لها طريق العودة .. وتعيد الوطن
الضائع .. والأهل المشردين ..

وتتصاعد الشمس .. متباعدة إلى كبد السماء .. مضیعة لها الأمانى مبددة
الأحلام .. لا تجسر العين على التحديق فيها .. ولا يجسر الذهن على التعلق بما
منحته في شروقها من آمال ..

ثم تختفى وراء المغرب .. وتسود الظلمة المعتمة ..
المعتمة في العين وفي الذهن ..

وتجلس نهي لترقب حلقة أوهامها .. ويأس حقائقها .. وتحملق في
النجوم الشاحبة .. تتوارى وراء أكداس السحب .. وتنصت للبحر الهادر
الجياش .. يحمل في هديره .. ما يشبه الصراع والنواح .. ليدفع في نفسها
مزيذا من يأس .. ومزيذا من ضیاع ..

كانت نهي تجلس وقتذاك .. وينتابها يأس الليل الخفيف وهي تنقل بصرها
بين الظلمات المكدسة وراء النافذة .. وبين إبراهيم الجالس في صمت أمام
المدفأة .. وقد مد ساقيه وألقى برأسه على ظهر المقعد .. وحملق بعينه في
اللهب المتراقص .. وبين آونة وأخرى يسترق البصر إلى الباب المقابل حيث
بدت ليلى راقدة على فراشها وقد غطت البطاطين ساقها الموضوععة في
الجيس .. وألقت رأسها على الوسادة في هدوء واستسلام ..

وبدا وجهها الدقيق شاحبا .. وقد فكت جدائل شعرها فتناثرت حوله
على الوسادة ..

وأمامها قد وقفت نادية .. تعبت بخصلات شعرها .. وتستدعى ذهنها
الشارد .. من متابعة بقية الأذهان الشاردة في الدار .. بأسئلتها الساذجة
المضحكة التي تتطلب ردا .. وتستدعى بصرها من رحلته القصيرة الخاطفة
من خلال الباب إلى الجالس أمام المدفأة ..
قالت نادية متسائلة :

- لماذا لا تسافرين معنا ؟
- لأن الطبيب أمرنى بالرقاد ..
- متى سيأمرك بالنهوض ؟
- عندما تخف ساقى ..
- ومتى تخف ساقك ؟
- بعد أسبوع أو أسبوعين ..
- ولماذا لا أبقى معك حتى تشفى ساقك .. إني أحبك ..
- وأنا أيضا أحبك .. ولكن يجب أن تسافرى ..
- لماذا ؟
- لأجل المدرسة ..
- المدرسة أستطيع الذهاب إليها بعد أن تشفى ..
- ولأن جدك مريض ..
- وماذا سأفعل لجدى وهو مريض ؟
- ماما لا بد أن تراه .. وأنت لا بد أن تكونى مع ماما .. وكذلك يجب أن
تزورى جدك فى مرضه ..
- لماذا ؟
- لأن المرضى يحتاجون إلى رعاية ..
- وأنت ألا تحتاجين إلى الرعاية .. لماذا لا نبقى معك .. من سيرعاك ؟

- إن معى أنكل مراد ..
- إنه لا يراعى أحدا .. إنه مشغول دائما .. وهو غير موجود ..
- سيأتى الليلة ..
- وسينذهب غدا .. لا بد أن يراك أحد غيره .. سأخبر بابا ألا يفارقك
- لأنى أحبك .. ولأن ساقك كسرت من أجلى ..
- واندفعت الطفلة تعدو إلى أبيها صائحة :
- بابا .. أليس المرضى فى حاجة إلى الرعاية ؟
- طبعا ..
- ألسنا مسافرين لرعاية جدى لأنه مريض ؟
- طبعا ..
- أليست تنت ليلى مريضة ؟
- وانحنى إبراهيم على ابنته وأجابها فى حيرة .. وهو لا يدرى ماذا يمكن أن
- تضحض عنه أسألتها :
- أجل .. إنها مريضة ..
- من سرعاهما إذن ؟
- سرعاهما كلنا .. أنكل مراد .. وأنا .. ونهى ..
- بل ترعاهما أنت وحدك .. لأن أنكل مراد لا يبقى هنا أبدا .. ونهى
- سارحة .. فأياك أن تفارقها .. ابق معها دائما .. لقد قلت لها هذا ..
- وقبل أن يمد يده ليربت على ظهرها ويحييها :
- حاضرن يا حبيبتي ..
- انطلق صوت مدبجة يصيح فى حدة :
- نادبة ..
- وأجابت نادبة :

— ١٩١ —

— نعم يا ماما ..

— لماذا لم تذهبي إلى فراشك ؟

— لقد كنت أتحدث مع تنت ليلي ..

— كان يجب أن تكوني نائمة الآن .. إننا سنستيقظ مبكرين غدا ..

— سأذهب لأنام الآن ..

— هل تعشيت ؟

— لا ..

وصاحت مديحة بصوت أكثر حدة :

— نهى ..

ونفضت نهى من مجلسها وأسرعت إلى باب الحجرة ميجية :

— نعم ..

— عشي نادية واذهي بها إلى الفراش .. كان يجب أن تفعل هذا دون أن

أنبهك .. ألا تكفين عن هذا السرحان ؟

طأطأت نهى رأسها وأجابت :

— سأعشيها حالا .. تعالى يا نادية ..

وسارت بالطفلة إلى حجرة المائدة والطفلة مستمرة في سيل أسئلتها قائلة :

— لماذا لا تسافرين معنا ؟ .. لو أتيت معنا لأريك في مصر أشياء كثيرة ..

— مثل ؟

— القروود في حديقة الحيوان .. إنها تفلّي بعضها ..

— أهذا كل ما عندكم في مصر ؟

— وسأريك الفيل أبو زلومة ..

— فقط ..

— وسأذهب بك إلى السينما لأريك ميكي ماوس ..

— وماذا أيضا ؟

— وسأشترى لك جلاس .. وسندوتش ..

وضحكت نبي ورفعتها بين ذراعيها وقبلتها في لفة :

— ستوحشيني يا نادية ..

— وأنت أيضا ..

وأحست نادية بشيء يبلل خدها ورفعت بصرها إلى نبي متسائلة :

— لماذا تبكين ؟

— لا شيء ..

— بل تبكين .. إني أحس دموعك على خدي ..

— لأنني سأفقدك .. لقد حملت إليّ جزءا من أهلي الضائعين .. لقد رأيت

فيك إخوتي الصغار .. لقد أحسست منك بأجمل ما في الإنسان .. لقد قصد

أبوك أن يمنحني الحنان والحب .. ومنحته أنت لي بلا قصد ..

واحتارت الصغيرة كيف تجيب .. وأنقذها من حيرتها الجرس الذي

دق ..

ووضعت نادية .. وأسرعت إلى الباب لتفتح ..

ودخل مراد بغباره .. وضجيجهم .. وزجاجات الويسكي التي يحملها ..

ودفع إليها بحمله صائحا :

— هذا كل ما جئنا به من المشوار ..

وألقى التحية إلى إبراهيم المسترخي أمام المدفأة ..

— مساء الخير يا أبو خليل ..

— مساء الخير ..

— تصور بعد كل هذا المشوار .. لم أجد أحدا في رئاسة الآلاي .. لقد نزل

القائد إلى القاهرة .. نزل سعادة البيه القائم مقام بعد أن لُف الرتبة .. على

حسابى .. على حساب مرطتى وتشريدى .. ورجوعى سائرا على قدمى بلا جنود ولا دبايات .. لقد لطفها على حساب سمعتى الضائعة وكان يمكن أن تكون حياتى هى الضائعة ..

وتلمل إبراهيم فى مكانه وقال فى ضيق :

— يا مراد .. الرجل لم يقصد شيئا من هذا .. إنها معركة ..

— بل قصد .. لقد قصد قتلى .. إنه يكرهنى .. لماذا لم يضع مرسى بدلا

منى .. لماذا تركه يأكلها باردة وذهب هو معه ..

— ربما لثقته بك ..

— لثقته بى .. ولماذا لطش هو الرتبة .. ولطش الحيوان الآخر النيشان ..

أهذه هى الثقة ؟

— يا أخى ربما .. طلب لك .. ولم تصدق الرئاسة ..

— ملعون أبو الرئاسة .. ماذا تعلم هى عما فعلت ؟

— قد يكون فى ملفك ما يمنع من ..

— يمنع من ماذا .. لقد كدت أقتل .. ألا يكفى هذا ؟ .. هل تعرفون ما

حدث لى ؟

ونفد صبر إبراهيم فصاح به :

— أرجوك كفى .. لقد هوستنا .. نحن نعرف كل ما حدث لك .. ولكن

لا نملك شيئا .. فلماذا لا توفر صياحك ؟ لماذا لا نحمد الله على بقائك حيا .. فى

ستين داهية .. الرتبة والنيشان ..

ونظر إليه مراد وصمت برهة .. ثم أطلق ضحكة ساخرة وقال وهو يهز

رأسه :

— معك حق .. فى ستين داهية الرتبة والنيشان .. فى ستين داهية .. الآلاى

بأكمله .. فى ستين داهية أنتم جميعا .. الدنيا كلها على جزمى ..

(طريق العودة)

وصاح ينادى بأعلى صوته :
— نبي .. هات الزجاجات .. أعدوا إلى الحمام .. وجهزوا العشاء .. دين
الآلأى لدين الجيش .. لدين الدنيا ..
ثم أردف منشدا بصوت نشاز :
— أنا من ضيع في الأوهام عمره .. نسي القتال في ٨٦ أو أنسى ذكره ..
واتجه إلى حجرته وصاح بليلي الراقدة :
— يعيش الويسكى .. ويسقط الحمير ..
ونظرت إليه ليلي نظرة استنكار ودهشة .. فأجابها بسؤاله :
— إزيك يا وليه .. كيف حال ساقك الحلوة ؟
فأجابته في ضيق وألم :
— الحمد لله ..
— المهم .. هل ستمنعك من أداء واجباتك الزوجية ؟ ..
وسمع كل من بالبيت سؤاله .. وأحس إبراهيم أنه يود لو قام ليصفعه ..
ولكنه لم يملك إلا أن يخفض رأسه ويحملك في اللهب المتراقص في جوف
المدفأة ..
أشياء كثيرة يجب أن يكتمها في باطنه .. وأن يتركها تحرك جوفه ولا
يسمح حتى لدخانها بالتصاعد أمام الناس .. بل يبتلعه .. كما تبتلع المدخنة ..
دخان المدفأة .. حتى لا يؤذى أنوف الغير .. ويضايق أنفاسهم ..
وعاد مراد يكرر سؤاله وهو يخلع ملايسه ويقذف بها على طول ذراعه ..
— لماذا لا تجيبين يا حلوه .. أنا لم أجرب النوم مع ساق مجبسة .. لماذا لا
تدعيني أجرب الليلة ..
وأجابته ليلي في مرارة وألم :
— بطل سخافتك .. وكف عن قلة الأدب .. كفى فضائح أمام الناس ..

وخفض مراد صوته وقال ضاحكا :
— أهذا كل ما يزعجك .. الفضائح أمام الغير .. سأعيد سؤالى بصوت
واط .. وأجيبى عليه ..

وقاطعته ليلى هامة فى مرارة :
— أنت لست آدميا .. أنت حيوان ..
— ومن أنكر ذلك .. ولماذا أكون آدميا .. والناس يجعلوننى كبش فداء
ومغلب قط .. لماذا أكون آدميا .. وقد زجوا بى إلى مذبحه .. وحرمنى من
جزائها .. لقد ضاعت الرتبة والنیشان .. هل تريدن أنت أيضا أن تضيعى
الليلة لساقك المحبسة .. لا لا .. لن أحرم حقوق الحيوان بعد أن فقدت حقوق
الآدميين .. استعدى لى .. إياك أن تنامى .. سأستحم .. وأتعشى .. وأهلف
زجاجة الويسكى ثم أعود إليك ..

وانحنى فوقها فقبلها فى غلظة وعنف .. ثم اندفع إلى الخارج عاريا إلا من
السروال .. وهو يغنى بأعلى صوته :

— مسكين وحالى عدم من كثر هجرانك ..
وكانت مذبحه قد تركت الحجرة على صوت ضوضائه .. ووقفت أمام
إبراهيم .. تنقل البصر بينه وبين المدفأة وحجرة ليلى ..
ورفع إليها إبراهيم بصره .. وجوفه يغلى .. وملاحه يكسوها هدوء
مفتعل ..

والتقى البصران .. ولم يدر كل منهما مدى .. ما يعرف الآخر .. من
محتويات ذهنه ..

ولم يطل بهما الصمت .. وفى لهجة مقتضية .. قال إبراهيم فى لهجة الأمر :
— اذهبى إلى ليلى .. ونامى معها .. وسأدع مراد ينام معى .. لأنها لا شك
ستكون فى حاجة إلى من يرعاها .. غير هذا الحيوان ؟

ولم تستطع مديحة أن تقول لا ..
فقد بلغ بها النفور من حديث مراد .. والضيق بوحشيته والخوف من
حيوانيته على الراقدة العاجزة .. ما دفعها إلى قبول الرجاء بلا مناقشة ..
وسارت إلى حجرة ليلي .. راضخة .. راضية ..
شيء واحد كان يطن في رأسها .. من قول إبراهيم ..
« إنها ستكون في حاجة إلى من يرعاها .. غير هذا الحيوان » ..
وهي سترعاها الليلة .. فمن يرعاها .. في الليالي القادمة ..
هل ستركها للحيوان .. أم سيرعاها هو ؟ ..
كيف ينوى أن يحل مشكلتها ؟
ولكن ماله هو وماها ؟
لماذا لا يتركهما وشأنهما ؟
عندما كانا في بيتهما .. هل كانا في حاجة إلى تدخله .. وهل كانت في
حاجة إلى رعاية أحد غير زوجها الحيوان ؟
ولكنهما ليسا في بيتهما ..
وساقها قد كسرت من أجل ابنتها ..
ومن الوحشية .. أن تتركها وحدها .. لهذا الحيوان .. لا سيما إذا سكر ..
ثم إن إبراهيم .. قد أمرها ..
ودلفت إلى حجرة ليلي .. واقتربت منها .. وأمسكت بيدها تشد عليها ..
وبيدها الأخرى تتحسس جسدها ثم قالت في رفق :
— أسمحين لي أن أشاركك في حجرتك الليلة .. إنك قد تكونين في
حاجة إلى من يخدمك ومراد متعب الليلة .. ولا أظن أنه يستطيع أن يقوم
بخدمتك ؟ ..
وأجابت ليلي في صوت متعب :

— ١٩٧ —

— لست أريد أن أزعج أحدا .. إلى سأنام .. ولا أظننى سأحتاج لشيء ..
كل ما أريده أن تغلقى على الباب بالمفتاح ولا تدعى أحدا يدخل الحجرة ..
— بل سأتبقى معك .. إن مراد سينام مع إبراهيم .. سأعود إليك بعد أن
أضع نادية في فراشها ..
وخرجت مديحة لتضع نادية في فراشها .. وعلا صوت مراد في الحمام
منشدا بصوته النشاز ولهجته العابثة المستهترة ..
— حجبوك عنى العواذل ليه يا نور العين ..

الفصل العشرون

الذهب والوقود

جلس مراد على البار وقد وضع الكأس أمامه .. ورص صحاف العشاء بجواره ..

وكان إبراهيم لم يزل في جلسته ممددا ساقيه محدقا في لب المدفأة ومديحة قد آوت إلى غرفة ليلى وأغلقت الباب ..

وأفرغ مراد الكأس في جوفه .. ثم مصمص بشفتيه قائلا :
— ولا تسقنى سرا .. إذا أمكن الجهر ..

ولم يجب إبراهيم .. كان يحس بجوفه أكذاسا من الهم والحزن تثقل تفكيره وتشل لسانه .. وكان كل ما يوده هو أن يظل مسترخيا في مكانه لا يكلم أحدا ولا يكلمه أحد ..

كان يحس برغبة في البكاء ..

وعاد مراد يتغص عليه صمته .. صائحا في شبه قهقهة :

— هاى .. ما بالك .. كأنك خسرت معركة وعدت سائرا على قدميك ..

ولم يجب إبراهيم .. واستمر مراد في ثرثرته قائلا :

— أتريد كأسا ؟ ..

ومد يده بكأس مترعة ..

وهز إبراهيم رأسه رافضا .. فأفرغها مراد في جوفه وعاد يتسائل :

— أتريد رتبة ؟

ولم يجب إبراهيم .. وازداد تحديقا في نيران المدفأة .. ولم يكف مراد عن
تساؤله :

— نيشان ؟

وأطلق إبراهيم زفرة .. ورفع عينيه إلى مراد .. فبدا له مخلوقا غريبا .. قد
لف جسده في برنس بدت منه ساقان مكتنزتا السماتين ككتا الشعر .. وقد
اعتلى مقعد البار في جلسة عجيبة تشبه القرفصاء .. عارى القدمين معصوب
الرأس ..

ولم يكذب يسمع زفرة إبراهيم ويلمح نظراته .. حتى أطلق قهقهة عالية
وصاح كأنما عثر على إجابة لما حيره :

— أتحب ؟ ..

واستمر إبراهيم يرقبه بنظراته الصامتة .. وقد أحس بشيء من القلق .
وصاح مراد :

— إبراهيم أفندى قيس .. أين العامرية ؟

وبدأ إبراهيم يحس بسخرية الموقف ومرارته ..

ولم ينتظر مراد إجابة .. واستمر في لهجته العريضة الصاخبة :

— لست أجد حولك شيئا يستحق .. لا تقل لي إنها اللاجئة العجفاء .. إلى
أستطيع أن أضع عشرة منها في سندوتش مع المزة .. إنها لا تسمن ولا تغني من
جوع .. قل من تكون المعشوقة التعسة .. وأنا أحضرها لك من شوشتها ؟
ولم يستطع إبراهيم أن يكبح جماح زفرة أخرى انطلقت من صدره .
من يصدق هذا ؟

هل يمكن أن يخطر ببال صاحبه .. حقيقة الرد على سؤاله ؟

مستحيل ..

إنه لا يشك فيه قيد أنملة ..

ومعه حق .. فالمفروض في إبراهيم أنه على خلق .. وأنه — على الأقل —
بالنسبة لخلق كمراد إنسان نموذجي .. لا يمكن أن يستغل ظروف
الصدقة .. والضيافة .. ويعشق زوجة صديقه .. وضيفه ..
أجل .. إن مراد نفسه — على انحلاله — لا يستطيع أن يتصور أن علاقة ما
يمكن أن تنشأ بين إبراهيم وزوجته ..
ولكن هل نشأت هذه « العلاقة ما » ؟
هل هناك شيء ؟

هل يكفي لكى توجد العلاقة .. أن يحس بها .. أم لا بد لها من مظاهر
مادية .. ملموسة .. تخرجها من حيز التفكير والحس .. إلى حيز الوجود ؟
هل العلاقة الحسية الكائنة بينهما .. يمكن أن تدخل في باب الخيانة
والغدر .. وأن تعتبر « علاقة ما » ؟

وإذا كان الرد بالإيجاب .. فما ذنبه هو .. وهل كان يملك منعها أو
وقفها .. وهى مجرد إحساس اضطرارى لا سلطان لقدرة مادية .. مهما
كانت .. من السيطرة عليه أو توجيهه أو وقفه ..
ترى ماذا يمكن أن يكون رد هذا المخلوق العايب المهذار .. إذا ما أجابه
إبراهيم على سؤاله ؟

ماذا يقول إذا أنبأه أن ليله .. هى ليلى .. زوجته ؟
بم يجيب إذا أنبأه بمنتهى البساطة .. بأنه يعبدها .. وأنه يحس بأنها المخلوقة
التي ظلمه القدر بأن أخر لقاءه بها .. فلم يدفعها إليه — وهى جزء من كيانه ،
ونصف نفسه كما يقول الشعراء — إلا بعد أن سد الطريق إليها ووضع الحوازل
وأقام العقبات ؟

ماذا يمكن أن يكون حال مراد .. إذا ما كشف الغطاء عن الخافق في
صدره .. وفك قيده وأطلق سراحه .. وتركه يهتف بأحب الأسماء إليه ..

— ٢٠١ —

بلى .. وأنبأه أن زاده فى عينها وأن أحب ساعات العمر إليه .. ساعات
جوارها ؟

سيظنه — لا شك — مازحا ..

إن هذا مجرد هزل ..

وهو — حقيقة — هزل ..

هزل يقض المضجع .. ويؤرق الجفن ..

هزل .. لا بد له من نهاية ..

إنها مجرد تجربة من القدر .. ولعله خارج منها عن قريب .. بمجرد أن تشفى
ساق ليل .. وتعود إلى مصر ..

ترى هل أفاد من التجربة ؟

لا يدري ..

لا يستطيع أن يقدر الآن مدى خسارته وربحه ..

لقد كسب كثيرا ..

كسب ذلك الإحساس الممتع .. بالحب .. والذي لا نستطيع أن نمنحه
لأنفسنا فى أى وقت نشاء .. ولا بأى مخلوق نشاء ..

كسب الإحساس بالحب ..

الإحساس الذى يصبغ تفكيرنا بلون وردى .. فيجعل تفكيرنا مريحا ..

ممتعا .. وكأننا راقدون من حياتنا على فراش هزاز فى حديقة ناضرة عاطرة ..

لا نرى سوى الشفق الأحمر .. ولا نشم سوى الرياحين .. ولا نسمع سوى

غناء الورق وهديل الحمام ..

لقد كسب الإحساس بالحب ..

الإحساس الذى يقرب إلى أذهاننا صورة الجنة .. فيجعل منها مراحا

ننتلق فيه مع أحبائنا .. ومرتعا نرتع وإياهم فيه .. بالإحساس والوهم ..

لقد كسب الإحساس بالحب ..
الإحساس الذى يجعلنا نتوهم فى شفتى إنسان .. ينبوعا لا ينضب من
الهناء معيته .. مدينا للهموم .. مفتتا للأحزان ..
الإحساس الذى يجعلنا نتخيل .. فى طاقتى أنف إنسان مهبا لعبير منعش
ونسيم عطر ..

لقد كسب شيئا ضخما ..
كسب « حالة » .. جعلته أكثر إحساسا بحياته وتعلقا بها ..
باختصار .. لقد كسب شيئا .. جعل لحياته قيمة ..
أو باختصار أشد .. لقد كسب حياته .. ولو إلى حين ..
وهل يمكن أن يكون أكثر من هذا ربحا ؟
والخسارة ؟!
ما هو حسابها ؟

خسارته .. هى — ببساطة — ضياع ذلك الربح ..
هى زوال هذه الحالة .. لأنها لم تكن من حقه ..
لقد كانت عملية اختلاس .. كانت سرقة .. ولا بد أن يرد لها ..
ولمن ؟ .. للذى لا يشعر بها .. الذى لا تكون عنده حالة .. ولا
أحاسيس .. ولا شيء أبدا .. إنها عنده مجرد مادة ..
مجرد سلك لا يجد طرفه الآخر .. ليكون معه شررا .. أو ينتج طاقة من
الإحساس والمتعة .. والضياء ..
عجبا لحياتنا .. تلقى بنا فى الخبطة عابثة .. بلا توليف .. ولا ترتيب ..
فتضيع طاقتنا .. وتتركنا مجرد خردة ..
وهبط مراد بكأسه على الرخامة .. فى قرعة كادت تحطمه .. ثم صاح فى
قهقهة أخرجت إبراهيم من دوامة أفكاره :

— هاى .. الظاهر إنك تحب مجد .. مسكين .. أبعد هذه السن تنطلى عليك هذه الخدع ؟
ولأول مرة رد إبراهيم .. وتساءل فى صوت خافت :
— أية خدع ؟

— خدع الحب .. هذا شغل حواء .. كان ينطلى علىّ وأنا فى الرابعة عشرة .. لقد أحببت مرة .. وخيل إلىّ أنى أهيّم فى السماء .. وأذوب فى بحر من العسل .. ثم أفقت بعدها .. وفهمت القولة .. فلم تعد تنطلى علىّ أبدا ..
— ما هذا الذى لم يعد ينطلى عليك أبدا ؟

— الحب يا أستاذ .. كلهن امرأة .. كلهن جسد مفروض أن يحمل ويلد .. ومن الأداة ؟ نحن .. نتخيل فى كل واحدة شيئا جديدا .. سحرا فى عينها .. وعسلا فى شفتيها .. و .. و .. إلى آخر كل هذه الأوهام .. ونضعها فى مصاف الملائكة نلمسها كما نلمس أضرحة الأولياء .. ونشمها كأوراق الورد ثم .. رويدا رويدا .. نشد عليها ونقربها .. وفجأة نعبطها بين أحضاننا .. مجرد جسد .. والنتيجة ؟ .. انتفاخ وذرية .. والكاسب هو الحياة التى أضيف إليها نتاج جديد .. والخاسر هو نحن .. مزيد من المسئولية والشقاء والتعب .. لا .. لا .. لقد فهمت القولة .. لم أعد أصدق خدع الحب وأباطيله .. امرأة يعنى امرأة تتساوى فى الفراش مع غيرها من النساء .. لا فرق بينها وبين امرأة أخرى .. لا تزيد أئمة عن زوجتى أو زوجتك .. إياك أن تخدعك إحداهن فتظن بها جديدا ..

وأحس إبراهيم كأن أحدا يدور به كما ندوخ الصغير .. ثم تركه فجأة ليرتطم رأسه فى الأرض ..

هذا العريد الشائر .. يقول كلاما مخيفا .. إنه يتحدث عن البشر .. وعن المشاعر الطيبة .. وعن القيم الجميلة التى تتعلق بها فى حياتنا .. بطريقة مهينة ..

— ٢٠٤ —

مفجعة .. تبعث فينا اليأس من كل شيء ..
ولكن ما مدى الحق في آرائه ؟
لا حق فيها بالطبع ..

لا يمكن لنا أن ننكر مشاعرنا ..

لا يمكن أن نجرد حياتنا .. ونتركها عارية إلا من الواقع لأن المشاعر شيء
كائن .. ولأن حياتنا مشاعر أكثر منها أي شيء آخر .. إن الواقع لا وجود له إلا
بالطريقة التي تعكسه لنا بها المشاعر ..

هذا الأنف أو القم .. أو الصدر .. وهذه الشجرة .. وهذه الثمرة .. لا
وجود لها إلا بالطريقة التي نحسها بها ..

والمرأة جميلة لأني أهتم بها .. لأن بي شيئاً يريني إياها كذلك .. وجسدها
مثير لأن بي إحساساً يغريني بها .. ولو ضاع هذا الإحساس لتساوت مع
الحجر ..

فحديث هذا العريد المجرد من الإحساس .. لا يمكن أن يضع للواقع قيمته
الحقيقية ..

والمرأة التي يراها مجرد جسد .. ليست كذلك إلا لأنه هو نفسه مجرد
جسد بلا إحساس ..

ليس في الأمر .. إذن .. خدع ولا أباطيل ..

ومع ذلك .. فقد أحس بمرارة من حديث هذا العريد .. الصاحب وبداله
كأن كلماته رشاش من الطين أصاب مشاعره البيضاء .. النقية ..

وخيل إليه أن فراشه الهزاز الذي يرقد به بين الأزهار والبلابل .. قد هبطت
به يد عنيفة .. لكي تشعره بأن كل شيء في حياتنا قائم على هذه الأرض ..
الصلبة السوداء .. وإنه ما من شيء يمكن في دنيانا أن يعلق في الهواء .. بلا سند
من الأرض وقاعدة من الطين ..

— ٢٠٥ —

وعلت دقائق الساعة المعلقة فوق المدفأة .. وعد إبراهيم في سكون الليل
اثنتى عشرة دقة .. ونظر إلى مراد .. وكان ضجيجيه قد خفت .. والتعب
والسُكر قد تركاه أشبه بالذبالة المترنحة في مهب الريح ..
وقال مراد وهو يطوح ببقية الزجاجاة في جوفه :

— كم الساعة ؟

— اثنتا عشرة ..

— متى ستنام .. إني أكاد أخرج صريعا ..

— قم بنا ..

وكان إبراهيم يخشى أن يحاول مراد دخول حجرته .. ويتوقع أن يلقي
جهدا لإقناعه بالمبيت معه ..

ولكن حالة السكر والإعياء التي بلغها .. جعلته أشبه بالخرقة البالية ..
وكان لا يكاد يقف على قدميه .. فساقه إبراهيم إلى حجرته .. ولم يكذ يبلغ
الفراش حتى ألقي بنفسه فوقه كجثة هامدة .. وبعد ثوان كان شخيره قد
علا ..

وفي الصباح كانت مديحة أول من استيقظ .. وفي عجلة ارتدت ثيابها
وساعدها إبراهيم في رص الحفائب وراء الباب استعدادا لنقلها إلى القطار ..
وقبل الرحيل .. وقفت تودع ليلي .. بقدر ما استطاعت من ثبات ورقة ..
شدت على يدها قائلة في شبه اعتذار :

— أنا متأسفة لأني لا أستطيع البقاء للعناية بك .. أنا أعرف أنها قلة ذوق

منى أن أتركك .. ولكنى أعرف كذلك أنك تقدرين موقفي ..

وأجابت ليلي في صوتها الرقيق بلا افتعال :

— أشكرك جدا .. أنا مقدرة جميلك ولطفك ..

— أوكد لك .. لولا شدة مرض أبى لبقيت معك .

— ٢٠٦ —

وكانت مديحة مخلصه في قولها كل الإخلاص ..
وأجابت ليلي :

— ربنا يشفيه ..

— ويشفيك .. وإن شاء الله نراك في مصر قريبا ..

— إن شاء الله بمجرد أن أستطيع النهوض .. سأذهب إلى مصر ..
وسأزورك ..

ودخلت ناديه هاتفه :

— سأنتظرك يا تنت ليلي .. إياك أن تتأخرى .. هيا بنا يا ماما .. مع
السلامة يا تنت ..

— مع السلامة يا حبيبتي ..

وتحرك الراكب إلى الخارج .. وكان إبراهيم قد ارتدى ملابسه ووقف في
الصالة ينتظر وداع مديحة لليلي .. وقبل أن تغادر مديحة البيت ألقت بنظرة على
الحجرة المغلقة التي رقد فيها مراد وتساءلت :

— ألم يستيقظ مراد ؟

— لا ..

— بلغه سلامي .. وأوصه خيرا بليلي .. هل ينوي أن يقيم في البيت كما
قال ؟

— أعتقد هذا .. لقد شرب أمس بطريفة تجعله لا يستطيع أن يغادر البيت
عاما بأكمله ..

وبعد لحظة كانت العربدة تحمل الثلاثة إلى المحطة .. وفي الطريق صاحبت
نادية كأنما قد تذكرت أمرا :

— أين نهي .. إني لم أرها ؟

وأجابت مديحة :

— ٢٠٧ —

— لقد استيقظت من الفجر .. وقامت بما طلبت منها أن تعمله . ثم اختفت
بعد ذلك ..

وعلق إبراهيم على قولها :

— لعلها انطلقت في طريق العودة .. الطريق الذى ترقبه من النافذة كل
صباح .. مسكينة هذه البنت ..
وردت مديحة :

— لا تخش عليها .. ستجدها في البيت عندما تعود .. الظاهر أن طريق
العودة ذهاب وإياب ..
وقالت نادية :

— لماذا لم تنتظر حتى أراها ؟ .. إلى أحبها ..
وقبل أن يجيبها أحد .. وقبل أن تقف العربية أمام المحطة .. صاحبت نادية :
— ها هي .. نهى ..
واندفعت نهى تعدو إلى رصيف المحطة .. ورفعت نادية بين يديها وصمتها
إلى صدرها .. وصاحت نادية :

— يا خائنة .. ظننتك خرجت دون أن ترينى ..
— حاولت .. ولكنى لم أستطع .. إلى أكره وداعك .. ولكن لم أطق أن
أتركك ترحلين دون أن أراك ..
وأحست نادية مرة أخرى بسخونة دموع نهى على خدها .. وسمعت
صوت أمها تنادياها :
— ياللا يا نادية ..

وأحست نهى بذراعى الصغيرة تضمانها .. ودموع تمتزج بدموعها !
وهبطت بها إلى الأرض .. ومسحت دموعها بطرف كمها وحاولت
التضاحك قائلة :

— لا تبكى .. سأت إليك قريباً ..
— ولكنك قلت إنك لن تأتي .. وأن بلدك هنا ..
— بل سأتي .. إن بلدنا واحد .. وطني أوسع من هذه الرقعة الصغيرة التي
احتلتها الأفاعي .. إن وطني عرني .. أنت وأبوك ملائمتاني إحساساً بوطني
الرحب المتسع ..

وعادت مديحة تصيح بنادية ..
وبعد لحظة تحرك القطار .. ونادية تشير لنهى ولأبيها .. ومديحة تلوح بيدها
في الهواء .. وذهنها معلق في جولته الحائرة بين الشكوك والأوهام .. وهي
تتساءل عما إذا كانت قد وضعت اللهب بجوار الوقود .. ثم تطمئن نفسها بأن
مراد سيقى في البيت ليحول بين اللهب والوقود ..
واختفى القطار .. وعاد إبراهيم إلى البيت وهو يحس — برغمه — نوعاً من
الراحة .. وكأنما أزاح عنه عبئاً .. أو أزال حاجزاً ..
ولم يستطع ضميره المؤنب أن يمنع هذا الإحساس الممتع من التسرب إلى
نفسه ..

ولم يدر سبب هذا الشعور بالراحة ..
— إنه لا يعرف ماذا يريد .. ولا ماذا ينوي ؟ .. وهو لا يعرف بالتالي ..
لماذا كان وجود زوجته يحرمه منه .. ولا ماذا أباحه رحيلها ..
لقد استراح .. وكفى ..

وأقبل على البيت .. ولم يكدهم يفتح الباب حتى قبل بضعة من مراد ..
وسأله إبراهيم عما به .. فأجاب :

— هذا عبث .. هذه مسخرة .. تصور أن التليفونجي قد أبلغني إشارة
الآن بأن كل الضباط تبقى في مواقعها .. وأنه ممنوع على كافة الرتب مغادرة
المواقع .. لن أذهب .. سأستقيل ..

— ٢٠٩ —

وبعد لحظة كان مراد قد ارتدى ملابسه .. وكانت العربة تنهب به الأرض
نهباً إلى موقعه ..
وكان إبراهيم يقف أمام الباب .. وهو يحس — يرغمه أيضاً — أنه أزاح
بقية العبء .. وأزال الحاجز الآخر ..

الفصل الحادى والعشرون

الحقيقة الثالثة

دلف إبراهيم إلى الصالة وبنفسه مزيج من أحاسيس عجيبة متناقضة ..
تركته في شبه ذهول ممتع .. أو غيوبة لذيدة .. أشبه بأحلام الغفوة .. أو نشوة
الخدر ..

كان في حيرة من أمره .. ومن مشاعره ..
لقد وجد نفسه فجأة .. وأمانيه الحلوة ملء يديه ..
لقد أحس وكأن الضجيج من حوله قد خفت .. والضباب قد تبدد ..
والموج قد انحسر ..

وإذا به .. وإياها .. وحيدان .. بلا شريك ولا رقيب ..
هذا البيت النأى .. الساكن .. بين الأمواج والرمال .. بيت الأحلام .. قد
خلا إلا منهما ..

في ساعات الشروق والهبام .. كان يتصور نفسه وإياها .. في معزل عن
العالم .. في بقعة حاملة .. ينصت إلى حديثها الخلو .. ويفسح لها من صدره
مسنداً لرأسها الجميل .. ويتناول وإياها الشاي المحلى بأربع قطع .. وتلفحهما
موجة برد فيضمهما إلى صدره أكثر وأكثر .

أشياء كثيرة كان يحلم بها .. إذا ما ضمهما بيت الأحلام في البقعة النائية ..
بعيدا عن الناس .. هو بلا زوجة .. وهى بلا زوج .. والحياة ممتدة أمامهما
كالمرعى الخصيب .. أو البحر الهادئ بلا أنواء ولا رياح هوج ..
كانت مجرد أحلام .. لا طائل منها إلا متعة التفكير فيها .. أو أمانى .. لا

تصل إلى مرتبة التحقيق .. وإنما يعيش المرء بأوهامها زمنا رغدا .
ومرة واحدة .. وبنتهى البساطة .. وجد نفسه فيها ..
لقد رحلت مديحة .. ورحل مراد ..
وأضحى هو وهى .. والأمانى ملء يده والأحلام طوع بنانه ..
إلى متى ؟! .. وإلى أى مدى يمكن أن يحقق أحلامه ؟!
لا يدري ..
إنه لا يستطيع أن يفكر فى شىء .. المهم .. إنه وجد نفسه فى الحالة التى
كان يتلهف عليها .. حالة الوحدة معها ..
أما إلى متى .. وماذا سيفعل ؟! .. فمسألة لا يجب التفكير فيها .. لأنه
— إلى حد ما — يخشاها .. ولأنها تسبب له هذا القلق الخفى .. والخوف
المبهم .. اللذين يشوبان متعته ..
وظل إبراهيم يتنقل برهة بين الصالة وحجراته .. وهو حائر قلق .. يبدو
كأنه يفعل شيئا .. وهو يتحرك ويقوم ويجلس بلا هدف .. وأخيرا اتجه إلى
باب الحجرة التى رقدت بها ليلي وطرقه بخفة ..
وسمع صوتها الرقيق يهتف :
— ادخل ..
ودفع الباب .. واقترب من الفراش ..
والتفت عيناه بعينها . وأحس من نظراتها عناق الوحشة وضمة الشوق ..
ولم يغب عن إحساسه لحة الراحة والاستقرار التى بدت فى نظراتها ..
ومد يديه .. فضم كفها .. وأغمضت عينها وقد تملكها نشوة لذيدة وهى
تترك كفها فى يديه ..
ونظر هو برهة إلى عينها المغمضتين .. وبلا وعى رفع كفها ودفن شفتيه
فى راحتها ..

وبلا وعى منها هي الأخرى .. والعينان مغمضتان .. والروح هائمة ..
والفؤاد ذائب .. والقلب خافق .. أخذت يدها تتحسس وجهه في رفق
وتؤدة .. كما تتحسس الأم الضريبة ملامح ولدها بعد طول غيبة ..
مست شفتيه .. وطرف أنفه .. وذقنه .. وعينه .. ثم استقرت على شفتيه
مرة أخرى .. لتضغطهما برفق حنون ملؤه الشوق والوجد والحب ..
وفتحت عينها ورمقته في رضاء وطمأنينة .. وفتحت شفتها ثم أغلقتها
ولم تقل شيئا .. وإن بدا كأنها تود أن تقول ..
« وأخيرا » ..

وقبل أن تقول شيئا طرق الباب .. وبدت نهى بوجهها النحيل تتساءل :
— أحضر الشاي ؟
وأجابت ليلي :
— أجل يا نهى ..

وأحس إبراهيم بأن صوت الفتاة قد أعاده إلى وعيه .. وكأنه نذير يذكره
بالحقائق الواقعة التي لا تستطيع القلوب الخافقة .. أو الأحاسيس المرهفة ..
أن تتجنب وجودها .. أو تبدل حقيقتها ..
لقد ذكره الصوت .. بأنه ليس بمعزل عن العالم .. وبأنه ليس بمنأى عن
الناس .. وأن بيت الأحلام الذي رسمه في أوهامه لم يتحقق بعد .. وأن البيت
الذي يعيش فيه هو بيت زوج .. وما زال عليه أن يراعى تصرفاته أمام الغير ..
لقد جذبه الصوت من لحظة الهيمان .. التي مست فيها الكف الناعمة
شفتيه .. ووضع أمام نفسه كطفل مذنب .. لم تكد تغفل عين الرقيب عنه
حتى أسرع باللهو والعبث ..
ولام نفسه ..

كان يجب أن يكون أرجح عقلا .. وأكثر اتزاناً .. وأشد صبراً ..

ولكنه لم يكن كذلك لأنه يحبها ..
أجل .. إن حبه لها حقيقة واقعة .. تتساوى مع بقية الحقائق الواقعة ..
تتساوى مع حقيقة ارتباطها بزواج .. وارتباطه بزوجته .. وهو إذا كان لا يملك
إنكار هاتين الحقيقتين .. فهو أيضا لا يملك إنكار الحقيقة الثالثة ..
الحقائق الثلاث .. موجودة مؤكدة ..
والحقيقة الثالثة .. وهى حبه .. أشد تأكيدا .. وأكثر وضوحا .. رغم
انطوائها فى باطنه .. وإنكارها عن الغير ..
وتلك هى العقدة ..
إن حبه حقيقة .. لا وهم ..
وقد حاول أن يحوله إلى أحلام .. وأوهام .. ولكنه أبدا يأبى التحول ..
وقد حاول أن يجعل منه ذنبا .. وخطيئة .. وقد نجح إلى حد ما .. ولكن
ذلك لم يمح وجوده كحقيقة ثابتة لا تتحول ..
حقيقة .. كل خطيئتها أنها وجدت إلى جوار حقيقة أخرى .. مضادة ..
متنافرة .. تأبى أن يكون لها كيان بجوارها ..
إن حقيقة حبه ليست خطيئة فى حد ذاتها .. ولكنها خطيئة لأنها وجدت
بين حقيقتين تأييان أن يكون لها وجود إلى جوارها .. وهما حقيقة زواجها ..
وحقيقة زواجه ..
وحقيقه حبه شعور عميق .. والحقيقتان الأخريان مجرد شئ ناتج عن
تنظيم وتقنين ..
وأحس فى وقفته أن رأسه مثقل ..
وأحس أن تجربة بيت الأحلام .. والخلوة النائية .. تجربة شاقة عسيرة ..
إذا استمرت الحقائق الثلاث تتصارع فى نفسه ..
وأفلتت يد ليل .. وهمست هى .. وقد بدا لها كأنه يتسرب من أصابعها

ليذهب بعيدا .. بعيدا :

— فيم سرحت ؟

وابتسم ابتسامة باهتة .. وأجاب :

— أبدا ..

— لقد بعدت عني ..

— أنا لا أبعد عنك أبدا :. إني بجوارك دائما ...

— أقصد ذهنك .. فيم شرد .. قل لي ..

— في الحقائق الثلاث ..

— أى حقائق تعني ؟

وطرقت نهي الباب ثم أقبلت بصينية الشاي .. وعليها فنجانان ووضعتهما

على منضدة صغيرة بجوار الفراش .. ثم انصرفت في هدوء ..

ونظر إبراهيم إلى الساعة في معصمه .. ثم قال وهو يهم بالانصراف :

— سأتركك الآن ..

— لم تقل لي بعد ما هي الحقائق الثلاث ..

— بعدين ..

— بل قل الآن ..

— أيهمك كثيرا أن تعرفي ؟

— ليس هناك شيء خاص بك .. لا يهمني أمره ..

— حتى التفاهات ؟

— ليس بك تفاهات ...

— ما من إنسان إلا وله تفاهاته ..

— إلا أنت .. كل ما بك أحس به حيويًا بالنسبة لي ..

— لا يمنع ذلك من أن يكون تافها .. إن تقديرنا الشخصي لا يدل على

حقيقة أمره ..

— لا تخرج عن الموضوع .. حدثنى عن الحقائق الثلاث .. ما هى الحقيقة الأولى ؟

وصفت إبراهيم برهة .. ثم رفع رأسه وأجاب ببساطة :
— مديحة ..

وأحست ليلى بمرارة مفاجئة .. وبدا الضيق على وجهها .. ولكنها استمرت تسأل فى إصرار :
— والثانية ؟

— مراد ..

— والثالثة ؟

وتنهل إبراهيم برهة وهو يرقب وجهها الذى بدا وقد غيمت عليه سحب
الهم والاكتئاب ..

وعادت ليلى تكرر سؤالها :
— والثالثة ؟

وأجاب إبراهيم فى لهجة هى مزيج من اليأس والتشبث والإصرار :
— حبنا ..

وكانت المرة الأولى التى ينطق فيها التعبير الصريح .. لما بينهما ..
وأحست ليلى بنشوة من كلمة الحب .. وانقشعت غيوم الهم عن
وجهها .. وانسطت أساريره ..

كانت الكلمة حلوة الطعم فى نطقها .. حلوة الوقع فى مسمعها ..
وتمنت ليلى لو سمعتها ثانية ..

وتمتت تقول متسائلة فى همس :
— ماذا قلت ؟

— حيناً ..

— قلها ثانية ..

وأخذ يردد الكلمة .. وهو يحس بنشوة من نطقها ..

وهمست ليلى وعيناها تضحكان :

— ليس هناك حقائق ثلاث .. إنما هي حقيقة واحدة ..

وضحك إبراهيم وتساءل :

— وما هي ؟

— الحقيقة الثالثة ..

— سميا باسمها ..

— حيناً ..

— قولها ثانية ..

— حيناً ..

— قولها ثانية ..

— حيناً ..

— وثالثة .. ورابعة .. لا تكفى عن قولها أبداً ..

وأخذت ليلى تهمس باللفظة المحرمة .. وكأنها تزيل بها كبتا طالت

وطأته .. وثقل عبئه ..

وسمع إبراهيم صوت كلاكس العربى ..

ومرة أخرى .. شدد من عليها أحلامه .. وتذكر أن وراءه عملاً .. وأنه لا

يستطيع أن يقضى يومه .. هائماً .. يستمع إلى ألفاظ الحب ..

ومد يده فشد على يدها مودعاً .. ولكنها لم تترك يده .. بل قالت فى شبه

رجاء :

— ألا تشرب الشاي ؟

— لا بد أن أذهب ..

— لقد أعدت نهى فنجانيين ..

وجلس إبراهيم على حافة الفراش وأخذ يصب الشاي .. وتساءل ضاحكا
وهو يهم بوضع السكر :

— كم قطعة ؟

— كما تشاء .. إني أحب كل ما تحب .. وأكره كل ما تكره .. كم أجد نفسي
شبيهة بك .. في كل ما تحس .. وكل ما تفعل ..
— أنا شبيه بك أنت .. أنا رقيق مثلك .. هذا خير ما يمكن أن أسمع من
مدبح ..

وناولها الفنجان .. وأخذ كل منهما يحتسى الشاي وعيناه ترمقان عيني
الآخر في لفحة وشوق ..

وبعد برهة أقبلت نهى ترفع الصينية .. ونهض إبراهيم مودعا ليلي متجها إلى
المعسكر ..

واستقر إبراهيم بين الضباط .. شارد الذهن .. وبنفسه إحساس المقبل على
أمر جليل ..

لم يكن هناك شك في خطورة الحقيقة الثالثة .. ولا سيما بعد أن بدت
صريحة سافرة .. طاغية على غيرها من حقائق .. مقنعة بأنها وحدها الحق ..
وغيرها زائف باطل ..

وحاول إبراهيم أن يهرب من أفكاره التي تدفعه إلى التشبث بالريح
الجديد .. وإلى الانطلاق إلى البيت لكي يركع بجوار ليلي .. ولكي يهتف بها
ويسمع منها .. كل ما يمكن أن يقال عن حبهما ..

وأخذ الوقت يمر به بطيئا متاقلًا .. وبدأ له أن كل هذه الأعمال التافهة
التي يقوم بها لا تحتاج إلى وجوده في المعسكر .. وأنه يستطيع ببساطة أن ينهها

وهو في البيت بالتليفون ..
وعندما انتصف النهار نهض من مكتبه في تبرم .. وعزم على العودة إلى البيت ..
وقبل أن يغادر المكتب .. أقبل عليه عامل التليفون يحمل دفتر الإشارات ..
وقرأ إبراهيم الإشارة .. ويدا عليه الضيق والامتعاض .. كانت الإشارة تطلب ذهاب قواد الوحدات إلى مكتب قائد الفرقة في رفح ..
وألقى إبراهيم بالدفتر على المكتب في ضيق .. ورفع سماعة التليفون قائلاً :
— أعطني أركان حرب الفرقة ..
وبعد لحظة أجابه عامل التليفون :
— موجود عند سعادة القائد ..
— أعطني أى ضابط في الفرقة ..
— أتفضل يافندم .. معاك ضابط الإشارة ..
وبعد لحظة سمع ضابط الإشارة يتساءل :
— أفندم ..
— أنا البوزباشي إبراهيم شكرى ..
— أهلاً إبراهيم .. أنا الصاغ حسين زكى ..
— وصلت إلينا الآن إشارة تطلب قواد الوحدات لمقابلة قائد الفرقة ..
— أجل .. أنا الذى أرسلتها ..
— ما هو المقصود بقواد الوحدات .. هل أنا منهم ؟
— طبعاً .. أتظن نفسك صغيراً يا أبا خليل ؟ .. أنت قائد على سن ورمح ..
ولم يحس إبراهيم برغبة في المزاح .. فتساءل في ضيق :
— وما هو المطلوب منا ؟

- حضور مؤتمر ..
- وهل ضرورى أن أكون موجودا به ؟
- طبعا ضرورى .. نحن لا نستغنى عن المهندسين أبدا ..
- ومتى تريدوننا ؟
- الساعة الواحدة .. يعنى تركب عربتك وتأق حالا ..
- ومتى سننتهى ؟
- علم هذا عند القائد ..
- متشكر ..
- مع السلامة ..
- ووضع إبراهيم السماعه .. وهو يحس بقلق .. إلى متى سيطول المؤتمر .. وماذا يريد قائد الفرقة منه .. وكيف يترك ليل وحدها ؟
- على أية حال .. ليس هناك مفر من الذهاب .. والمؤتمر لا يمكن أن يطول أكثر من ساعة أو ساعتين على الأكثر ثم يعود بعدها إلى ليلى ..
- وسارت العربته تنهب به الطريق إلى رفح .. وفي خيمة أركان حرب الفرقة التقى بمراد .. وكان قد سمع ضجيججه وهو فى طريقه إلى الخيمة .. ولم يكديراه حتى أقبل عليه متسائلا :
- ماذا أتى بك إلى هنا ؟
- المؤتمر ..
- مؤتمر ١٢ .. وماذا تنوى أن تقول فى المؤتمر ١٢ ؟
- لا أنوى أن أقول شيئا .. إنى سأستمع فقط وأجيب إذا ما سئلت عن أى شىء أستطيع الإجابة عنه ..
- ألم تحضر مؤتمرات قبل هذا ؟
- لا ..

— اسمع .. أنا حضرت مئات المؤتمرات قبل هذا .. وخرجت منها كما دخلت فيها .. لت وعجن .. وعجن ولت .. نحن نريد أسلحة .. دبابات ومدافع .. والمؤتمرات للأسف لا تلد لنا إلا كلاما وحكما ..

وبدا المؤتمر .. وقبل فيه كلام كثير .. سرح إبراهيم في معظمه .. ولم يحس بندم كثير .. فقد أحس بتفاهة الجزء الذى استطاع ذهنه أن يلتقطه .. فى الهتافات التى كان ينصت فيها إلى المؤتمر ..

وطال المؤتمر .. وطالت المناقشات فيه .. وأحس إبراهيم بقلقه يتزايد كلما أوشك النهار على الانتهاء ..

كان يكره أن يترك ليلى وحدها .. إذا ما سقطت الظلمة .. وكان يخشى أن يكون القدر قد نوى السخرية منه .. وأن رحيل مديحة .. ورحيل مراد .. عن البيت .. سيعقبه رحيله هو أيضا .. وأن بيت الأحلام قد خلا حتى منه ..

ولكن قلقة لم يطل .. وما لبث المؤتمر أن انتهى .. وأسرع إبراهيم يقفز إلى عربته ومراد يلوح له مودعا وهو يهتف به :

— مع السلامة .. سلم لى على ليلى .. وخذ بالك منها .. لا تتضايق منها لأنها دلوعة .. احتملها حتى أعود .. وسأحاول أن أخطف رجلى إليك فى كل فرصة أستطيع فيها التزويغ ..

وانطلقت العربة عائدة بإبراهيم فى ظلمة الليل إلى العريش .. ونصيحة مراد ما زالت تطن بأذنه « احتملها حتى أعود » .. يا للسخرية .. إنه يتمنى لو احتملها طول العمر ..

الفصل الثاني والعشرون

بلا نهاية

كانت الأمطار قد أخذت تتساقط .. واشتد عصف الريح .. خيم الصمت
إلا من طرق قطرات المطر على النوافذ والأسطح .. ولطم موجات الريح
لأفرع الشجر وفحيحها بين أوراقها .. وطرقعة شرر يتطاير من راكية نار
حولها المراسلة والجنائين يصطليان بدفتها في كشك الحديقة ..
وداخل الدار رقدت ليلي على الفراش وقد بدا عليها شروء شديد وجلست
أمامها نهي تحاول أن تقطع الصمت بكلمات متقطعة لا تلبث أن تذوب على
شفتيها ..

كانت ليلي تحس بقلق شديد ..

كانت ترهف سمعها .. عليها تسمع صوت وقوف عربة .. أو دق
جرس .. وكان السمع يخدعها .. بأصوات سراية مستمرة لعربة تقف
وجرس يدق .. وكانت تشد يدها على الوسادة وترفع رأسها .. هاتفة بنهي:
— أحد بالبواب .. أسمعت دقا ؟

وتنصت الفتاة برهة ثم تهز رأسها قائلة :

— لا أحد هناك ..

ويغرق كل منهما في صمت .. وينطلق بهما الذهن في جولاته الهائمة ..
وراء هذا « الأحد » الذي يجلسان في انتظاره ..

لماذا طالت غيبته ؟

إنه لم يفعلها من قبل .. لم يغب قط عن البيت مثل هذه الغيبة .. إنه دقيق

المواعيد .. منتظم الروحات والغدوات ..
أتراه قد ذهب إلى الخطوط الأمامية .. إلى قلب المعركة ..
من يدري .. يحتمل أن يكون هو الآخر قد أمر بالآل يغادر مواقعه ..
وأحست ليلى بعبء يجثم على صدرها ويثقل أنفاسها .. ولعله أيضا .. في
طريقه إلى القتال .. أو هو يقاتل فعلا ..
ولكن أى دور يمكن أن يقوم به في المعركة .. لقد سمعت من مراد .. أن
المهندسين لا يحاربون .. وإنما هم يساعدون فقط في المعركة .. ييثون ألغاما ..
أو يرفعون ألغاما .. يتسفون طريقا .. أو يصلحون طريقا ..
وأحست بنوع من الطمأنينة .. ما لبث ذهنها حتى نفذها .. وعاد يعم في
إقلاقها ..
إنه على أى حال في أرض المعركة .. ومحتمل أن يصيبه لغم .. أو تصيبه
طلقة طائشة ..
وبدأ ذهنها يضع التفاصيل .. ويصور الدقائق .. وأحست بالألم يعتصر
جوفها .. وضغطت على شفتها حتى تمنع نفسها من البكاء ..
وحاولت أن تطرد عنها الوسوس .. ومقنعة نفسها بأن غيبتها لا تحتم
خوضه معارك أو اشتراكه في قتال .. وإنه قد يأتي بين لحظة وأخرى ..
وعادت تتساءل مجيبة على محاولات التهدة ..
ولكن لماذا لم يخبرها ..
ما ضره لو أنبأها في التليفون أنه سيتأخر ؟
أترى لو أن مديحة موجودة .. هل كان يفعل هذا ..
هل يتركها بلا كلمة واحدة ..
ولكن مديحة زوجته .. وهذا حقها عليه ..
وملأت نفسها مرارة أليمة ..

أجل .. أى حق لها فى أن تطلب منه الاستئذان فى التأخير .. إنها لم تطلب
هذا من زوجها .. إن مراد يغيب بالليل دون أن ينبئها أو يستأذنها ولم تشعر
مرة واحدة بالقلق عليه .. أو بالرغبة فى لومه ..
ومع ذلك فهى ترتجف الآن جزعا وقلقا ؟
لماذا ؟

لأنها تحبه ؟

وما آخرة هذا الحب .. وما جدواه ؟

حرمان أبدى .. أم علاقة أثيمة محرمة ؟

لو أن الأمر .. كان بيدها وحدها ..

لو أن المسألة .. كانت مسألة ارتباطها هى .. لما بدا يمثل هذه الاستحالة ..
إنها لم تحس يوما ما .. بارتباط روحى .. مع مراد .. ولا تعتقد .. أنها يمكن
أن تحس به .. لأن مراد كائن بلا روح .. إنه مجرد جسد مندفع كالصاروخ ..
لا يمكن أن يأتلف مع غيره .. أو يعبا بمن حوله ..

وفى أيامها الخالية .. طالما تآقت .. إلى الإلف الحنون .. إلى النظرة
الرقيقة .. والمسة المطمئنة .. والأذن المنصتة .. والبسمة العذبة ..

لقد افتقدت كل هذا طوال حياتها .. إنها لا تكاد تذكره إلا فى أمها
الراحلة .. منذ أمد بعيد .. وهى بعد طفلة لا تذكر الأحداث إلا وقائع
مهزوزة هائمة كأنها الأحلام ..

ومرت بها حياتها بعد ذلك .. وهى وحيدة فى داخلية المدارس .. ثم ضمها
البيت كغريبة مع زوجة أبيها .. وبعد ذلك التقطها مراد .. ليضعها فى بيته ..
مجرد آلة .. تشبع نهمه عندما يحتاج إلى أنثى فى فراش ..

لا حب .. ولا حنان .. ولا ألفة .. ولا وداد .. ولا مشاعر متبادلة .. ولا
رغبات مشتركة .. ولا .. ولا .. ولا شئ أبدا .. مما يشعرها بأنها مخلوقة

سامية .. ذات روح وقلب .. ومشاعر .. وأمانى وأحلام ..
حتى لقيت أخيراً هذا المخلوق المحرم ..
ولو كان الأمر بيدها .. لسألت مراد أن يعفيها ببساطة من ارتباطها به ..
إنه قطعاً في غير حاجة ماسة .. إليها بالذات ..
أية مخلوقة أخرى .. لها جسد طرى .. وصدر وساقان وأرداف .. يمكن
أن تقضى حاجته ..

ليس لها في اعتباره .. من الملامح الخاصة ما يميزها عن سواها ..
وليس هناك من الارتباطات ما يعذر عملية الانفصال .. لا أولاد .. ولا
مشاعر .. ولا أية تعقيدات أخرى ..
وهو لا يعبأ بشيء .. ولا يقيم وزناً لشيء .. ولا جدال في أنه سيعفيها من
ارتباطها به .. بمنتهى البساطة ..
ولكن إبراهيم ..

هل يستطيع أن يخلى نفسه بمثل هذه السهولة التي تفكر بها ؟
هل ارتباطه مع طرفه الآخر .. يمكن أن يحل .. بنفس السهولة التي تتوقعها
من طرفها الآخر ؟
لا تظن ..

ليست الحال واحدة في الناحيتين ..
إنه في حياته أكثر استقراراً .. ولولا اعتراضها طريقه .. لما كان هناك ما
يجعل حياته أمراً غير طبيعي .. ولما بدا له أنها كانت يمكن أن تكون شيئاً غير
هذا ..

وهو مخلوق له ضمير .. لا يستطيع أن يبنى سعادته .. على شقاء الغير .. أو
يطلب مزيداً من الهناء .. على حساب هناء الآخرين ..
هو يكره أن يتسبب في إيذاء إنسان .. ولو أدى هذا إلى منحه مزيداً من

الريح من حياته .. مهما كان هذا الريح حيويا بالنسبة إليه ..
إنها تعرف جيدا .. تعرف مدى إحساسه .. بمشاعر الناس .. وتقديره
لآلامهم ..

ومن المستحيل .. أن يقدم على أمر .. يعرف أنه يسبب ألما لكائن ما مهما
كان شعوره لهذا الكائن ..
وهو لا يكره مديحة .. لأنه لا يكره أحدا .. وهي تجزم أنه يحترمها
ويقدرها ..

ومن أجل هذا .. تحس ليلي أن فك الارتباط بينهما .. مسألة لا يمكن إقناع
النفس بها ببساطة .. حتى ولو على سبيل .. التمنى ..
ثم إن هناك .. نادية ..

هناك الحلقة التي تحكم .. الوثاق بينهما .. والتي تجعل الانفصال شاقا
أليما ..

هناك الكائن الحي .. الذي يمثل .. الصلة الدائمة بينهما .. والتي تفتقدها
هي مع الطرف الآخر ..

هناك الخلق الذي سيظل معلقا بقلبيهما .. بيد هنا .. ويد هناك .. مهما
فصلت بينهما الظروف .. وفرقت الأقدار .

أجل .. مسألة حريتها .. قد تبدو سهلة ميسورة أمام حريته فإنها شاقة
عسيرة .. بل إنها .. لإنسان .. في مثل خلقه .. تكاد تكون مستحيلة ..
فماذا يمكن أن تأمل بعد هذا ؟.

علاقة .. مستترة ؟

كيف .. وإلى أى مدى ؟ .. وما نتيجتها ؟ .. هل يمكن أن تستمر مدى
الحياة ؟

هل يمكن .. أن يشد أحدهما إلى الآخر .. خفية .. وبلا عواقب ..
(طريق العودة)

ولا نتائج .. إلى ما لا نهاية ..

مستحيل !! ..

وأحسست برأسها يوشك أن يتحطم .. وهى تجدد نفسها تصل .. إلى نفس النتيجة التى تصل إليها دائما .. كلما خاض ذهنها فى التفكير والاستنتاج .. وكرهت تفكيرها .. ولم تجد لنفسها مخرجاً .. سوى الهروب منه .. يجب ألا تفكر فى النتائج .. لتركها للقدر .. يفعل بها ما يشاء .. ليس من شأنها أن تدبر المصائر .. إنه من شأن القدر وحده .. إنها لا تريد شيئاً .. يكفيها جداً .. اللحظات التى تعيش فيها .. ماذا يمكن أن تجنى من عمرها .. خير من تلك اللحظات المشرقة التى .. تضمها وإياه .. فى حب واحد .. ومشاعر وأمانى واحدة ليفعل القدر بعمرها بعد ذلك ما يفعل ..

لن تعبأ بكل ما يأتى به إليها .. « وقد يهون العمر إلا ساعة » ..

فقط .. لبيعث به إليها الآن ..

لماذا تأخر ؟ .. إنها لم تحس بحاجتها .. إلى شيء فى حياتها .. كما تحس بحاجتها إليه فى تلك الساعة ..

ونظرت إلى نهى .. وبعينها نظرة التساؤل الجزعة اليائسة ..

وأجابت نهى مطمئنة :

— لا بد أنه قادم فى الطريق .. ما دام لم يقل أنه سيبيت خارج البيت ..

— ولكن ماذا أخره ؟

— لا بد أن هناك مشاغل .. إن الحالة ليست على ما يرام وقد سمعت من

محمود السائق .. أن هناك تحركات فى جميع الخطوط .. وأن أمرا ما يوشك أن يحدث ..

وأحسست ليلى بخوف من ذلك « الأمر ما » ..

ولكن نهى .. أطلقت الكلمة بغير خوف .. ولا خشية .. كأنها تريد ،
وتتوقع ذلك « الأمر ما » .. ولم يكن وقوعه .. يخيفها .. رغم أنها لم تستطع أن
تمنع نفسها من اللهفة على عودة إبراهيم ..
كانت نهى حائرة .. فى مشاعرها ..

لقد تمت دائما أن يشق لها إبراهيم طريق العودة .. كانت تضعه فى موضع
فارس الأحلام .. يدك بسلاحه .. حصون اليهود .. ويمزق أوصالهم ..
ويقذف بجثثهم إلى البحر ..

كانت تركز فيه كل أحلامها .. وأمانها .. وكان وسيلتها للتأثر من خسة
اليهود .. وضعتهم .. ووسيلتها للعودة إلى أهلها الغائبين وأرضها الطيبة ..
وربوتها الخضراء ودارها الرحبة .. وشمسها المشرقة .. كانت تريده أن يخوض
المعارك .. من أجل وطنها المسلوب .. وقومها المشردين ..
كانت تتوق إلى أن يخرج ليضرب ويثأر .. ولكنه لم يكده يغيب .. حتى
أحست بلهفة عليه ..

ولكنها لهفة .. بلا جزع ..
كانت أحاسيسها أبسط كثيرا من أحاسيس ليلي ..
كانت مشاعرها لا يشوبها إحساس بغيرة أو يأس لأنها لم تحس أن هناك من
يشاركها فيه ..

كانت مطالبها منه .. تختلف تماما عن مطالب غيرها .. ولم تكن تضع
نفسها أبدا طرفا ثالثا .. مع الطرفين الآخرين .. ليلي .. ومديحة ..
لم تكن فى مشاعرها نحوه .. تتطلع إليه كيشير .. بل كان فى أحاسيسها ..
بمجرد صفات .. تحتاج إليها .. وتتلهم عليها ..
كان حنانا .. يعوضها .. عن أهلها الضائعين ..
وكان قوة .. تعيد إليها وطنها .. المسلوب ..

ولم تكن ترى هناك منافسا لها .. فيما تطلب .. ولا كانت تحس أن أحدا ..
يستطيع أن يسلبها .. ما تأمل منه .. ولا يشاركها ما ترجو فيه ..
ولم تكن تخشى عليه من المعارك .. ولكنها فقط كانت ترجو أن تكون إلى
جواره ..

كانت تحس أنها تستطيع أن تفعل له الشيء الكثير ..
وكانت في أحلامها .. لا تتركه وحده قط .. كانت تسهر على راحته ..
كانت تعد له الطعام .. كانت تضمد جرحه .. كانت تحذره من العدو ..
كانت تفعل له شيئا كثيرا ..
وكانت في انتظارها قلقة ..
لا لخوفها من أن يكون قد ذهب إلى المعركة .. بل لخوفها من أن تكون
معركة الأحلام قد بدأت .. دون أن تكون هي في أثره .. ملاصقة له ..
كان يجب أن تنبهه إلى ذلك ..
كان يجب أن تحذره من أن يذهب إلى المعركة وحده ..
فقط .. لو عاد الآن ..
وانتهت نهي إلى نفس الأمنية .. التي انتهت إليها ليلي لو أنه عاد ..
ودق الجرس ..
دقا حقيقيا هذه المرة ..
وقفزت نهي إلى الباب .. وشدت ليلي قبضتها على الوسادة ومدت رأسها
لترى الداخل ..

وفتح الباب .. ودخل إبراهيم .. مبتل الثياب معفر الوجه ..
وسأل في لهفة :
— كيف حال ليلي ..

واسترخت ليلي في فراشها متهددة في راحة ..

وأجابت نهى :

— بخير .. كيف حالك أنت ؟ .. لماذا تأخرت ؟ ..

— لقد كنت فى مؤتمر فى رفع ؟ ..

وسار إبراهيم إلى حجرة لىلى ونهى تتبعه قائلة :

— ظننا أنك ذهبت إلى القتال .. وقد نسيت أن أرجوك ..

والتفت إليها إبراهيم متسائلا :

— ترجو فى فيم ؟ ..

— ألا تذهب إلى المعركة .. إلا إذا أخذتني معك ..

وضحك إبراهيم وتساءل فى دهشة :

— آخذك إلى المعركة ؟

وكان قد وصل إلى حجرة لىلى .. ووقف أمامها .. ينظر إليها فى شوق ..

وأحس بنفسه لهفة جارفة على ضمها إلى صدره ..

ولكنه لم يملك إلا أن يقف صامتا أمام الفراش .. يرقبها فى حنان شديد ..

وابتسمت لىلى .. وقد تبددت من نفسها كل مشاعر اليأس والجزع .. ولم

تعد تحس إلا يشعور عميق من الرضاء والراحة .. وتمنت لو مدت إليه ذراعها

ليأخذها فى صدره ..

ولكنها لم تجرؤ على أكثر من مديدها .. تشد بها على يده .. وهمست قائلة :

— لماذا تأخرت ؟

— استدعونا إلى مؤتمر ..

— ولماذا لم تنبئنى ؟

— ظننت أنى لن أتغيب كثيرا ..

— لقد كدت أجن .. إياك أن تفعلها بعد ذلك ..

— إلى هذا الحد قلقت على ! ..

— وأكثر من هذا ..

وكانت نهى قد غادرت الحجرة .. وهى تحس أن شيئاً ما يوشك أن يقال ..

وأردفت ليلي وهى ترتعد :

— إني دائماً أعجز عن الشرح لو كانت المشاعر تُرى .. لأراحتنى كثيراً ..

وضغط إبراهيم على يدها وهو يحس بها مرتجفة ياردة وقال هامساً :
— لا حاجة بك إلى شرح مشاعرك .. لأننى أحسها فى مشاعرى .. ليس علىّ لكى أعرف ما بك .. إلا أن أراجع ما بى ..
وصمت برهة ثم قال :

— أنت بردانة .. لماذا لم توقدى المدفأة ؟ ..

— لقد كنت فى غيبتك لا أفكر إلا فى شيء واحد .. هو عودتك ..
— أما وقد عدت .. فأظننا نستطيع أن نفكر فى أشياء كثيرة نفعلها معا ..
سأذهب لأخلع ملابسى وأوقد المدفأة ..
وترك إبراهيم يدها ثم ذهب إلى حجراته .. فأبدل ملابسه ثم حمل بعض الوقود فملاً به المدفأة .. وأشعلها ..

وسأله نهى :

— أين إبراهيم الطباخ ؟

— لقد ذهب إلى بيته .. هل أعد العشاء ؟

— أهنأك شيء جاهز ..

— أجل .. لا يحتاج إلا للتسخين ..

اختفت نهى فى المطبخ .. وعاد إبراهيم إلى ليلي وكانت قد جلست فى فراشها ترقب نيران المدفأة التى بدت من خلال الباب ..

وأمسك إبراهيم بيدها وأخذ يفركها بين يديه .. قائلاً :
— ما زلت بردانة ؟ لن تؤثر فيك المدفأة وأنت على هذا البعد ..
وصمت برهة ثم تساءل قائلاً :
— ما رأيك لو انتقلت أمام المدفأة ؟
— كيف ؟
وضحك إبراهيم مجيهاً وهو يمد يديه ليرفعها من الفراش ..
— هكذا .. هل ترينها مشكلة ؟ ..
وسار بها يحملها من ذراعيها ببساطة كأنها طفلة .. وتملكتها نشوة عجيبة
وهي تحس بجسدها مضموماً إليه .. ورائحة جسده وأنفاسه تنفذ إلى أنفها ..
وكانت عملية النقل مفاجأة بريئة .. ولم يقصد من ورائها إلا مجرد النقل ..
ولكنها مع ذلك كانت أمتع من كل عمليات العناق والضم ..
ووضعها على أريكة أمام المدفأة قائلاً وهو يضحك :
— لم أكن أظنك خفيفة بهذا القدر ..
وضحكت ليلي مجيبة :
— مع أن بي نصف قنطار جبس ..
ووضع إبراهيم وسادة وراء ظهرها وجر الغطاء على ساقها قائلاً :
— أظن هذا خيراً بكثير من رقدة الفراش .. تستطيعين الآن أن تستمتعي
بالمدفأة ..
وأقبلت نهى من المطبخ فذهلت من وجود ليلي أمام المدفأة وصاحت :
— كيف أتيت إلى هنا ؟ ..
ومد إبراهيم ذراعيه قائلاً :
— على كرسي السلطان ..
وضحكت نهى قائلة في خبث :

— وأين يريد السلطان أن يتناول عشاءه ؟
— أمام المدفأة طبعاً .. سنتناول العشاء كلنا معا ..
وبدأت نهى تعد الطعام على منضدة صغيرة أمام الأريكة التى تتمدد عليها
ليلي .. وعندما انتهت من إعدادة قال إبراهيم :
— اجلسي يا نهى ..
— لقد تعشيت ..
— متى ؟
— الآن فى المطبخ .. أتريدان شيئاً .. أم أستطيع الذهاب إلى النوم ؟
— لماذا لا تجلسين معنا ؟
— إذا لم تكونا فى حاجة إليّ .. فأني أفضل أن أستريح ..
وكانت نهى تحس أنها ثالث غير مرغوب فيها .. ولم يضايقها الأمر .. ولم
تحس بغيرة ..
على النقيض .. لقد تملكها إحساس بالراحة وهى تشعر أن إبراهيم قرير
هائى ..
إنها تطلب منه أشياء أخرى غير التى يمكن أن تحصل عليها ليلي .. فلا داعي
للغيرة ..
وهى تحب راحته .. أكثر من أى شئ آخر .. فلا مجال للضيق ..
وهى تستطيع بعد كل ما تأخذ منه ليلي .. ومديحة .. والآلاف غيرها ..
أن تجد منه .. ما تريد هى منه .. فعلام الأسف ؟
وعادت فى هدوء فاستقرت فى فراشها ..
وبعد برهة بدا البيت فى صمته العميق وسكينته التامة .. وقد أطفئ
الضوء .. إلا من الألسنة الحمراء تتراقص فى جوف المدفأة .. وقد استند رأس
ليلي على الوسادة .. وتمدد جسدها على الأريكة .. وأمامها قد جلس إبراهيم

— ٢٣٣ —

ممسكا بكفها بين يديه .. محذقا في وجهها الذى يتراقص عليه الضوء الأحمر
وخصلة ذهبية قد تهدلت على جبينه ..
وملأ كل منهما إحساس عجيب بالراحة والاستقرار .. ولم يعد لديهما من
أمل .. إلا فى أن يجمد الزمن وتطول جلستهما حتى تصبح بلا نهاية ..

الفصل الثالث والعشرون

الخيوط القاتم

تمطى مراد في فراشه السفري داخل الكشك الصباح .. ماذا ساقبه حتى
حافة الفراش .. وذراعيه حتى ارتطمت إحدى كفيه بجدار الكشك البارد ..
والأخرى بحافة المنضدة السفري .. وتقلصت عضلات وجهه في تشاؤب
شديد دفع فكه السفلي حتى كاد يلامس عنقه ..
وأعقب تمطيه .. وتشاؤبه .. استرخاء شديد تركه كالجثة الهامدة .
وتمطى .. وتشاءب .. واسترخى ..
ثم تمطى وتشاءب واسترخى ..
وظل يمارس حر كاته الثلاث .. دون أن تبدو عليه بادرة يقظة ..
كان مراد قد شبع نوما .. ولكنه لم يجد هناك مبررا لليقظة ..
أى شيء حوله يستحق يقظته ؟
وفتح عينيه نصف فتحة .. فوق بصره من خلال رموشه المبللة بدموع
التشاؤب .. على السقف الأسود المعرج ..
أى جديد فوق السقف أو تحته .. يستحق أن يستيقظ من أجله ؟
أما فوق السقف .. فلا يظن هناك جديدا ..
فراغ عريض .. تكدست فيه السحب .. وعوت فيه الريح ..
دهابات ومدافع .. ووجوه غبراء تسعى بينها كالثمل الحائر ..
ورئاسات حمقاء جالسة في الخيام .. ومعها خرائط ، بلا مواقع .. وأوراق
بلا أوامر ..

ولا أحد يدري شيئا عن أى شيء .. كأنهم كلهم مجاذيب حول أضرحة
الأولياء ..

أما أسفل السقف ..

وألقى نظرة عابرة على محتويات الكشك .. ثم أغمض عينيه مرة أخرى ..
كأنما قد استخسر فيه النظرة ..

لا جديد هناك .. اللهم إلا ساكن احتل أحد الفراشات الخالية ..
عود طرى .. كان نصيب كنيسته من آخر حزمة حشت من الكلية
الحربية ..

لقد احتل محسن فراش عسران .. واستلم سريره ..
إنه شديد الحماس .. فرح بدباباته .. وعساكره .. فرح بالنجمة التى فوق
كتفه .. والخوذة التى فوق رأسه .. فرح بثياب الميدان التى يأبى إلا أن يرتديها
كاملة .. نظيفة مكوية ..

إنه فرح لكل شيء .. حسن الظن بكل شيء .. وب نفسه شوق إلى
الحرب .. التى رآها فى الأفلام .. وقرأ عنها فى الروايات ..
وقد سأله ذات مرة عما إذا كان يستطيع أن يأخذ دبابته ويذهب .. ليدق
اليهود ثم يعود ..

ولم يقل له مراد أنه قد لا يعود .. أو قد يعود سائرا على قدميه .. كما فـه
هو ..

لم يكن هناك ما يدعو لخذلانه .. ولهن الصورة الرائعة التى تملأ ذهنه ..
ألم يكن هو نفسه يحس بهذا قبل المعركة الأولى ؟
ألم يكن يتوق إليها ؟

ألم يخضها باستهتار .. وبلا إحساس بأى خطر ..
هل أحس والشظايا تتطاير من حوله والرصاص يصفر ويقر .. أن حياته

معلقة بخط سير هذه الأشياء الصلبة المارقة حوله ؟
هل خطر له أن وجوده في خط سير هذه الشظايا أو الرصاصات أمر محتمل
جدا .. وأن حركته .. أو حركتها لا تملك قوة — سوى قوة القدر — أن
تضبط إحداها مع الأخرى لكي تمنع .. أو تحدث .. الالتقاء القاتل ؟
هل خطر بباله .. وهو يتحرك في حماس في أرض المعركة أنه ليس هناك
أشد بساطة ولا أكثر احتمالا من قتله ؟
أبدا .. لم يخطر بباله هذا .. إلا بعد انتهاء المعركة .. وبعد أن وجد نفسه ما
زال يسير ويتحرك ويتنفس كأي كائن حي ..
ترى هل تكون تلك هي أحاسيسه في المعركة الثانية ؟
لا يظن ..
إن خير معاركنا .. هي المعركة الأولى ..
دعك من التجربة .. فالمعركة تحتاج إلى شجاعة الجاهل أكثر منها إلى علم
المجرب ..
فلماذا يفسد جهل الصبي بالمعركة .. بعلمه بها وتجربته فيها ؟
ولم يملك وقتذاك أكثر من أن يجيبه :
— اصبر عليهم .. قريبا سندقهم معا ..
ولم يكن هناك جديد تحت السقف أكثر من هذا ..
العود الأخضر .. الشديد الحماس .. الشديد الفرح .. الذي ملأ أحد
الفراشات الخالية .. بجسده النحيل ووجهه البض الذي لم يفضن بشرته نبت
لحية ولا تجاعيد تجربة ..
وقام مراد نصف قومة ..
وتمطى وتثائب .. ولكنه لم يسترخ .. بل صاح بصوته الصاخب :
— مراسلة ..

ولم يجبه أحد .. كان الكشك خاليا والضباط الثلاثة قد انطلقوا إلى
سراياهم ..

وتذكر أن عبد الرحيم أنبأه بالأمس أن هناك مؤتمرا عند قائد الآلاى ..
ومد يده إلى المنضدة فتناول الساعة .. وحرك سبائته وإبهامه على المسمار
الصغير ليملاها ..

كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف ..
والمؤتمر فى التاسعة ..

ودلى ساقيه من الفراش وهو يحس بمزيد من السخوط ..
ألم يشبعوا مؤتمرات ؟
وعاد يصيح بصوت أعلى ولهجة أحد :
— مراسلة ..

وعاد صوت العسكرى مجييا من الخارج :
— أفندم ..

ثم اندفع إلى داخل الكشك محيا ..
وصاح به مراد :
— اعمل شأى ..

وخرج العسكرى .. ومد مراد يده فتحسس ذقنه .. وحدث نفسه
ساخطا :

— لا بد من الخلاقة .. لست أدرى ما لزوم كل هذا الشعر .. عشر دقائق
فى اليوم ضائعة فى الخلاقة .. أى ساعة فى الأسبوع .. أى ٥٢ ساعة فى
السنة .. وأنا أحلق ذقتى وأنا فى الخامسة عشرة .. قبل أن تثبت .. أى قضيت
من عمري ألف ساعة فى الخلاقة .. سخافة .. لن أحلقها اليوم .. ليفعل سى
زفت ما يشاء ..

وكان يعنى بسى زفت قائد الآلاى .. الذى لم يشك فى أنه سيلومه على ذقنه الطويلة .. وسيدعى أنه مثل سيئ للضباط والجنود ..
ومديده إلى علية الخلاقة ففتحتها .. ثم صب بعض ماء الزجاجاة فى الكوب الصاج .. وأخذ فى وضع الموسيقى فى العدة وهو يزفر قائلاً :
— نخلق وأمرنا إلى الله .. ونوفر الخناقة لسبب أهم ..
وبدأ الخلاقة ..

وشرد به الذهن فى أشياء كثيرة .. متناقضة .. اليهود الكلاب .. والبث كوثر الراقصة فى الكوفنت جاردن .. وضابط الصيانة الذى يعطل نصف الدبابات فى ورشته ..

وقطع عليه شروده المراسلة .. ودون أن يرفع بصره من المرأة الصغيرة المشروخة الموضوععة على المنضدة .. تساءل :
— عملت الشاى ؟

ولم يجب العسكرى وبدأ عليه التردد .. ورفع مراد نظره عن المرأة وصاح به :

— أين الشاى ؟

وبلع العسكرى ريقه وأجاب :

— ليس هناك جاز ..

ونظر إليه مراد فى غيظ وقال :

— جاز ؟ .. ومن قال إننى أريد أن أشرب جازا ؟

وتلجج المراسلة وبدأت عليه الدهشة .. وقال موضحاً :

— لا يوجد جاز .. ولا مؤاخذة .. لعمل الشاى ..

وصرخ به مراد :

— اعمله بينزين .. اعمله بحطب .. اعمله بنار جهنم .. امش هات

شأى ..

وعاود حلاقة متمتا :

— أهذه حال .. لا يستطيع الإنسان حتى أن يشرب فنجانا من الشأى ..
طبعاً ما داموا هم يستريحون فى قياداتهم لماذا لا يفعلون بنا هذا .. لماذا لا
يرموننا فى المواقع ويحرمون علينا مغادرتها .. وإلى متى سنبقى فى مواقعنا ..
ولماذا ؟ .. قسماً بالله لأنزلن العرش اليوم .. بل سأنزل كل يوم .. وملعون أبو
الأوامر .. أجل .. لن أمكث ثانية واحدة بعد المؤتمر .. ما الذى يكرهنى على
تنفيذ مثل هذه الأوامر البلهاء التى تعطى بلا مبرر ولا سبب ..
وأحس بوقع أقدام تقترب .. وظنه المراسلة .. ودون أن يرفع عينيه
تساءل :

— أأحضرت الشأى ؟

وأجابهم صوت اليوزباشى عبد المنعم أركان حرب الآلاى قائلاً له فى
انزعاج :

— شأى إيه يا حضرة .. أمازلت تخلق .. والدنيا قائمة ؟! ..

ونظر إليه مراد وأجاب فى سخرية :

— دعها قائمة .. مسيرها تقعد ..

— ليس هذا وقت مزاح ..

— ما شاء الله .. هل حددتم أيضاً وقتاً للمزاح .. هل عملتم له نوبة .. لماذا

لم ترسلوا لنا إشارة بهذا ؟

— اسمع يا مراد .. إن هناك أوامر بالتحرك ..

— تانى ؟! .. نتحرك أكثر من هذا ؟!

— أجل ..

— إلى أين ؟! .. نرعى فى حضن العدو .. أم نعود إلى القاهرة ؟

— بل تعود إلى العريش ..

— العريش؟ .. لا .. بسيطة .. عز الطلب .. بعد بضع دقائق سأكون في العريش .. عمرك أطول من عمري .. قبل أن تدخل كنت مصمما على أن أعود إلى العريش بعد المؤتمر . إلى في حاجة إلى حمام ساخن .. لو رأيت البانيو هناك ..

وصاح به عبد المنعم مقاطعا :

— مراد .. ليس هذا وقت مزاح .. لا بد أن تتحرك الكتيبة إلى العريش .. ونظر إليه مراد في دهشة وتساءل :

— الكتيبة ؟

— طبعاً ..

— الكتيبة .. الكتيبة .. بدباياتها وعساكرها ؟

— أجل .. الكتيبة كلها لا بد أن تتحرك الآن إلى العريش ..

— ومواقعنا؟ .. والجبهة؟ .. هل نتركها خالية .. أمام تهديد اليهود ؟

— إن اليهود يهددون العريش ..

ونهض مراد كالملسوع وصاح مستنكرا :

— غير معقول .. لا يمكن أن تبلغ بهم الجرأة هذا الحد ؟!

— إنهم يتجهون إليها عن طريق العوجة .. متقدمين من بير سبع ..

— وماذا سنفعل نحن ؟

— ستتحرك كتيبتك لتكون قبل سقوط الظلام في العريش .. لتعاون

القوة المدافعة ..

وبدا التفكير العميق على وجه مراد وقال متسائلا :

— كيف ستتحرك؟ .. إننا نحتاج إلى وقت طويل ..

— ستقل الكتيبة بالسكة الحديد .. لقد أعدت العربات وستكون بعد

نصف ساعة جاهزة للتحرك بالدبابات .. يجب علينا الآن أن ننقل الدبابات
إلى الرصيف ..

— هذه ليست مشكلة ..

— ما هي المشكلة إذن ؟

— إن نصف الدبابات عاطلة ..

— ولِمَ ؟

— أعطال صيانة ..

— يا أخي نصلحها .. إن الصيانة كلها ستكون تحت أمرك .. هيا اليس
ثيابك بسرعة ..

وبعد برهة كانت الكتيبة كخلية النحل .. وكان مراد يتنقل بين السرايا في
انفعال وقلق .. وبدأ الوجوم على الجميع وهم يتحركون بين الدبابات
الرابضة .. وقد مدت مدافعها في صمت .. كما يمد الكلب الرابض أنفه إذا ما
اشتم ريح الخطر ..

مخلوق واحد .. هو الذى كان يتحرك في حماس وجذل .
كان يصيح بالعساكر أن يسرعوا في عملهم .. وأن ينشطوا في حركتهم ..
كان يصعد ويبط من الدبابات ..

وكان يتحسس خوذته ليتأكد من وجودها .. ويثبتها جيدا على رأسه ..
كمظهر من مظاهر المعركة التي يوشك أن يخوضها ..
كان محسن .. يشعر بالكثير من السعادة التي يشوبها القليل من الارتباك ..
كأنما يوشك أن يبدأ لعبة جديدة طالت لهفته عليها ..

وبدأ السائقون يحملون الدبابات على عربات السكة الحديد .. وعندما
انتهى تحميل جميع الدبابات وشدها إلى العربات ..

أقبل محسن على مراد يؤدي له التحية بشدة .. بعد أن ضرب كعبه
(طريق العودة)

ببعضهما كما يفعل الطلبة .. وقال في حماس وابتهاج :

— تمام يافندم ..

ونظر إليه مراد وقد بدا عليه الشroud .. ولم يجب ..

وعاد محسن يقول وكأنه يتعجله :

— تمام يافندم .. الدبابات حملت .. متى نبدأ السير ؟

وهز مراد رأسه وأجاب في لهجة بها كثير من حماس الصبي :

— ستتحرك الآن ..

وعاد محسن يتساءل :

— هل سنبدأ المعركة بمجرد وصولنا ؟

وضحك مراد وأجاب :

— مستعجل على إيه يا أخى .. بكره تشبع حرب .. وضرب .. اصبر على

رزقك ..

وتحركت القاطرة .. وعلا صفيرها وهى تشد العربات التى حملت فوقها

الدبابات ..

ونظر مراد إلى العود الأخضر .. وهو يضحك فى مرح كأنه ذاهب إلى

رحلة ..

وتذكر المعركة الأولى ..

وتذكر عسران ..

وأحس أنه يحتاج لبعض الجهد لكى يوقف المرارة التى أفعمت فؤاده ..

ولكى يكبح الدمع الذى أوشك أن يتصاعد إلى مقلتيه ..

وأحس أنه يحتاج لجهد أكبر .. لكى يمنع ذلك الحيط القاتم من الخوف

الذى أخذ يتسرب إلى نفسه ..

الفصل الرابع والعشرون

كيف ودعتك

استقر مراد في العريش بما تبقى من الكتيبة بعد أن فرقت سراياها للعمل مع الوحدات المدافعة .. واحدة مع الكتيبة التاسعة المشاة .. وأخرى من آلاى السيارات .. غير التي بقيت في رفع مع رئاسة الفرقة .
وكان الليل قد ادلمهم .. وظلمة قاتمة تلف الوجود .. بعد أن حجبت السحب السوداء المخيمة في السماء كل منفذ لبارقة ضياء .. وريح جنوبية لاسعة ينفذ صقيعها إلى العظام ويصفر فحيحها في الآذان .
وقبع مراد وسط عربتين شد بينهما مشمع يقيه لسع الصقيع وعصف الريح .

وبدا المكان أشبه بالجحر الضيق أو القبو الموحش .. ولم تفلح محاولات المراسلة في سد منافذ الريح فأخذت تصفر من أسفل العربات وتفتح من وصلات المشمع .

وجلس مراد على الأرض فوق صندوق ذخيرة فارغ . وقد ارتدى أفرأول كاكى مبطنًا بالفرو كان قد حصل عليه من مخلفات الطيران البريطاني . ورفع ياقته حتى حجبت أذنيه وصدغيه ولف حول رأسه وعينيه كوفية كاكية . وتكور في جلسته ضامًا ركبتيه بذراعيه إلى صدره وقد أخذ يلوك آخر لقمة من ساندوتش البلوييف الذى بلعه برشفات من علبة البيرة الملقاة بين قدميه ..

وعلى ضوء الفانوس الهاريكين المتراقص .. بدا محسن وقد اتخذ مجلسه

منكمشا فوق صفيحة بنزين فارغة .. وقد زالت عنه أبهة ثياب الميدان بعد أن
حشر جسده في معطف الكلية الحربية الأزرق .. واستبدل بالخذوة المهيبة
طرطورا من الصوف كبسه على رأسه حتى وصل إلى عنقه وحاجبيه ..
وكانت أمه قد دست المعطف والطرطور في حقييته رغم أنفه .

كان محسن هو الوحيد الذى بقى مع مراد بعد أن تفرق بقية الضباط
بسراياهم .. وتملكه ضيق بحقارة الجلسة .. ونظر إلى قائده القاعد القرفصاء
على صندوق الذخيرة يلوك اللقمة في استرخاء بين شديقه .. وقد ألقيت أمام
قدميه علبة البيرة الفارغة ..

وتذكر قيادات المعارك .. وما كان يتصورها عليه .. الخرائط المنشورة ..
وإشارات اللاسلكى .. والأوامر المتتالية والحركة الدائبة ..
وبدت له قيادته .. أشبه بمأوى لشحاذين منها بمقر القيادات .. ووصل إلى
سمعه دوى بعيد فتمنى لو أنه انطلق بسريره وسط الدوى وبين النيران .. بدلا
من الانكماش في هذا الجحر الموحش .. بجوه المقيض وحقارته المذلة ..
وطال الصمت .. صمت بغيض موحش .. لا يقطعه .. سوى كركبة
العساكر وهمهمتهم ..

ورفع محسن رأسه وفتح شفثيه ليقول شيئا .. ولكنه ما لبث حتى ابتلع
كلماته ..

وزفر مراد زفرة ضيق من أنفه .. وقال فى سخط وكأنا يحدث نفسه :
— مسخرة ..

ثم استغرق فى صمته دون أن يعلن لأحد عما هى المسخرة .. ولا من الذى
فعلها ..

ولم يطل صمته هذه المرة .. ونظر إلى محسن وأردف قائلا :
— بعثروا الكنيية .. مغفلين .. ماذا ستفعل الدبابات مع كنيية المشاة ..

وما لزوم بقاء السرية التي تقيم في رفح مع رئاسة الفرقة .. عياقة ؟!
ولم يعرف محسن بماذا يعلق .. ولم يدع له مراد فرصة التعليق .. فقد أردف
وهو يرفع كتفيه في استخفاف ..

— أنا مالى .. يفعلون بها ما يريدون .. إن شاء الله يبعثونها تسير في
المحمل .. أريج لى .. ولم يعد على إلا أن أرسل بك أنت أيضا حيث
يشاعون .. وحيث تشاء عبقرية قيادتهم .. ثم أجلس .. تحت المشمع لآكل
بقية علب البلوبيف وأشرب بقية زجاجات البيرة .. وأتفرج عليكم .. عندما
تعودون .. أو عندما لا تعودون ..

— ولماذا لم تقل لهم هذا ؟

— لكى يقولوا إننا جبناء ؟ أى اعتراض على أوامرهم .. تهمة الجبن ..
ليفعلوا ما يشاعون .. إني لست محدث قتال .. سأنفذ أوامرهم بلا اعتراض ..
وساد الصمت مرة أخرى .. وعادت الريح تصفر .. حاملة معها صدى
الدوى البعيد ..

وقطع محسن الصمت هذه المرة وقد ضاق ذرعا بالجلسة الموحشة
البيضة .. وتساءل في قلق :

— متى سأتحرك ؟

— ولماذا العجلة ؟

— إني أتوق لخوض المعركة ؟

ونظر إليه مراد نظرة فاحصة .. وكاد يقول له « اتلهى » ولكنه بلعها ..
ولماذا يحطم معنويات الصبى .. ألا يكفي كل ما حوله من محطمت ..
إنه « سيتلهى » بعد المعركة .. فلماذا يتعجل « اللهو » له ..

وأجاب مراد في لهجة تطمين وتأكيد :

— حالا .. لن يطول بك الانتظار .. غير معقول أن يتركونا نتفرج على

المعركة .. لأنهم في حاجة إلى كل مدفع وكل طلقة .. لا بد لكل منا أن يأخذ
يدا في المعركة ..

ولم يكذ ينتهى من قوله .. حتى سمع صوت عربة تقف في الخارج أمام
المأوى .. وسمع صوتا يسأل :

— أين القائد ؟ ..

وصوتا يجيب :

— هنا يا فندم ..

واقتربت الأقدام من باب المأوى وانحنى اليوزباشى عباس ضابط إشارة
الآلاى ودلف إلى المأوى وتحرك منحنيا تحت المشمع متلفتا حوله حتى أبصر
مراد فى جلسته المتكورة فجلس أمامه على ركبتيه وأخذ يفرك يديه وينفخ
بأنفه .. وقد تدثر بمعطف كاكى ثقيل وهتف فى عجلة وجزم :

— سرية تتحرك حالا .. إلى تقاطع الطريق القادم من أبو عجيلة ..

وأجابه مراد فى غير عجلة ولا جزع :

— حاضر ..

واستمر عباس فى أوامره العجلى الجزعة :

— ويقدم قائدها نفسه إلى قائد المدفعية ليعمل تحت إمرته ..

ورفع مراد حاجبيه .. وهو متكور فى جلسته وتساءل فى غيظ :

— تحت أمره ؟

— أجل ..

— أمر قائد المدفعية ؟ لماذا ؟

— هذه هى الأوامر ..

— أينون أن يستخدموا الدبابات مدفعية ؟

— ليس هذا وقت مناقشة .. إن اليهود يقتربون بدباباتهم من الطريق

الجنوى .. ولا بد من وقفهم .. وأنتم أقرب قوة إلى القطاع .. يمكن تعزز الدفاع فيه ..

وهز مراد كتفيه وقال في استخفاف :

— أمركم .. ستتحرك السرية كما تريدون ..

ونفض عباس من مكانه وهو يؤكد في لهجته العجلى الجزعة :

— تتحرك حالا .. لقد نزل اليهود من بير سبع إلى الخلصة والعسلوج

وهاجموا آلاى السيارات والكتيبة الخامسة الموجودين أمام العوجة .. وهم

مستمرون في اتجاه العريش ..

وغادر عباس المأوى وسمع صوت عربة تدور ثم صوت احتكاك عجلاتها

بالرمال يتحرك في عنف ..

ورفع مراد بصره إلى محسن .. ورمقه في شرود قائلا :

— لم تنتظر كثيرا ؟

وبدا له وجهه وقد كبس الطرطور الصوفى الأبيض في رأسه بملاصحه

الدقيقة .. وبشرته الملساء كأنه وجه طفل .. وانطلق منه سؤال مفاجئ .. لا

يتم بصلة إلى الأوامر التى يتوقعها محسن :

— من أين لك بهذا الطرطور ؟

وعلت حمرة خفيفة وجه محسن وابتسم قائلا :

— أعطته لى أمى ..

— أهى تحبك كثيرا ؟

ودهش محسن من أسئلة قائده فى هذه اللحظة الدقيقة الحرجة التى تلقى

فيها نبأ اقتراب اليهود من العريش .. وساوره شك فى أن يكون قد ثمل ولكنه لم

يملك إلا أن يجيب :

— أظن هذا ..

— ماذا فعلت عندما أتيت إلى هنا .. قل الحق .. لا تحاول أن تصفها
بشجاعة لا وجود لها في صدر أمهاتنا ؟

وأطرق محسن وأجاب :

— لقد بكيت طول الليل !!

— وكيف ودعتك ؟

وتذكر محسن أمه وهي تضمه إلى صدرها وعيونها هامية تبلل وجهها
ووجهه .. وأجاب في ضيق :

— كما تودع الأمهات أبناءهن ..

— هل قالت لك لا تقطع الرسائل .. ولا تطل غيبتك ؟

وأطرق محسن برأسه ولم يجب ..

ولم يدر مراد ماذا دفع بعسران إلى رأسه في هذه اللحظة ونخيل الدبابة
المشتعلة المتفجرة ..

وتصور الفراش الخالي سيخلو مرة أخرى .. والأم التي تنتظر رسائل
الصبي .. وتلهف على عودته .. لا يصلها سوى نبأ استشهاد .. ولا تلقى
سوى .. بقايا .. إن استطاعوا الحصول عليها ..

ونظر إلى الصبي ذى الطرطور الأبيض والمعطف الأزرق الذى وقف
ينتظر أمر التحرك .. أو .. أمر الموت ..

وأحس مراد بمرارة في حلقه .. لم يدر .. من البلوييف والبيرة .. أم من
هواجسه ..

وفجأة نهض من فوق صندوق الذخيرة .. واتجه إلى باب المأوى ومحسن في
أثره ..

وبين صفير الريح .. والدوى البعيد .. علا صوته الأجش .. مصدرا
أوامره لمحسن :

— اسمع .. ستبقى أنت مع الحملة .. وسأذهب أنا مع السرية .. مفهوم ؟
ودهش محسن وبدت على وجهه إمارات الخيبة ..
— ولكن .. إنها سريتي أنا .. ولا بد أن أقودها ..
— قلت لك إني سأقودها وستبقى أنت ..
— ولكني لا أرغب في البقاء ..
— وأنا لا أرغب في قتلك .. أنت ما زلت حديثا ولا يجب الزج بك في معركة منفردا ..

— ولكنني أستطيع ..
— كفى غلبة .. إنك لن تستطيع شيئا .. بمجرد أن تنفرد وحدك بالسرية ستحس أنك ضائع .. تائه .. إني أعرف هذا الإحساس جيدا .. والعميلة ليست سهلة ..

وتحرك مراد بضع خطوات ونادى بصوته الصاخب ..
ومن الظلام أجابه صوت :
— أفندم ..

— نادى الباشو يش بقرى والجاويش حنفى ..
واستمر مراد سائرا تجاه الموقع الذى وقفت فيه سرية محسن وبعد لحظة بدت أشباح تهرول ناحيته .. ووقف بقرى وحنفى يحييان في الظلام ..
وبلهجة حاسمة قال مراد :

— اسمع يا باشاويش .. سأتحرك الآن بسرية محسن أفندى .. وسيبقى محسن أفندى مع الحملة ورئاسة الكتيبة .. لا أريد هوظان .. مفهوم ؟
— مفهوم يا أفندم ..

— وأنت يا حنفى .. سنتحرك الآن .. حالا .. إلى مفترق الطرق للعمل مع المدفعية .. إن اليهود يقتربون من العريش .. هل الدبابات جاهزة ؟

ورد محسن بمرارة :

— جاهزة تماما .. تمنيت أن تتحرك في رئاسة .
ونظر إليه مراد ومد يسراه فأمسك بكفه الأيمن وسارا متجاورين في
الظلمة إلى الدبابات ..

وقال مراد في لهجة اعتذار :

— لا تضيق بي يا محسن .. إن العملية أشق من أن تقوم بها وحدك ..
والمعارك أمامك كثيرة .. عندما يشتد عودك ستشبع مرمطة .. إنك لم تعرف
العساكر ولا الصف ضباط بعد .. أنت ما زلت غريبا على الكتيبة .. وعلى
الدبابات .. ابق الآن .. اجلس واكتب إلى أمك لتطمئننا عليك .. وبلغها
تحيات قائدك .. الذي ذهب ليقود السرية بذلك .. وقل لها أن تدعو له
بالسلامة ..

الفصل الخامس والعشرون

حساب خاص

وصل مراد ومحسن إلى الدبابات .. وقبل أن يصل مراد إلى الدبابة .. سمع صوت عربة تقترب ووقفت العربة .. ثم علا صوت اليوزباشى عبد الرحمن أركان حرب الآلاى يصيح متسائلا :

— أين حضرة اليوزباشى مراد ؟

وأجاب مراد صائحا :

— هنا يا عبد المنعم .. عند الدبابات ماذا تريد ؟

وسار عبد المنعم تجاه مراد واقترب منه .. حتى كاد يلامسه .. ثم أسر إليه هامسا ..

— سعادة القائد أمر بأن تتحرك أنت مع السرية ..

وأحس مراد كأن الجملة قد لطمته .. وضغط على أضراسه حتى يكتم بغضبه وقال متسائلا :

— أنا أذهب مع السرية ؟

— أجل أنت ..

— ولماذا لا يذهب بها قائدها .. ما دام لها قائد ..

— تلك هى أوامره ..

— أنا قائد كتبية .. ولست قائد سرية ..

— ليس هذا وقت مناقشة .. إن اليهود يقتربون .. والعملية خطيرة .. وقد أمر القائد بأن تقود السرية .. وأنا هنا لإبلاغ الأمر .. ليس لشرح أسبابه .. أمر

يعنى أمر ؟

وتذكر مراد أمر المعركة الأولى .. الأمر الانتحارى .. ثم تذكر الرتبة الضائعة والنيشان المفقود ..

هذا إذن أمر انتحار جديد ..

إن سعادة القائد يأتى إلا أن يمنحه فرصة أخرى للموت ..

لقد ضاعت عليه الفرصة الأولى .. ومن حقه أن يمنحه فرصة جديدة ..

وملأت المرارة صدر مراد .. وأفعم الحقد نفسه ..

لقد نوى من تلقاء نفسه أن يقود السرية .. لأنه كره أن يصدر للصبي

الصغير أمرا بالموت ..

أما وقائده .. يأتى إلا أن يصدره له .. فهو لن يذهب ..

وانفجر فى عبد المنعم قائلا :

— قل لقائدك .. إنى لن أذهب .. قل له إنه وأوامره على حذائى .. إنى قائد

كثيرة .. ولن أقود سرية .. إذا كانت العملية خطيرة .. فليأت ليقيدها هو ..

أم تراه ينوى أن يأخذها باردة هذه المرة أيضا .. كما أخذها فى معركة

التبة ٨٦ ..

ونظر إلى محسن الذى وقف ينظر إليه فى دهشة وقال له :

— محسن أفندى .. تفضل قد سريتك ..

والتفت ثانية إلى عبد المنعم قائلا فى حدة :

— تفضل .. قل لقائدك إنى رفضت أن أخرج بالسرية .. ودعه

يحاكمنى ..

وهز عبد المنعم كتفيه وأجاب فى يأس :

— كما تشاء .. لقد نقلت إليك الأوامر وأنت حر فيما تفعله بها ..

وركب عبد المنعم عربته وانطلق فى الظلمات ..

ونظر إليه مراد حتى اختفى .. ثم حول بصره إلى محسن وقد اعتلى دبابته ..
وبدا يصدر أوامره إلى الشاويش حنفى ..
وأحس مراد أن رأسه يوشك أن ينفجر .. ما هذا الذى يفعله ؟
ألم يكن هو من تلقاء نفسه يتوى أن يتحرك بالسرية ..
ألم يسلم بخطورة المعركة .. وبعجز محسن عن خوضها وقيادة السرية
فيها .. وبضرورة تسلمه هو لها ..
لماذا بعد كل ما رأى .. يغير رأيه ؟
ألمجرد العناد والغضب ؟
أيحكم على الصبى الصغير بالقتل .. لمجرد أنه توهم أن قائده يريد به شرا ..
وما ذنب محسن فى نوايا قائده الآلاى ..
ثم .. ما ذنب المعركة نفسها ؟ .. أتضيق من أجل مجرد عناد وحقد
وغضب ؟

أيضيق الجيش .. والبلد .. من أجل عناده مع قائده ..
غير معقول ؟!
غير معقول أن يقدم على مثل هذه التذالة ..
غير معقول أن يصم نفسه بهذه الوصمة ..
يجب أن يخوض المعركة .. من أجل أم الصبى ومن أجل الكتيبة والآلاى
والفرسان والجيش والبلد .. ومن أجل المعركة ذاتها ..
ودارت الدبابات وهمت بالتحرك ..
ليؤجل حسابه الآن مع قائد الآلاى .. وبعد المعركة — إن عاش — فله معه
حساب عسير .. لا بد أن يقتله .. ويشرب من دمه ..
وأحس بشيء من الراحة ..
وقبل أن تتحرك الدبابة الأولى انطلقت صيحته :

— محسن ..

وأجابه محسن من فوق الدبابة :

— أفندم ..

— انزل ..

— لماذا ..

— سأقود أنا السرية ..

— ولكن .. إلى ..

وصاح به في حدة :

— قلت لك انزل يعنى انزل .. هذه أوامر .. أليس عندك ضبط وربط ..

ونسى كيف قال لعبد المنعم أن أوامر قائد الآلى على حذائه ..

وقفز إلى الدبابة وشد ياقة الأوفراول حول عنقه .. وهبت الريح عابثة

بشراشيب الكوفية ..

وبدأت الدبابات فى التحرك وقد علا ضجيجها حتى غلب صوت الريح

وصوت الدوى البعيد ..

وبين الضجيج والصفير والدوى شرد ذهن مراد فى المعركة الجديدة التى

يوشك أن يخوضها ..

ولم يجد الخيط القاتم من الخوف الذى أوشك على التسرب إلى نفسه مجالا

ليستشرى ويستفحل .. لقد سدت عليه السبل .. أحاسيس الغضب

والحنق .. وبددته طبيعة مراد المستهتر المندفعة القوية ..

وأحس مراد برغبة عنيفة فى القتال .. قتال الناس جميعا ..

كان يستبطن سحر الدبابة .. ويود لو اندفعت كالصاروخ لتضعه وجها

لوجه أمام العدو ..

كان يحبس بكره عميق وحقد شديد على اليهود .. هؤلاء الكلاب قد ملأوا

نفسه بالمرارة ..

إن بينهم وبينه مسألة شخصية ..

وبينه وبينهم قضية خاصة ..

دعه من القضية العامة .. قضية اعتدائهم الوحشى الصارخ على شعب
آمن وادع .. سلبوه أعز ما يملك .. سلبوه موطنه .. أرضه .. مائه .. سماءه ..
هواءه ..

مزقوا شمله .. ونهبوا ماله .. يتموا أبناءه .. وبقروا بطون حبالاه ..
دعه من فظائعهم .. وظلمهم .. وتبجحهم .. وسفالتهم ونذالتهم .. دعه
من مساوئهم الطبيعية .. واعتداءاتهم العامة فسيسويها .. حساب عام بينهم
وبين العرب .. وحساب أعم .. بينهم وبين الله ..
دعه من كل هذا ..

إن الذى يشغل ذهنه الآن .. حساب خاص .. بينه وبينهم ..

ذلك هو الذى يؤجج صدره .. ويشعل حقه ..

إن بينه وبينهم .. ثأرا شخصيا ..

بينه وبينهم .. دم عسران ..

الصعيدى .. الذى سفكوا دمه .. دون أن يأخذ بثأره أحد ..

ومن أحق بأخذ الثأر منه ؟

لا يكفيه عشرة من الأنجاس المناكيد .. سيجعلهم .. خمسة عشر .. أو
عشرين إن أمكن .. وسيذهب بنفسه إلى أبى عسران الصعيدى .. ليطفىء
غلته .. ويبرد ناره .. وينبئه أن ثأر ابنه لم يضع .. ويصف له كيف قتل
العشرين نجسا .. وكيف أحرق جثثهم .. وروى الرمال بدمائهم ..
وبعد ؟!

هل هذا هو كل ما بينه وبين العدو .. لا .. لا .. هناك معركة

الخاسرة .. وكتيسته المشتتة .. ودباباته المحطمة .. هناك مذلة أخفضوا بها رأسه .. حين عاد بعد المعركة .. وهو ضابط الفرسان الراكب أبدا .. سائرا بجر ساقيه ذليلا .. مهينا ..

حقيقة أنهم هزموا وارتدوا ..

ولكنه لم يذق حلاوة النصر .. ذاق علقمه .. وشرب مرارته .. شخصيا .. لم يعتبر نفسه منتصرا .. إن المعركة كانت في حسابه الشخصي هزيمة ..

أما الفائز .. المنتصر .. الذى كسب المعركة دون أن يخوضها ..

والذى ذاق حلاوتها .. وترك له المرارة فهو عبد الرحيم .. ومعه بسلامته .. قائد الآلاى ..

ودفع ذكر قائد الآلاى .. فى نفسه بشعلة جديدة من الحقد .. بعد أن كادت الأولى تخبو بأحلام النار وأمانى الاقتصاص ..

هذا هو خصمه الثانى .. بعد اليهود ..

ألا يريد هو الآخر موته ؟

لا فرق بين الاثنين سوى أن القائد يريد أن يقتله .. والعدو سيقتله دون أن يريد .. واحد يدفعه إلى المذبح .. والآخر .. يذبح ..

ألم يدفعه مرتين إلى الموت ؟

لقد نجا فى المرة السابقة ..

وفى هذه المرة .. سينجو أيضا ..

ولكنه لن يعود سائرا على قدميه .. بل معتليا برج دبابته .. سيعود منتصرا

بعد أن يصد هجوم اليهود .. ويبيد قواتهم .. وسيسير بدباباته حتى خيمة

القائد .. ولن يتوقف أمامها .. بل سيخترقها ويدوس على من فيها ..

ولكن لا .. لن يشفى هذا غليله .. لأنه لن يرى من فيها .. سينزل من

الدبابة .. ويدخل في هدوء إلى الخيمة .. ويقبض على زمارة رتبة القائد .. ثم يجره إلى الخارج .. ويجمع الآلاى .. والفرقة إذا أمكن .. ثم يرنه علقه .. جامدة .. يضحضحه ويمرط به الأرض .. ثم يجره من ساقيه إلى الخيمة .. ويصرف الآلاى .. أجل هذا خير حل .. علقه كفاية .. لا داعى للدهس .. أو الذبح أو شرب الدماء .. إن دمه ثقيل ولا يصلح للشرب .. وأحس مراد بالكثير من الراحة .. وابتسم لنفسه في الظلام وبدأ ينقل ذهنه إلى أشياء أجمل .. إلى ريتا .. وكوثر .. والمرأة التى أبصر ردفيها على محطة ترام شبرا .. و .. و ..

ولم يتم تفكيره .. فقد لاح لعينيه وسط الظلمات شبح عربة همبر مدرعة تقف على تقاطع الطرق .
وعندما اقترب منها صاح بالسائق :
— قف ..

وقبل أن يصيح مستفسرا .. عن أصحاب العربة .. سمع صوتا يصيح به متسائلا :
— مراد ؟

ولم يصعب على مراد أن يميز في الصوت .. صوت قائد الآلاى .. الذى لم يفرغ من ضربه العلقه إلا منذ بضع ثوان .. وأحس بمراحل الغضب تغلى في جوفه .. لقد أتى ليتأكد بنفسه .. من أنه في طريقه إلى الموت ..

ماذا يفعل به .. أيدخل عليه بالدبابة فيحطمه هو وعربته ؟
أيصوب عليه المدفع .. وبناقص طلقة .. وبناقص قائد آلاى ؟
ولكن ليس هذا وقته ..
إن أمامهم معركة .. ودم عسران لا بد أن يؤخذ بثأره .. ومذلة المعركة

الأولى لا بد أن ترفع ..
وأكثر من هذا .. العريش .. لا بد أن تنقذ ..
لا بد من الصبر ..
ليس أثقل على نفسه المندفعة النائرة من الصبر .. ولكن ماذا يفعل ؟ لا بد
من المعركة أولا ..
وعاد الصوت يتساءل مرة أخرى :
— مراد ؟
وأجاب مراد وهو يكظم غيظه :
— أفندم ..
— مساء الخير ..
— مساء النور ..
— كيف حالكم .. السرية جاهزة ؟
— جاهزة ..
— الذخيرة كفاية ؟
— كفاية ..
واقتربت العربية من دبابه مراد .. وهدأت نبرة الصوت وقال القائد في
صوت أخفض ولهجة أرق :
— وأنت .. كيف حالك ؟
وحدق مراد في وجه القائد في دهشة من تلففه .. وكان عبد المنعم يقف
في العربية بجواره ..
وأجاب مراد في خشونة :
— أيهمكم حالي ؟
— طبعاً .. من عندنا غير مراد يسد في الزنقات ..

— ألهذا تدفعون بى إلى الموت ؟

— لا موت هناك .. ستعود سليما منتصرا إن شاء الله .. لا ينفع فى هذه المعارك غيرك يا مراد .. لهذا أمرت بأن تقود أنت السرية .. أتذكر العملية السابقة ؟

— العملية الانتحارية ؟ التى دبيتونى فيها وحدى .. ولفتم حول المعركة مع عبد المنعم ؟

وأحس القائد بما فى قوله من سخرية ومرارة .. فأجاب ضاحكا :
— بالضبط ! هذه هى عملية انتحارية أخرى .. ولكن هذه المرة لن أدبك فيها وحدك .. ولن ألق حول المعركة .. كما قلت .. بل سأقدم أمامك .. وأندب فى المعركة ..

وحلق مراد فى دهشة شديدة .. ولم يصدق أذنيه ..
وأردف القائد يأمر السائق بالتقدم وهو يقول لمراد ضاحكا :
— سأسبقك إلى الانتحار .. أيها العجل الطيب الجرىء ..
وقبل أن تتحرك العربة صاح مراد متسائلا فى دهشة :
— ولكن لم أكن أنوى أن أنفذ أوامرك .. لقد كنت مصمما على ألا أقود السرية ..

ثم التفت إلى عبد المنعم قائلا :

— ألم تقل له ؟

وأجاب عبد المنعم وهو يهز رأسه :

— لم أقل له شيئا ..

— لماذا ؟

— لأننى كنت واثقا أنك ستخرج مع السرية .. أنا أعرفك جيدا يا مراد
وأعرف أنك كنت ستخالف الأوامر .. إذا قلنا لك ابق ..

وتحركت العربة المدرعة .. وتحركت الدبابات حتى وصلت إلى التبات المقاطعة للطريق والتي احتلتها المدفعية ..
وبدأت الدبابات تتخذ مواقع دفاعية مستترة وراء التبات لا يبدو منها سوى فوهات مدافعها .. المظلة على الفراغ المظلم العريض .. كأنها عيون ساهرة مترقبة ..

وجلس مراد يرقب الظلمات .. وب نفسه قلق واضطراب وهو يتوقع ظهور أشباح الظلام بين آونة وأخرى .. وأذناء مرهفتان .. منصتان .. إلى الطلقة الأولى التي ستؤذن بالمعركة .. وإحساس مريح يملأ نفسه .. وهو يشعر .. إنه لم يعد له إلا خصم واحد .. هو ذلك المقبل عليه من الظلمات .. أما قائده .. فقد ظلمه كثيرا بسوء ظنه ..
لا بأس عليه ..

عندما تنتهي المعركة .. وينجو بجلده ..
سيذهب إليه .. ويقبله ويعانقه ثم يسأله .. أن يختشى على دمه .. ويطلب له رتبة .. أو نيشانا ..

الفصل السادس والعشرون

دوى الصوت

دقت الساعة اثنتى عشرة دقة .. تشق السكون الذى خيم على البيت ..
وانتهى إبراهيم من عدها وهو جالس أمام المدفأة .. ولىلى قد تمددت على
الأريكة تنقل بصرها بين ألسنة النيران المتراقصة .. ووجه إبراهيم قد بدا عليه
الشروود والقلق ..

كان هناك شىء بالجو ..

كانت هناك رائحة خطر .. تتخلل النسائم العطرة الهادئة التى غمرت
وكرهما خلال الأيام القلائل الماضية .. لقد مرت بهما الليالى سريعة خاطفة .. لم
يحسا خلالها بالزمن والكائنات .. لم تكن الحياة فى نظرهما .. كتلك التى تعودا
أن يحياها .. لم يكن هناك وقت .. ولا كانت هناك تفاصيل ولا حدود .. لم تكن
حياتهما إلا حسوا للأمانى .. أو حلماء فى الدجى .. أو جلسة المختلس ..

ولم يفعلوا خلالها ذنباً .. أو ارتكبوا معصية ..

لا شىء يمكن أن يلوم أحدهما عليه نفسه ..

ولا شىء يمكن أن يزيد عما كانا يفعلانه .. فى حضور الطرفين
الآخرين .. ومع ذلك .. مرت بهما الأيام والليالى فى نشوة عجيبة ..

كانت نشوتهم مستمدة .. من الإحساس بوحدتهما معاً وبلا استقرار فى
هذه الوحدة .. بلا خوف ولا قلق .. وبأن كلامهما .. فى خلالها يحيا
للآخر .. ولا ينظر إلا إليه .. ولا يتحدث إلا معه .. بلا رقابة .. ولا
حساب .. ولا خوف ولا إحساس بالخطأ ..

كانت نشوتهما .. مستمدة من الإحساس بطبيعة الوجود تحت سقف واحد .. لا شريك لكل منهما .. إلا صاحبه .. ولا سلطان لأحد عليه .. إلا هو .. ولا اعتبار لكائن في الحياة سواه .. تلك هي المتعة الكبرى ..

متعة كفتها مؤونة الخطيئة .. ومشقة الزلزل .. كانا يتحدثان ويضحكان .. ويأكلان .. ويشربان الشاي .. كانا يعيشان .. كأنهما في فترة عادية .. من حياة زوجين .. لا عشيقين .. وكان لديهما الكثير مما يستمتع به .. بمجرد الحياة الطبيعية التي لا يحس بمتعتها أى زوجين .. قصت عليه حياتها .. قطعة من هنا .. وقطعة من هناك .. طفولتها .. وحياتها .. وشبابها ..

وقص عليها من حياته الكثير .. كيف كان يلعب في الحارة .. وكيف كان يعاكس المدرسين في الحصص .. وكيف دخل المهندسخانة .. وكيف شق طريقه ..

وبين هذا كله .. بين هذه القطع من الحياة الطبيعية التي استمتعا بها .. كانت تمر بهما .. فترات صمت طويلة .. من الإرهاق .. والحساسية .. والوله المنطوي في الباطن .. ولم يكونا يفرجان عن اللهفة المكبوتة بأكثر من تشابك الأيدي أو إسناد رأسها على صدره .. أو تخلل شعرها بأصابعه .. كان ذلك أقصى ما جرؤا على فعله مما يمكن أن يلوما عليه نفسيهما .. و١٤ لا يستطيعان فعله .. والطرفان الآخران موجودان ..

وكانت فترات الصمت هذه .. هي أقصى .. ما يتعرضان له ..

كان كل منهما يحتاج إلى قوة .. للمقاومة ..

مقاومة ما يمكن أن يدخل بصفة أكيدة في باب الخطايا .. مقاومة رغبة كل منهما في الارتقاء في أحضان الآخر .. في ضمه إلى صدره .. وفي مس شفتيه ..

وشم أنفاسه ..

مقاومة .. حاول كل منهما أن يخفى وجودها .. وينكر حاجته إليها ..
حتى ظهرت جليلة .. في إحدى فترات الصمت .. الصاخب .. أو الصخب
الصامت .. الذى يصطبخب فى صدريهما .. ويضج فى قلوبهما .. عندما طال
الصمت .. وزاد الحنين .. واشتدت اللهفة .. واستعصت المقاومة ..
فاندفعت ليلى فى نوبة بكاء عنيفة .. تركتها كريشة فى مهب الريح .. واضعة
رأسها فى صدره .. تاركة دموعها تنهر كسيل العاصفة ..
وعندما انتهت من البكاء . رفعت إليه وجهها فى أسف وكأنها تعتذر عن
بكائها ..

وابتسم إبراهيم .. فابتسمت .. وبدأت الابتسامة بين دموع عينيها كأنها
إشراقة الشمس المفاجئة بين قطرات المطر .. أو كأنها ضحكة الطفل
الباكى ..

وهمست تقول معتذرة :

— أنا متأسفة ..

— علام ؟ .. لقد فرج بكاؤك عني .. كما فرج عنك .. وأراحك .. كما
أراحني .. عندما نفترق .. سأذكر بكاءك .. كما أتذكر كل شيء منك ..
— لماذا تكثر من ذكر الفراق .
— لأنه نتيجة حتمية لما بيننا ..
— تقصد نتيجة شكلية ..

— لست أفهم ..

— إنا سنفترق ككائنين .. آليين .. ولكننا لن نفترق كإحساسين أو
روحين .. إلى لن أكف عن حبك أبدا ..
— ليت هذا يصدق !

— ألا تثق بى ؟

— لا أثق بطبيعة الحياة .. إن الكائنات الآلين هما اللذان .. يحددان سير الحياة .. إن المشاعر والأحاسيس تخمدنها .. مشاغل واحتياجات وارتباطات .. الكائنات الآلية .. والفرقة تعنى فرقة ..
— إني أكره فلسفتك .. سأحبك مدى حياتي .. أيا كان وضعنا الشكلي .. لقاء .. أم فرقة .. رؤية .. أم ذكرى ..
هكذا مرت بهما أيامهما ولياليهما حاملة خاطفة ..
ممتعة .. بلا زلل .. متشبية .. بلا خطيئة ..
قطعة هائلة من حياة زوجين .. تقطعها فترات من الصمت الواله ..
واللهفة المطوية .. والشوق المقاوم ..
وفي هذه الليلة .. عندما أذنت الساعة بانتصاف الليل كانت تمر بهما إحدى فترات الصمت .. ولكنها لم تكن كلها حنيناً ولهفة .. بل كان يشوبها .. ذلك الإحساس بخطر مبهم .. تسرى رائحته الخائفة في نسماتها الهادئة ..

وتحدثت ليلى لتقطع الصمت وتستدعى إبراهيم من شروده .. قالت متضحكة :

— إلى أين وصلت ؟

وابتسم وهو مستمر في صمته وشروده ..
وعادت تسأله :

— أذهبت بعيداً ؟

— إني معك ..

— كلك !

— تقريبا ..

— ٢٦٥ —

- والباقي ؟
- في القشلاق ..
- ماذا يفعل ..
- يجول في قلق ..
- ألم يكل ؟ ..
- هببه كل .. ما الحيلة ؟
- استدعه ليهدأ ..
- لا أستطيع ..
- له ..
- كان يجب أن أكون كلي هناك ..
- ما الداعي ..
- هناك حال من القلق شديد ..
- أقدر جد شيء ؟
- اليهود يتحركون ..
- ومتى كانوا لا يتحركون ..
- هذه المرة تبدو حركتهم جادة ..
- كيف ؟ ..
- يقال إنهم هبطوا من بير السبع .. متجهين إلى العريش ..
- غير معقول ..
- بل هو ما حدث فعلا ..
- هل ينوون دخول العريش ؟ ..
- الله أعلم بنياتهم ..
- أليس هناك من يوقفهم في الطريق ؟ ..

— ٢٦٦ —

- طبعاً هناك قوات ستلقاهم ..
- أتظنها تستطيع أن توقفهم ..
- لا بد أن توقفهم ..
- أجل .. غير معقول أن يصلوا إلى العريش .. لا بد أن تكون مغامرة .. أو تهويشة ..
- لا أظن .. إن الهجوم جدى .. لقد نقلت قوات جديدة إلى العريش .. ومن بينها الدبابات ..
- هل أتى مراد معها ..
- لم ألقه .. ولكن أغلب ظنى أنه قد حضر معها .. فإن كتيبته أقرب كتيبة إلى العريش ..
- لو أنه أتى لكان قد مر علينا ..
- لا أظن لديه وقتا .. لقد تحركوا من السكة الحديد إلى المواقع رأساً .. إن الحالة تبدو خطيرة ..
- وساد الصمت برهة ثم أردف إبراهيم وكأنما يحدث نفسه :
- كان يجب أن أكون هناك ..
- وماذا تستطيع أن تفعل ..
- أى شيء .. غير الجلوس أمام المدفأة ..
- هل كلفك أحد بعمل ما ؟ ..
- كلفوني تعزيز حقول الألغام على جانبي الطريق .. وقد انتهيت من تعزيزها خلال النهار ..
- ماذا تريد إذن أن تفعل أكثر من ذلك ؟
- لست أدري .. إلى فقط أحس بقلق ..
- لا تدع ضميرك يثقل عليك بلا مبرر .. عندما يحتاجون إليك

سيطلبونك ..
وفجأة .. سمع دوى ..
شيء آخر .. غير تلك الأصداء التي كانت تصل إلى مسامعهم خافتة
متباعدة بين آونة وأخرى ..
دوى شديد .. أعقبه دوى شديد آخر ..
وأنصت إبراهيم مأخوذاً ..
وبدا الجزع على وجهه ليلي ..
وساد الصمت برهة .. وما لبث حتى قطعت له ليلي قائلة :
— أنتظهم قد اقتربوا ؟ ..
وهز كتفيه في حيرة وقلق وضيق وأجاب :
— من يدري ..
— اقتربوا إلى هذا الحد ..
— لا أظن ..
— إذن ما هذا الدوى ؟ ..
— قد تكون مدافعتنا ..
وتوالى الدوى .. شديداً قريباً ..
وعادت ليلي تتساءل :
— ولماذا تستمر مدافعتنا في الضرب إذا لم يكونوا قد اقتربوا ..
ولم يجب إبراهيم وغادر مقعده متجهاً إلى التليفون .. ولكن قبل أن يصل
إليه فوجيء بمخلوق يندفع بشدة إلى الصالة .. ويصيح في جزع :
— إنهم يهجمون .. لقد وصلوا إلى العريش ..
وأبصر إبراهيم نهي بجسدها النحيل .. وقد أغرق المطر شعرها وثيابها ..
وهي تندفع من باب المطبخ الخلفي المؤدى إلى الحديقة ..

وتساءلت ليلي في دعر :

— من ؟

— اليهود ..

وتمالك إبراهيم نفسه وأقبل على نهي يربت ظهرها ويهدئ روعها قائلاً :

— لا تخافي يا نهي ..

— لست خائفة .. إني أريد أن أخرج لألقاهم .. كيف يجرؤون على

الوصول إلى هنا ..

— هدى نفسك .. ما الذى أخرجك في هذه الساعة ..

— لقد كنت هناك .. فى أقصى الطريق .. لقد أنبأنى السائق أن هناك

شيئاً .. وجلست على الرهوة لأرقب ..

— أنت مجنونة .. اذهبي وغيرى ملابسك .. وأوى إلى فراشك ..

وصرخت نهي فى حدة وهى تنتفض :

— كيف .. أنا آوى إلى فراشى واليهود على الأبواب .. سأذهب

لقتالهم .. سنذهب كلنا .. سأمسك سكيناً وأذبحهم ..

وجرها إبراهيم من يدها بشدة تجاه المدفأة ..

— اجلسي هنا .. إنك ستموتين .. من البرد أينما الغيبة .. أى سكين .. هذا

الذى ستذبحينهم به .. اجلسي ..

ولم تجلس نهي وأجابت متوسلة والدموع تخفقها :

— لا أستطيع أن أجلس .. عندما جلسنا أول مرة .. دخلوا علينا

وذبحونا .. لا يجب أن نتظر حتى يصلوا إلينا .. لا يجب أن نجلس لنصطلي أمام

المدفأة .. وهم يدقون أبوابنا ..

وأحس إبراهيم بلسعة من قول الفتاة .. ألم يجلس هو ليصطلي بنيران المدفأة

واليهود على الأبواب ..

وأى جلسة ؟

جلسة غرام ..

ومع من ؟

مع زوجة .. صديقه .. المقاتل .. الذى لا شك قد اتخذ مجلسه الآن .. ليس
على مقعد مريح .. ولا أمام مدفأة بين يدي امرأة .. بل فى برج دبابة أو وراء
مدفع وفى عصف الريح ولفح الصقيع .. وطرق المطر .. وبين يدي العدو .. أو
على الأصح بين شظاياها ونيرانه .. عجباً له ..
كيف أجاز .. لنفسه هذا ..

كيف أباحه .. وارتضاه .. ببساطة .. وبلا لوم ولا تأنيب ..
لقد كانت الصبية النحيلة خيراً منه .. إنه ينتظر حتى يكلفه أحد بواجبه ..
وهى تريد أن تخرج لتذبح اليهود بالسكين ..
ودون أن ينبس بكلمة رفع السماعه وطلب العربة ثم اتجه إلى حجرته ..
وبعد لحظة كان قد ارتدى ثيابه ..

ونظرت إليه ليلي ودموعها تنحدر فى صمت .. وقالت فى صوت مختنق ..
— أظن عبثاً أن أوقفك ؟

وشد إبراهيم على يدها وهمس :

— أترضين لى هذه الوصمة ؟

وهزت رأسها فى يأس ثم قالت :

— إني أعبدك ..

— وأنا أيضاً ..

وعضت على شفتها وهى تحاول أن تكتم بكاءها وعادت تهمس :

— عدنى أن تعود ..

— طبعاً سأعود ..

— إني أحبك ..

— وأنا أيضا أحبك ..

وسمع صوت العربة تقف بالباب ..

وهم إبراهيم بالسير ..

ولكن ليلى لم تفلت يده وهمست تستعطفه وبكاءها يغلب صوتها ..

— ألا تقبلني ؟

وساد الصمت برهة .. وعادت تهمس :

— إنها الأولى .. والأخيرة أيضا .. والله سيغفرها .. ومد إبراهيم ذراعيه ..

وضمها إليه .. ومس شفثيه بشفتيها .. وضغطها .. برفق ..

ثم ابتعد عنها .. واتجه بسرعة إلى الباب .. واندفعت نهى تعدو وراءه مادة ذراعها بالخوذة قائلة :

— خذ هذه .. إنك ذاهب للقتال ..

وتناول إبراهيم الخوذة ثم شد على يدها قائلًا :

— أشكرك ..

وقالت نهى متوسلة :

— لماذا لا تأخذني معك .. إني أستطيع أن أفعل لك شيئًا .. أى شيء ..

— إذن فابقى .. إلى جوار ليلى .. خذى بالك منها .. أنت تعرفين معزتها

عندى ..

وأطرقت نهى برأسها وأجابت ودموعها تنحدر :

— أجل أعرف .. أعرف جيدا ..

وهتفت ليلى وهى تراه يختفى وراء الباب :

— ستعود بسرعة .. لا تتأخر ..

وانطلقت العربة بإبراهيم .. واشتد الدوى وتلاحق ..

الفصل السابع والعشرون

قبل العاصفة

وصل إبراهيم إلى الشكنات .. وبنفسه إحساس غامض مبهم لا يدري كنهه .. لم يكن خوفا .. ولم يكن حماسا .. ولا غضبا .. ولا ضيقا .. ولا جزعا .. لا شيء من هذا كله .. وإنما هو إحساس أشبه بإحساس المشدوه .. المأخوذ .. الذى دفع به إلى جو جديد عليه .. غريب على مشاعره .. لم يكن يدري ماذا يمكن أن يفعل .. لم يكن أمامه عمل محدد واضح .. كان فقط يعلم أن هناك قتالا دائرا .. ومعركة ناشبة .. وخطرا يقترب .. وأن اليهود يتقدمون .. لا يدري إلى أى مدى وصلوا .. ولكن لا بد أنهم قد أضحوا على مرمى المدافع .. ما دام الدوى قد بدأ .. والمصريون قد احتشدوا لضربهم .. وكل فرد من القوات المسلحة لا بد أن يكون الآن قائما بعمل في المعركة .. وهو من أجل هذا لا بد أن يعمل شيئا .. أى شيء .. عدا الجلوس في استرخاء أمام مدفأة .. ووجد الضابط التوبتجى قد وقف في مكتبه يحملق من وراء زجاج النافذة تجاه أرض المعركة .. حيث بدت شعل المدافع تبرق بين آونة وأخرى .. والتفت إليه الضابط محيا وتساءل إبراهيم :

— كيف الحال ؟

— يبدو أنهم قد اقتربوا جدا .. إنهم يهجمون بقول مدرع ضخمة ..

— من أدراك ؟

— ضابط ملاحظة المدفعية ..

— لست أدري ماذا يقصدون بهذا الهجوم .. أحقا يريدون الاستيلاء على العريش ؟

— ربما .. على أية حال .. لقد عزز الخط أمامهم .. وطيراننا سيدقهم بعنف ..

— إنها مغامرة منهم ..

— ستكلفهم غاليا ..

وازداد الدوى .. وتتابعت شعل تبرق في الظلام .. وبدأ القلق على وجه إبراهيم .. وتحرك إلى العربة في عصبية .. وتساءل الضابط النوبتجي :

— إلى أين ؟

— سأذهب إلى خطوطنا ..

— ولم ؟

— قد يكونون في حاجة إلى شيء ..

— لا أظن لديهم الفرصة في التفكير في هذا الشيء الذي سيطلبونه ..

— قد تقدمه دون أن يطلبوه ..

— لا أظننا نستطيع أن نقدم إليهم شيئا الآن .. إن خير ما نفعل هو أن ننتظر أوامر القيادة ..

— انتظر أنت .. وإذا احتجت إليّ فأرسل في طلبى ..

ومرة أخرى انطلقت به العربة ..

ومرة أخرى عاوده الإحساس الغامض المبهم .. إحساس المشدوه المأخوذ ..

كان يقترب من أرض المعركة .. وصوت الدوى يزداد عنفا .. وتلاحقا ..

ولم يكن يدري إلى أين يذهب .. ولا ماذا يفعل ..
كانت المرة الأولى التي يقترب فيها من معركة .. ويوشك أن يلمسها
بيديه .. ويجول بين أسلحتها الحية .. وقنابلها المتفجرة .. ورضاصها
المتحرك ..

كان يكره القتال ..

وما زال يكرهه ..

ولكنه يكره أكثر منه .. جلسة المقعدين العاجزين أمام المدفأة ..

وهو لا يحس بخوف منه .. وإنما يحس فقط بدهشة .. وحيرة ..

وبدأ السائق يتمهل به وهو يجد العربة قد وصلت إلى قلب المواقع ..

وبدت لعينيه من بعيد أشباح المدافع والدبابات وهممة العساكر بينها ..

وتساءل السائق أخيرا وهو يقف بالعربة :

— إلى أين يافندم ؟

وبدت الحيرة على وجه إبراهيم ..

لم يكن يعرف هو نفسه إلى أين يذهب .. ولا ماذا يفعل .. كل ما كان يريد

هو أن يوجد في المعركة .. ويحس بالمشاركة فيها .. وهو يحس بشيء من الراحة

النفسية بعد أن وجد نفسه فيها فعلا ..

ولكن لم يكن معقولا أن يقف هكذا حائرا بين المواقع .. كان لا بد أن يرى

أحدا أو يكلم أحدا ..

وقال للسائق وهو يشير إلى أقرب المواقع إلى الطريق :

— اتجه إلى هذا الموقع ..

ووقفت العربة أسفل التبة التي احتلها الموقع ..

كان موقعا لمدفع مضاد للدبابات .. وقد استقر على التبة بماسورته الطويلة

السوداء المطلة على الفراغ المظلم وقد وجه فتحته تجاه الطريق ..

وكان يقع وراءه طاقمه وقد رصت بجوارهم الذخيرة .. وكانت العاصفة قد استرخت والريح قد هدأت .. ولكن الصقيع جعل الجنود ينكمشون كأنهم كتلة واحدة مستقرة وراء المدفع .. وبجوارهم استقر الملازم أول عمر جلال منكمشا في معطفه .. مسددا بصره إلى الظلمات المحيطة بالطريق أمام المدفع ..

وسمع عمر صوت العربية تقف وراء المدفع .. فالتفت وراءه .. وأبصر إبراهيم يهبط منها فتفض للملاقاته .. وهو يظنه أحد ضباط الرئاسة .. جاء ليطمئن على الموقع أو ليلقى بأوامر جديدة ..

وعندما اقترب الاثنان عرف كل منهما الآخر .. وصاح عمر في دهشة :
— إبراهيم .. ماذا تفعل هنا ؟

وأحس إبراهيم بشيء من الراحة وهو يجد الضابط يعرفه .. وزال عنه الكثير من إحساس الغريب المأخوذ .. وأجاب ضاحكا :
— أتمشى ..

وتساءل عمر ضاحكا :

— على كوبرى بنا ؟

وأجاب إبراهيم مقهقهة وقد زاد إحساسه بألفة المكان واعتياده على جو المعركة :

— ورصاص الحلو طَرف عيني !

وضحك عمر ثم عاد يتساءل :

— قل حقيقة ماذا تفعل هنا ؟

ورفع إبراهيم كتفيه في حيرة وقال :

— لا شيء بالذات .. أردت فقط أن أكون بينكم ..

ونظر إليه عمر في دهشة :

— تكون بيننا .. هنا .. أيجنون أنت .. ماذا ظننتها .. وليمة ؟ .. اذهب يا جدع وأوى إلى بيتك .. واسترح في فراشك ..

— ولماذا لم تفعل ذلك أنت ؟

— ابتلاني الله بهذه الرمية السوداء .. فماذا يكرهك أنت عليها .. ماذا يكرهك على الصقيع .. والسهر .. والتجول بين القذائف .. ألم تؤد واجبك في رص الألغام ؟ ..

— أجل ..

— إذن فعد إلى بيتك واسترح .. استرح أربعة وعشرين قيراطا .. لو كنت مكانك لما فعلت أكثر من هذا ..

— أنت واهم .. لو كنت مكاني لما فعلت سوى ما فعلت أنا .. هل تتصور أني لم أحاول الاسترخاء في البيت ؟ ..

— وماذا حدث ؟

— كنت أكثر ضيقا وقلقا .. مني هنا .. هل تظن من السهل على المرء أن يغمض عينيه .. ويسترخى .. وهو يعرف أن على مقربة منه قتالا يدور .. ومعارك تنشب .. وقذائف تتبادل .. وأنه بين لحظة وأخرى قد يصل كل هذا إليه .. هل تظنه يستطيع بسهولة أن يسترخى ويغمض عينيه ؟ .. إن المثل يقول : وقوع البلاء ولا انتظاره .. وأنا أقول بعد تجربة الليلة : دخول المعركة ولا الاسترخاء فيها ..

— أنت وشأنك .. ما دمت تأبى أن تجلس في الدفء .. فهيا بنا .. وسار الاثنان صاعدين التبة متخذين مكانهما وراء المدفع .. وتساءل

عمر :

— هل معك سيجارة ؟

— متأسف .. أنا لا أدخن ..

— نسيت أنك لا تدخن .. هل تصدق أنى لا أحتاج لشيء كاحتياجى إلى
سيجارة ..

لو علمت غذا لأحضرت لك معى علة بأكملها ..
ومضت فترة صمت حملق كلاهما فى الظلمات المكدة أمامه .. وتوالى
الدوى فتساءل إبراهيم :

— من الذى يطلق هذه النيران ؟

— مدفعية الميدان .. إنها تضرب تجمعات العدو .. أعتقد أنها آذته كثيرا ..
وأخرت هجومه .. والطيران أيضا دقه جيدا بعد أن جاوز العوجة .. لقد دمر
الكثير من مدرعاته ..

— ومع ذلك فهو مستمر فى تقدمه ؟ ..

— دعه يتقدم .. إن شاء الله سنقضى على البقية الباقية منه .. حتى لا يعود
إلى فعلها مرة أخرى ..

— هل تظن أننا سنصده بسهولة ؟

— طبعا .. إن « سمبو » وحده كفيل بهذا ..

— « سمبو » من ؟

— ألم أعرفك به بعد ؟

وهز إبراهيم رأسه .. فأشار عمر إلى المدفع الرابض أمامه قائلا :

— هذا الأسد المتحفز للانقضاض .. هو « سمبو » .. ألم تسمع عنه .. لقد
ضرب رقما قياسيا فى تدمير دبابات العدو .. إنه مدفعى الخاص ..
ومد يده فربت ماسورة المدفع برفق كما تربت عنق كلب مطيع .. وأردف
قائلا :

— لم يخيب ظنى قط .. بينى وبينه صداقة قديمة منذ أن تخرجت فى الكلية
وعملت بالبطارية .. إنه أفضل مدافع الآلى كلها ..

— ٢٧٧ —

ونظر عمر إلى طاقم المدفع وأردف ضاحكا :

— والا إيه يا ولاد ؟

وأجاب الأومباشى مؤكدا :

— مضبوط يافتدم .. حضرة الضابط متعود على ضربه من زمان ..

ونظر إبراهيم إلى المدفع متأملا .. ثم تساءل :

— كم مدفعا مثل هذا فى الخط ؟

— التروب كله موجود .. ولدينا أيضا سرية دبابات .. لقد اتخذت

دباباتها مواقع بجوارنا على الخط .. إن مواقعها جيدة .. لقد أحضرها مراد ..
أتعرفه ؟

— طبعا أعرفه ..

— إنه يحتل الموقع المجاور ..

— أهو قريب من هنا ؟

— دبابته يمين الطريق مباشرة .. أتحب أن نذهب إليه ؟

— هيا بنا ..

وسار الاثنان على أقدامهما وراء المواقع .. وعبرا الطريق .. فبدت أمامهما

دبابة مراد وقد اتشحت بالظلام واستترت وراء إحدى التبات .. وقد اعتلى

مراد برجها وأخذ يحملق أمامه ..

ولم يكده يحس بوقع الأقدام حوله حتى تلفت مستطلعا .. وباده إبراهيم

بالتحية قائلا :

— مساء الخير يا مراد ..

— من ؟

— أنا إبراهيم ..

— أهلا إبراهيم .. ماذا أتى بك إلى هنا فى هذه الليلة السوداء ؟

— أشار ككم في سوادها ..
— وكيف حالهم في البيت ؟
— بخير .. يسألون عليك .. كيف حالك ؟
— الحمد لله .. الذى لا يحمد على مكروه سواه ..
ونظر إلى الساعة فى قلق وأردف قائلاً :
— ماذا آخر هؤلاء الكلاب ؟ .. لماذا لا يهجمون ويريمونا .. لقد أوشكت
أن أغفل بضع مرات .. إن العساكر ..
ولم يتم كلمته .. فقد قطع عليه الحديث صوت دوى مجاور أصم آذانهم ..
وتلاه دوى متلاحق من الخط كله .. وقال مراد فى عصبية وحدة :
— الظاهر أنهم بدعوا الهجوم ..
وتطلع أمامه فى قلق .. محاولاً أن يخترق الظلمات ليرى القوات المتقدمة ..
ولكنه لم يبصر شيئاً ..
وتساءل فى دهشة :
— لماذا إذن كل هذا الضرب ؟
وأجابه المدفعجى من داخل الدبابة :
— الظاهر أن طلقة خرجت خطأ من أجد المواقع .. فتبعه الخط كله ..
وصاح مراد فى حنق :
— هؤلاء الحيوانات .. سيضيعون الذخيرة على الفاضى .. ويكشفون عن
مواقعنا بمقامتهم ..
وهبط من الدبابة وقفز إلى عربة جيب وقفت على مقربة من الدبابة ..
وقال :
— عن إذنبكم يا جماعة .. سأرى هؤلاء الحمقى .. حتى لا يعودوا إلى
بعزقة الذخيرة بلا سبب .

ثم التفت إلى عمر قائلا :
— وأنت يا عمر .. نبه على عساكرك ألا يضربوا بمثل هذا الطيش .
وأجاب عمر :
— لا تخف علينا .. نحن لا نضرب إلا في المليان .. عندما يصبح العدو على
مرمى حجر منا .. أو في قبضة يدينا ..
ورد عليه مراد :
— وحياة والدك بلاش قنزحة .. اذهب ونبه على عساكرك كلنا في الهوى
سوا ..
وانطلق مراد بعريته .. وعاد عمر إلى موقعه مصطحبا إبراهيم ..
وعندما اقتربا من المدفع تساءل عمر :
— ألدبك شيء تفعله ؟
— أبدا .. لقد خرجت — كما قلت لك — بلا قصد إلا الوجود في
المعركة ..
— إذن ابق معي .. نتسلى .. حتى يبدأ الكلاب هجومهم .. سأدعك
تشاهد خير ما في المعركة .. ستشاهد سمبو وهو يدمر دباباتهم واحدة بعد
واحدة ..
واتخذ الاثنان مكانهما بجوار الطاقم وراء المدفع .. وربت عمر على مدفع
في إعجاب وهو يقول :
— يا سلام عليك .. يا سمبو يا عترة ..
ثم التفت إلى إبراهيم قائلا :
— أتعرف كيف تستعمله ؟
وهز إبراهيم رأسه مجيبا :
— طبعا لأ ..

— إن استعماله من أسهل ما يمكن .. هل ضربت بندقية ؟ .

— أجل ..

— إنه شبيه جدا بالبندقية العادية .. نضع الطلقة في مؤخرته .. هنا في هذه

الفتحة ..

واستمر عمر يشرح كيفية استعمال المدفع .. وإبراهيم يقلب البصر بينه

وبين الأفق المعتم .. لعل هناك طلائع عدو ..

وعندما انتهى عمر من شرحه قال :

— ما رأيك .. أظن المسألة سهلة جدا ..

ووافق إبراهيم .. دون أن يتأكد أن المسألة سهلة جدا كما قال عمر .. فقد

كان كل ما التقطه كلمات متقطعة عن التنشين .. والضرب ..

ولم يشعر بأنه قد خرج لتلقى دروس في المدفعية .. وكانت حالة التوتر

والقلق التي تسود الخط كله لا تسمح له بتركيز ذهنه في شرح عمر ..

واستمر عمر في حديثه قائلاً :

— المسألة لا تحتاج إلا إلى أعصاب .. لا أكثر ولا أقل .. صوب المدفع إلى

الدبابة .. واصمت ودعها تقترب منك .. وتقترب وتقترب .. لا تقلق ولا

تجزع .. اتركها حتى آخر لحظة .. عندما تحس أن مدفعها كاد يلامس

رأسك .. ثم اطلق .. ستصرعها في الحال كما تصرع الثور عندما تضربه في

جبهته بين عينيه .. أرأيت .. أن المسألة في غاية السهولة ..

وأبتسم إبراهيم وتساءل في دهشة :

— في غاية السهولة .. أن تنتظر حتى يلامس مدفعها رأسك ؟ ..

— المسألة — كما قلت — مسألة أعصاب ..

— ومسألة ثقة في النفس .. وفي المدفع .. وفي كل شيء .. هب أن الطلقة

كذبت أو أن المدفع عطل .. ماذا تفعلون ؟ .

— ٢٨١ —

— يرحمنا الله ! .

ونظر عمر إلى المدفع الأسود الطويل العنق .. وربت عنقه وهو يقول
محذرا :

— خذ بالك يا سمبو .. إياك أن تفعلها ؟ .

وخيم الصمت .. وكفت مدافع الميدان عن دويها .. وساد الخطوط
سكون خائق .. أشبه بسكون ما قبل العاصفة ..

الفصل الثامن والعشرون :

الوجه الضاحك

طال الصمت في الخطوط .. ومر الوقت دون أن يبدو للعدو المنتظر أثر ..
أو يسمع له صوت ..
وأصاب الجنود والضباط خمول واسترخاء ..
وجلس إبراهيم وراء المدفع .. منكشاً في معطفه ويجواره عمر .. ومراد
الذي ترك موقعه .. وأقبل يقطع الوقت معهما .. وأحس إبراهيم أن الصقيع
قد جمد أطرافه .. وأن النوم قد بدأ يتقل أجفانه .. والصداع يدق رأسه ..
وانتهى كل ما يمكن أن يقال بين ثلاثتهما .. وأفرغ مراد كل ما في جعبته
من التهريج .. ولم يعد لدى عمر ما يقوله عن سمبو ودروس المدفعية ..
وبدأ إبراهيم يلوم نفسه على هذا الحمق الذي انتهى به إلى جلسة في صقيع
الليل وسط الرمال .. بلا معارك ولا حرب ولا ضرب ..
لعن الله ضميره الحى .. إنه سبب كل هذا ..
ولعن الله الفتاة المجنونة .. إنها هى التى أثارت ضميره بخيلها وهذيانها ..
ولولاها لكان الآن مضطجعا فى فراشه أو مسترخيا أمام المدفأة .. يتطلع إلى
ليلى .
وتذكر دموعها الصامته المنحدرة على خديها .. ونظراتها الجزعة التى
ودعته بها .
وأحس بلهفة إلى أن يضمها إلى صدره ..

و .. فجأة ..

أيقظه من أحلامه .. صوت دوى شديد رج جسده .. ثم صباح جندي
بأعلى صوته :

— ها هم .. لقد ظهروا ..

ونفض الدوى ما حط على جسده من استرخاء التعب .. وأطارت صرخة
الاقتراب ما أثقل جفنيه من تخدير النوم .. وأحس بأعصابه تتوتر ومشاعره
ترهف .. وأحس من ذهنه شبح ليلي والمدفأة والدموع والوداع .. وشعر بكل
حواسه تتركز في عينيه تنظلمعان إلى الفراغ الذي أخذت الظلمات تنقشع عنه
وتسرب منه ضوء باهت رمادي خليط من الظلمة والنضياء .. وبدأت في أفقه
هياكل سوداء برزت حدودها العليا في خط الأفق ولاحت كأنها كوديات
حشيش .. تناثرت في الأفق الرمادي ..

وقفز مراد في عنف واندفع يعدو إلى دبابته .. وهو يصيح :

— ظهروا أخيرا .. الكلاب أولاد الكلاب ..

ورفع عمر المنظار إلى عينيه وأخذ يرقب النقط السوداء في الأفق الشاحب
وبدأ هادئا إلا من صدر يعلو ويهبط بطريقة واضحة ..
وظهرت بين طقم المدفع حركة عصبية .. قفز أحدهم هناك وتحرك
الآخر هنا .. وأمسك الثالث بالذخيرة ..

وألقى عمر عليهم نظرة السوداء تقترب .. ويجد السكون من حوله
مخيما .. قاسية رادعة وقال من بين أسنانه :

— وبعدين ؟ .. حانهبل ؟ جرى لك إيه .. منك له ؟ .. اثبت .. لسه

بدري ..

وهذا الطقم .. هدوءا سطحيا .. وأخذت الأعين كلها تتركز في النقط
السوداء الشبيهة بكوديات الحشيش وهي تتضخم رويدا رويدا ..
وبدأ القلق يتسرب إلى نفس إبراهيم .. وهو يرى النقط والصمت

مطبقا .. إلا من أصوات أنفاس تتلاحق .. وطققة أو خربشة نتيجة لحركات الجند العصبية .. وتملكته دهشة من طريقة بدء المعركة .. هذا التسلل العجيب والسكينة التامة لا ينم أبدا عن معركة .. أو قتال .. أنه مجرد لقاء أو مصافحة .. لا أكثر ولا أقل .

وضاق إبراهيم بالسكون وبالحملة في النقط السوداء المتضخمة .. لماذا لا يضرب أحد الطرفين .. لماذا لا يثيرون ضجيجا وصراخا .. ولماذا كف هذا الدوى الذى أذن ببدء المعركة .. ونظر إلى عمر فوجده قابعا في موضعه .. رافعا المنظار إلى عينيه ولا أثر به لانفعال أو تأثر إلا هذا الصدر الصاعد الهابط ..

وتساءل إبراهيم :

— ماذا وجدت ؟

ومد يده بالمنظار إلى إبراهيم .. ورفع إبراهيم المنظار إلى عينيه ولم يبد له في أول الأمر شيء .. ثم ضبط المنظار على عينيه فبدت له النقط السوداء شيئا أضخم وأضح التفاصيل محدد المعالم ..

وهتف إبراهيم :

— دبابات ..

وأنتم عبر حديثه محدد النوع :

— شيرمان ..

— كيف عرفت ؟

— برجها العالى .. وجسدها الضيق الملفوف .. إنى أستطيع أن أميزها جيدا من بين عشرات غيرها .. إنها أضخم كثيرا من اللوكس .. وأعلى من الدبابة تشرشل .. ولكنها أكنز .. وبرجها يبدو ملفوفا كالزلطة .. هل ميزتها ؟

— ٢٨٥ —

— لا أميز شيئا .. أنها دبابة .. وخلاص .
ثم بدأ محركا النظارة على طول الأفق قائلا :
— واحدة .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .
ولم يعد أكثر من ذلك فقد قطع عليه حديثه .. دوى شديد أصم الآذان .
وتلفت حوله فإذا بعمود من الغبار والدخان يتصاعد .. وإذا بفجوة من
الرمال قد بدت على مدى البصر من موقعهم ..
وقال عمر وهو يحاول أن يبدو أكثر هدوءا :
— بدأ الجد ..
وحدثت الحركة العصبية بين الطقم .. أمسك واحد بالمدفع .. وأمسك
آخر الذخيرة .. وقام ثالث ثم قعد ..
وصاح عمر صيحته التقليدية :
— اثبت ..
وتوالى الضرب .. وسمع صوت ضجيج الدبابات واضحا للأسماع وعمر
يرقب في صمت .. وتزايد القلق بإبراهيم وهمس بعمر :
— أستظل صامتين هكذا ؟
— أجل ..
— هذا شيء مزعج ..
— ألم أقل لك أن المسألة تحتاج إلى أعصاب وهدوء .. ومع ذلك فقد
أحس عمر أن شيئا لابد أن يعمل .. ولم يكده يسأله الألباشي :
— هل نحضر مزيدا من الذخيرة ؟
حتى هز رأسه موافقا ..
كانت الذخيرة بجوار المدفع .. ولكن أحضار المزيد منها لا يضر .. بل قد
ينفع وقت الحاجة .. وهو يشغل الطقم عن السكون والترقب .

وهبط الجنود من التبة يتبادلون نقل الذخيرة من عربة المدفع .. ونقلت
دفعه .. ثم ثانية .. وثالثة ..
وفي الدفعة الرابعة سمع دوى شديد .. أشد من كل ما سمع من قبل ..
وتلاه انفجارات تخللها صراخ .. وملاً الجو دخان وغبار ..
وأحس إبراهيم بأمعائه تتلوى في باطنه ..
شيء ما قد حدث ..
ومخلوق ما قد أصيب .. على مقربة منه ..
وقفز عمر يهبط من التبة ووراءه إبراهيم ..
وانقشع الدخان .. وهبط الغبار .. وعلى الضوء الرمادى .. بدت عربة
الذخيرة سوداء ممزقة كأنها قطعة ورق محترقة .. وعلى مقربة منها بدت كتل
سوداء مزقتها الشظايا .. وبدا جلدها المحترق .. رماديا كطفية السيجارة ..
وصعق إبراهيم ..
لم يصدق أبدا أن الأمر يمكن أن يحدث بمثل هذه السرعة والسهولة .
لم يكن حتى هذه اللحظة قد داخله إحساس جدى بحقيقة المعركة ..
وحقيقة ما يمكن أن يحدث حوله .. وله .
وأحس بغثيان .. ولم يدر ماذا يفعل ولا ماذا يقول ..
وكان عمر أسبق منه إلى النطق ..
تأوه في ألم .. كما يتأوه الحيوان الجريح .. ورفع يده يطبق بها على رأسه في
شدة ويصيح :
— خسارة .. خسارة ..
ثم يحدث نفسه :
— كانت الذخيرة عندنا كافية .. كان يجب ألا أتركهم يذهبون إلى
العربة ..

ثم يجيب نفسه :

— نصيبهم .. قدرهم .. لو لم يذهبوا السقطت القذيفة عليهم في المدفع ..
وألقي على الحطام الملقى أمامه نظرة يأس وردد :

— لا فائدة .. ربنا يرحمهم ..

ثم تحرك تجاه المدفع قائلا وهو ينظر إلى كوم الذخيرة التي نقلها الجنود ..
— لم يذهبوا سدى .. لقد أنقذوا لنا معظم الذخيرة ..

وكان ضجيج العدو قد علا .. ودباباته قد وضحت .. وقذائفه على
المواقع قد توالى ..

وكان الجندي الباقي من الطقم قد جلس وراء المدفع كالصنم .
وفي حقد ومرارة وأصرار أقرب عمر من المدفع .. ونحى العسكرى جانبا
وهو يقول :

— دعه لى ..

ثم تحسس المدفع وهو يجلس وراءه وأردف قائلا :

— سأضرب أنا .. وناولنى أنت الذخيرة ..

ثم همهم كأنما يحدث نفسه .. سأريكم .. كل رأس بدبابة .. يا أولاد
الكلاب .. وكان إبراهيم ما زال في ذهوله .. وغثيانته ..

كانت المرة الأولى التي يرى فيها منظر قتلى .. وحرقت ..
لقد اقشعر بدنه ذات مرة وهو يرى صورة الممثلة المحروقة التي سقطت بها
الطائرة في إحدى الصحف .. اقشعر من مجرد صورة الجسد الممزق
المحترق ..

فما باله .. وهو يراه رأى العين وبشكل أفظع وأبشع ..

وتمنى .. لو يغمض عينيه عن كل ما حوله ..

تمنى .. لو كان ما حوله كله كابوسا مزعجا .. وأنه سيفتح عينيه ليجد

نفسه .. فى الدار الآمنة بجوار المدفأة .. أمام ليلى ..
ولكن الدوى المتلاحق .. والضجيج المقترب .. أكدا له يقظته .. ولم
يتركها له فرصة الاسترسال فى أحلامه ..
وأحس أنه يجب أن يفعل شيئا .
على الأقل يعاون فى نقل الذخيرة .. بعد أن صفصف الطقم على الاثنين ..
عمر والعسكري ..
ووقف بجوار العسكري .. على استعداد لمناولة الذخيرة وهو ما زال يحس
بالغثيان ..

وازداد اقتراب الدبابات ..
وتوالى الضرب من الخط كله .. والدبابات مستمرة .. البعض على
الطريق .. والبعض يدور حول المواقع فى لفة واسعة .. والبعض الآخر تنثر
فى حقول الألغام ...
واستمر سيل الدبابات فى التدفق .. عطلت دبابة هنا .. ودبابة هناك
نتيجة لبعض الطلقات الطائشة البعيدة المدى .. ولكن الأغلبية العظمى كانت
مستمرة فى السير ..
وعمر ما زال رابضا فى مكانه .. يرقب فى حدة وعناد .. وقد أضحى
كله .. أعصابا مشدودة ..

وبرزت إحدى الدبابات فى الطليعة متقدمة على الطريق ..
وأتى عمر تعمير المدفع .. وبدأ التصويب ..
وأحس إبراهيم وهو يرقب عمر أن الغثيان قد ذهب .. وراحى من ذهنه كل
شيء ..

لا ليلى .. ولا مدفأة .. ولا قتلى .. ولا حرقى .. ولا شيء أبدا .. غير هذا
المخلوق الرابض أمامه .. كأنه وحش يوشك أن ينقض واستمرت الدبابة فى

الاقتراب ..

ويدا عمر على المدفع .. ونظره إلى الدبابة ..
وأحس إبراهيم بالخوف وهو يرى الدبابة توشك كما قال عمر .. أن يصدم
مدفعها رأسه .

وضغط عمر ضروسه .. وبدأ شدقه يتلاعب ..
ويهدوء أطلق المدفع ..

واستقرت الطلقة عند فتحة السائق في مقدمة الدبابة .. فانحرفت في
الطريق فجأة .. ثم توقفت .. وأخذت في الاشتعال ..
وضحك عمر .. وصاح كطفل أصاب النيشان ..
— وحشة دى ؟

وقبل أن يجيبه أحد .. حدث من الدبابة المصابة أمر مفاجئ ..
لقد استدار برجها بسرعة .. وتحرك مدفعها مصوباً في ملح البصر تجاه عمر ..
وفي ثانية برق الضوء في فوهته .. وانطلقت قذيفته ..
ولم يحس إبراهيم بشيء أكثر من ريح تمر به .. وسمع صرخة حادة .. ثم أبصر ..
مكان وجه عمر الضاحك وراء المدفع .. كتلة من الدماء .. وأبصر العسكرى
الآخر يجلس القرفصاء وقد أخذت الدماء تنزف من ذراعه ..
ولم يفكر ..

لم يصبه غثيان .. ولا ضيق ولا خوف .. لقد أحس بشيء واحد .. هو أنه
يريد أن يقتل إنساناً ما ..
يريد أن يمزقه بيديه وأسنانه ..

وقفز إلى المدفع .. ودفع الجسد الدامي من ورائه ..
وحاول العسكرى أن يتحامل ليجلس وراء المدفع ودماؤه تنزف ولكن إبراهيم
دفعه قائلاً :
(طريق العودة)

— ٢٩٠ —

— استرح أنت .. وحاول أن تضمد جرحك ..
وبلا وعى .. وجد نفسه بسهولة يفعل الحركات التي التقطها من عمر
والتي لم يخطر بباله أنه سيعيها قط ..
وفي ثانية أطلق المدفع ..
وفي هذه المرة صمتت الدبابة نهائيا .. لم يدر فيها برج .. ولا تحرك
مدفع .. فقد أضحت عمودا من الدخان ..

الفصل التاسع والعشرون

عملية إنقاذ

أخذت دبابات العدو تتدفق على الطريق .. وحاول العسكرى مرة أخرى أن يتناول المدفع .. ولكن إبراهيم رده في أصرار وهو يقول كأنما يحدث نفسه :

— إنها مسألة بسيطة .. ليست مشكلة كما كنت أتصور ..

وقال العسكرى :

— دعنى لهم ..

— ولكن سيادتك لم تستعمل المدفع من قبل ..

— سأستعمله الآن .. وعندما أعطل سأستعين بك ..

وبدأ يرقب الدبابات .. وتذكر آخر ما نطق به عمر .. « سأريكم .. كل رأس دبابة » ..

وهمس في حقد وهو يصر على أسنانه :

— بل بعشر دبابات .

واقتربت الدبابة الأولى .. وأحس أعصابه تتوتر .. وحواسه ترهف ..

وبدا له كأنما يسمع قول عمر « أن المسألة تحتاج إلى أعصاب ..

وهدوء » ..

وزاد اقتراب الدبابة .. حتى صاح به العسكرى الجريح :

— اضرب يا فندم ..

وضرب إبراهيم .. وأصابته الضربة جتير الدبابة فأطارته ..
ووقفت الدبابة ..

وصاح العسكري :

— ارفع التنشين وأضرب بسرعة .. قبل أن يصوب المدفع ..
وبسرعة ضرب إبراهيم .. فأطار البرج بمدفعه .. واشتعلت الدبابة ..
وأحس إبراهيم بفرحة غامرة ..
وانكشفت في نفسه معظم الأحاسيس .. وبرز إحساس الصياد ..
أصاب الفريسة الأولى .. وجلس يرقب الثانية ..
وتقدمت الثانية ..

وصاح العسكري :

— اخفض التنشين يا قندم .. اضرب بسرعة .. قبل أن يضرب هو ..
وضرب إبراهيم .. وأصابته الطلقة خزان البنزين فانفجر .. واشتعلت
الدبابة محدثة دويا شديدا ..

وسد الطريق .. وبدأت الدبابات تتحول خارجة وسط حقول الألغام ..
وبدأ البعض الآخر يستدير متراجعا .. وانهال الضرب عليها من بقية
المدافع على طول الخط .. وتوالى الانفجارات .. وتوالى الحرائق ..
وتعالت أعمدة الدخان ..

وأصبحت المعركة في الناحيتين كأنها قطعة من الجحيم ..
وزاد عدد دبابات العدو المصابة في أرض المعركة .. وبدأت الدبابات
المتبقية تستدير للتراجع ..

وتلفت إبراهيم حوله في دهشة .. وهو يحس أن كفة المعركة قد رجحت
في جانبهم .. وأن وطأة نيران العدو قد خفت .. وأنه يوشك على
الانسحاب ..

وأبصر إبراهيم الدبابات المدافعة قد برزت في الخط وبدأت في التقدم ..
لمطاردة العدو المنسحب ..

واستطاع أن يميز مراد وهو يتقدم بدباباته من وراء موقعه عن يمين الطريق ..
وملاً نفسه شعور بالراحة والسكينة .. وهو يرقب دبابة مراد تتقدم
وحولها بقية الدبابات ..

واندفع مراد في أرض المعركة ..
ولكن اندفاعه لم يطيل .. حتى فوجئ بإحدى دبابات العدو المصابة تصوب
مدفعها نحوه .. ثم تضرب دبابته ..

وأحس مراد بدبابته ترتج في عنف ثم تتوقف .. وأطل برأسه على السائق فإذا
به يقوص في بحر من الدماء .. وإذا بالمدفعجي والسائق قد أصبحا خليطاً من اللحم
والدماء والعظام .. وإذا بالنار تلتهم الدبابة وتوشك على السريان إلى خزان
البنزين ..

وأحس مراد بالمرارة ..
وبدأ له أن القدر يأبى إلا السخرية منه .. وأنه يصير .. رغم هذا الانتصار على
أن يحرق دبابته .. ويعيده إلى مواقعهم على قدميه مرة أخرى ..
ولم يجد بدا من التسليم لمشيئة القدر .. فإن لم يعد على قدمية .. خير من ألا
يعود مطلقاً ..

ورفع رأسه للخروج من برج الدبابة .. ولكنه أحس بسيل من الرصاص
يكتسح أعلى البرج .. ويفرش عليه غلالة تقطع عليه الطريق إلى الهروب من
البرج ..

ولم يجد أمامه سوى فتحة النجاة في قاع الدبابة ..
فهبط إليها بسرعة قبل أن تسرى النار إلى خزان البنزين ..
وخشى أن يتعذر فتحها .. فهو لم يحاول استعمالها قط .. ولكن الغطاء لم

يستعص على قوة ذراعيه وفرط لهفته ..
وحمد الله .. ولكنه لم يكذب يهبط بساقيه حتى روع .. فقد وجد الدبابة قد
غاضت في الرمل .. حتى اقترب قاعها من الأرض .. وضافت المسافة بينهما
حتى أضحي مستحيلا على مراد التسلل من أسفلها .
وأبصر إبراهيم وقفة دبابة مراد في ذهول .. ورأى النيران تقترب من
الخزان وسيل الرصاص يكتسح فوهة البرج ..
فصوب المدفع تجاه دبابة العدو ..
وبدأ يطلق ..
ولم يضرب المدفع ..
وكرر المحاولة فلم يضرب ..
والتفت إلى العسكري يستعين به ليصلح عطل المدفع .. فإذا به قد رقد في
حالة اغماء من فرط ما نزف منه ..
وكاد إبراهيم يحزن .. وهو يرقب مراد تحيط به النيران .. وهو يجلس
عاجزا ..
وتسلل إلى ذهنه خاطر شيطاني .
ماذا يحدث لو قضى على مراد ..
هل ..؟
ولكنه قفز واقفا .. كأنما لسعته عقرب ..
لعن الله هذا الشيء الخبيث الذي يتسرب إلى أذهاننا .. فيكرهنا على
التفكير فيما يثير في نفوسنا الاشمئزاز ..
لابد أن ينقذ مراد بأيّة طريقة .
لابد أن يذهب إليه .. فقد يستطيع أن يفعل شيئا ..
وبدون وعى .. ترك المدفع وهبط التبة .. وقفز إلى العربة الجيب ..

واندفع كالجنون تجاه الدبابة ..
وفي غمضة عين وصل إليها .. ووقف مسترا وراءها من سيل النيران الذي
يكتسح أعلى برجها .. وصرخ بصوت حاد :
— مراد ..

— نعم .
— لماذا لا تخرج .. إن الدبابة توشك أن تنفجر ..
وذهل مراد من الصوت الذي يهتف به خارج الدبابة .. وصاح بجيا :
— لا أستطيع .. لقد حاولت الخروج من فتحة القاع .. ولكن الدبابة كما
تري مغروزة في الرمال .. والقاع يكاد ينطبق على الأرض ..
— لماذا لا تحاول الخروج من البرج ؟
— سأقتل . ألا ترى النيران المصوبة إليه ؟ .. اسمع .. هل لديك
كوريك ؟

— أجل ..
— حاول أن تحفر لى من ناحيتك حفرة بين الجنزيرين .. حتى تفسح
المسافة بين القاع والأرض .. فلعلى أستطيع النفاذ منها ..
وقفز إبراهيم إلى الكريك المعلق في جانب العربة ..
وبجنون أخذ يزج الرمال أسفل مؤخرة الدبابة بين الجنزيرين ..
وصاح مراد :
— بسرعة .. أنى أكاد أختنق ..
وزاد إبراهيم من جهده .. حتى أحس أن أصابعه قد دमित وأن ذراعيه قد
تصلبتا ..

وعاد مراد يصيح .. وقد اختنق صوته :
— بسرعة يا إبراهيم .. لقد وصل اللهب إلى ..

— حالا يا مراد ..

وبدأت الحفرة تتسع أسفل مراد شيئا فشيئا ..
ودفع فيها قدميه .. ثم ثنى جسده وأخذ يجره بعنف وقد حشر بين الرمال
والقاع .. حتى استطاع أن يخرج من وراء الدبابة ..
ونظر إليه إبراهيم فزعا .. وهو يجد أمامه شيئا أشبه بالفحمة السوداء منه
بالكائنات الحية ..

لقد كان منظر مراد مروعا .. وقد أضاع الحريق شعره وألهب وجهه ..
وحرق ثيابه وأطرافه ..

وجلس إبراهيم على مقعد القيادة .. وارتمى مراد بجواره في إعياء شديد ..
وانطلقت العربّة ..

وأحست دبابة العدو .. بالصيد الهارب .. فحولت نيرانها من فوهة البرج
إلى العربّة .

ولم تسر العربّة برهة .. حتى اهتزت عجلة القيادة وتأرجحت العربّة
وكادت تنقلب ..

وندت صرخة من شفّتي إبراهيم .. وهو يحس بطريقة في جانبه .. وشعر
بسخونه السائل اللزج الأحمر يسيل على ضلوعه ..

ودار الكون به .. وغيمت سحابة على عينيه .. ولم يعد يبصر شيئا ..
أو يحس بشيء ..

وقفز مراد من موضعه ممسكا بعجلة القيادة .. وصاح بإبراهيم :

— ما بك ؟

وتأوه إبراهيم :

— لا شيء .. إني متعب فقط ..

وجره مراد إلى المقعد الخلفى .. وتسلم قيادة العربة .. وعاود الانطلاق
بجنون وسط الرصاص المتطاير .. حتى خف سيل الرصاص .. ثم توقف ..
وساد من حوله السكون إلا من صوت احتكاك العجلات بالأرض ..
وصدى الدوى البعيد ..

الفصل الثلاثون

ومعى حمل

مرت ساعات الليل الباقية بليلى ونهى .. فى وحشة مخيفة مروعة .. ودوى
المعركة القرية يرج البيت .. ويخلع قلوب سكانه ..
وجلست ليلى مغمضة العينين شاردة الذهن .. تصارع أفكارها
القائمة .. وهواجسها السوداء .. لا ينجيها من الصراع إلا دقائق الساعة ..
بين آونة وأخرى ..
وقبعت نهى أمامها .. محملقة العينين مرهفة السمع .. ترتجف من كل
دقة .. وتتفض مع كل دوى ..
وكلما هزت الريح الباب أو رج الدوى النوافذ .. همت بالوقوف فى
جزع ..
حتى بدأ الخيط الأبيض يتسلل من النافذة الزجاجية .. وبدأت المرثيات
باهتة من خلالها ..
وتسللت نهى لتجلس فى مقرها المختار .. وراء النافذة .. ومضى الوقت
وهى تمحلق فى الهياكل المبهمة المترائية وراء زجاج النافذة .. والتى أخذ الضوء
المتسلل فى الظلمات يحدد تفاصيلها رويدا رويدا ..
وأخذت تمحلق شاردة .. فى صفى النخيل الذى يحدد طريق العودة ..
وتتطلع إلى الربوة التى تكدست فى أفقها سحب قائمة تحجب السماء وتقطع
الطريق على كل شعاع يحاول التسرب مؤذنا بالشروق ..

ولم تكن نهى ترقب شروقا ..
ولا كانت تطمع من طريق العودة .. في أكثر من أن يعيد الغائب إليها ..
ومر الوقت .. ولبلى في رقدتها اليائسة مغمضة العينين .. مرهفة
الحواس .. مشدودة الأعصاب .. ونهى ترقب من وراء النافذة ..
مشدوهة .. مأخوذة ..
وسمعت من بعيد صوت عربية .. ولم تمض برهة حتى لاحت العربية الجيب
مندفعة من وراء الربوة ..
ومدت نهى عنقها ملصقة وجهها بالزجاج ترقب العربية القادمة .. وهي
تحس كأن دق المدافع قد انتقل إلى صدرها ..
ووقفت العربية أمام البيت .. وزاد التصاق نهى بالنافذة ..
وانفجرت كتل السحب القائمة في الأفق عن شعاع رفيع يتسلل ليصبغ
حواف السحب بحمرة قانية .. مؤذنا بشروق جديد ..
وأبصرت نهى على الشعاع المتسلل شبحا يهبط من العربية .. ثم ينحني
داخلها ليرفع جسدا آخر بين يديه ..
ويتقدم الشبحان ومن ورائهما الأفق الأحمر .. لا يبدو منهما غير الخطوط
الخارجية المحددة لجسديهما .
وقفزت نهى صارخة كالملسوعة .. واندفعت إلى الباب ..
وفتحت ليل عينيها في فزع .. ونهضت مندفعة وراءها بساقها المجبسه
وهي تصرخ متسائلة :
— ماذا حدث ؟
وفي صوت مرير أجاب مراد وهو يتجه بحمله نحو الأريكة :
— انتصرتنا .. أبدا اليهود ..
وانحنى ليضع حمله على الأريكة وهو يقول في صوت مختنق :

— ولم أعد هذه المرة على قدمي فقط .. ولكن عدت .. ومعى حمل ..
وارتمى على المقعد فى إعياء وياس .. وقال فى لهجته التى تشبه الأنين .
— لقد أنقذ حياتى ثم مات .. إني لا أستحق .. لقد كان خيرا منى .
ووضع مراد كفيه على وجهه ثم اندفع فى بكاء مرير كالأطفال ..
ووقفت ليلي تنقل البصر بين الاثنين .. وقد بدا على وجهها الذهول .. لم
تنطق ... ولم تبك ..
لقد تحركت بطريقة آليه .. تجاه الجسد المسجى على الأريكة .. ومدت
يدها لتحسسه .. وانتابتها قشعريرة .. عندما أحست بلزوجة الدماء
الساخنة ..
كانت فى كابوس مزعج .. لا شك فى هذا ..
أجل .. هذا مجرد حلم .. لا بد أن تفيق منه .. فهى لا تستطيع احتمالاه ..
أجل يجب أن تستيقظ ..
ومدت يدها مرة أخرى لتحسس وجهه .. ومست طاقتى أنفه ..
وسمعت أنين نهمى وقد ركعت بجوار الجسد تمسح رأسها فى صدره ..
ووصل إلى أذنيها نسيج مراد كالأطفال ..
إنها حقيقة .. أجل .. حقيقة ..
لقد مات إبراهيم .. مات ..
ولم تستطيع أن تحتمل .. وأحست أن الأرض تميد بها والدنيا تلتف
وتدور .. وخرت مغشيا عليها ..

الخاتمة

بعد بضعة أيام .. فى إحدى حجرات مستشفى الجمعية الخيرية
بالعجوزة .. كان مراد يرقد فى إحدى الحجرات وقد أغلقت النوافذ وساد
السكون .. وبدأ راقدا على فراشه وقد أحاطت الأربطة وجهه وعنقه
وأطرافه ..

ووقفت ليلى ترقبه فى صمت .. وقد جلست أمه على مقعد بجواره ..
وأمسك الطبيب كفه ثم ربتها قائلا :
— أنت الآن بخير .. سنرفع عنك الضمادات بعد بضعة أيام وتعود كما أنت
.. لقد غيرت جلدك كالثعابين ..

وتضاحك مراد :
— لعل جلدى الجديد يكون أفضل ..
— طبعاً .. لقد أجرينا لك عملية تجميل .. الحمد لله أن النار لم تصل إلى
جسدك ..

وتنهدت أمه رافعة كفها إلى السماء قائلة :
— الحمد لله ..
ورددت ليلى :
— الحمد لله ..

وعندما خرج الطبيب قالت ليلى :
— سأتركك قليلاً يا مراد .. حتى أذهب إلى البيت .. خذى بالك منه
يا نينة حتى أعود ..

ورد مراد :

— لقد تعبت يا ليلي .. لماذا لا تستريحين الليلة في البيت ..

وأجابت ليلي مؤكدة :

— لن أغيب أكثر من ساعة ..

وخرجت ليلي ..

وكان الليل قد أقبل بعد نهار صحو دافئ .. ما زال دقؤه يسرى في أطراف

الليل ..

وأوقفت ليلي .. أول تاكسى مريباب المستشفى .. وبعد لحظة كانت العربـة

تقطع بها شوارع القاهرة وهى تجلس في ركن منها منكشـة شاردة ..

ووقفت العربـة أخيرا ..

ليس أمام البيت ..

ولكن أمام مقابر الشهداء في الغفير ..

ودلفت ليلي في ضمت من البوابة الضخمة .. ولاحت المقابر فسيحة تتخللها

الأشجار المغروسة حديثا .. ومن ورائها بدت مآذن مقابر الخلفاء وقبابهم .

وقادها الحارس إلى مقبرة أنيقة وسط المقابر الرخامية الجديدة المنتشرة في أنحاء

الفناء لتذرف عليها دموعها خفية في ظلمات الليل ..

* * *

وفي مكان آخر .. بعيدا عن هذا المكان جلست مخلوقة أخرى .. نحيلة

عجفاء .. على قبر آخر .. لنفس الشهيد أقل فخامة وأكثر تواضعا على شاطئ

البحر في الغريش بين صفى النخيل .. جلست نهى على الربوة .. التى تشرق من

خلفها الشمس ! .. والتى يمتد وراءها طريق العودة .. وعلى الربوة .. وضعت نهى

حجرا .. وعليه خوزة نفس الخوزة .. التى سلمتها له عندما خرج إلى المعركة قائلة

له .. خذها .. إنك ذاهب لقتال ..

ولم تجلس نهي إلى القبر الذي صنعتة خفية .. ولا ذرفت عليه دمعة .. ولا
صعدت آهة ..

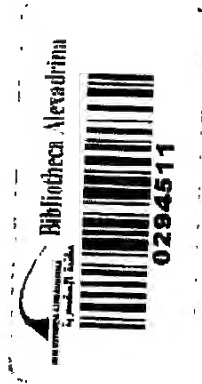
ولنما كانت تجلس إليه .. في أمل .. وثقة وأصرار .. لتحدد به طريق
العودة .. إلى الوطن .. الضائع .. والأرض المسلوقة .. ولتؤكد به .. أن
دماء العرب لا تراق سدى .. وأن الحق لا يضيع .. وأن الأوطان لا تسرق ..
وأن يوما ما .. مهما طال به الزمن ستعود الأرض المسلوقة إلى أهلها ..
ويسود طريق العودة .. سلام .. وأمن ومحبة ..

محتويات الكتاب

صفحة		
٥	: خطايا	الفصل الأول
١٤	: طريق العودة	الفصل الثاني
٢٤	: إحساس بالاستقرار	الفصل الثالث
٣٢	: امرأة واجب	الفصل الرابع
٤١	: كان لي	الفصل الخامس
٥١	: إني أعرفه جيدا	الفصل السادس
٦٠	: حياة بلا حساب	الفصل السابع
٧٠	: هزة مفاجئة	الفصل الثامن
٨٠	: بركان خامد	الفصل التاسع
٩٠	: استدعاء على عجل	الفصل العاشر
١٠٢	: عملية انتحارية	الفصل الحادى عشر
١١٣	: فراش خال	الفصل الثانى عشر
١٢٤	: عودة مريرة	الفصل الثالث عشر
١٣٥	: انتصار الحطام	الفصل الرابع عشر
١٤٥	: ومض البرق	الفصل الخامس عشر
١٥٦	: ثورة مظلوم	الفصل السادس عشر
١٦٦	: مزيد من الصبر	الفصل السابع عشر
١٧٧	: شر التجربة	الفصل الثامن عشر
١٨٧	: دخان المدفأة	الفصل التاسع عشر
١٩٨	: اللهب والوقود	الفصل العشرون
٢١٠	: الحقيقة الثالثة	الفصل الحادى والعشرون
٢٢١	: بلا نهاية	الفصل الثانى والعشرون
٢٣٤	: الخيط القاتم	الفصل الثالث والعشرون
٢٤٣	: كيف ودعتك ؟	الفصل الرابع والعشرون
٢٥١	: حساب خاص	الفصل الخامس والعشرون
٢٦١	: دوى الصوت	الفصل السادس والعشرون
٢٧١	: قبل العاصفة	الفصل السابع والعشرون
٢٨٢	: الوجه الضاحك	الفصل الثامن والعشرون
٢٩١	: عملية إنقاذ	الفصل التاسع والعشرون
٢٩٨	: ومعنى حل	الفصل الثلاثون
٣٠١	:	الخاتمة

رقم الإيداع ٧٧٤٩ / ٨٦ - الترقيم الدولى ٥ - ٢٧٤ - ١١ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البجالة



وزارة الثقافة
مركز مكتبة الإسكندرية

To: www.al-mostafa.com